د. نرمين نحمد الله

لَحنٌ سيبقَى بينَنا

رواية

دار دَوّن

إهداء

إلى رجل يساوي كل العالم..

إلى رجل دللني كابنته..

وتعلق بي كأمه..

واحترمني كمعلمته..

وأحبني كامرأته..

إلى رجل يستحق أن يقال عنه: (رجل)!

إهداء

إلى الغاليات:

فاطمة حمص.. هبة الشناوي.. نرمين شمس الدين..

لا وَحشةَ في ليلٍ أنثُنَّ نجومه.

تتوهين مني

كقمر يراوغ بين الغيوم..

وأبحث عنكِ

غريبًا لم يجد بسواكِ دارًا..

ماضٍ يفرق جمعنا..

ويطيل رغم المسير طريقنا..

لكن ذاك اللحن يردنا..

لحنٌ سيبقى نابضًا..

لحنٌ سيبقى بيننا..

النغمة الأولى

(كيف يحلو طَعم النهار
على من لم يذق مرارة العتمة؟!)

غزل

- أدرِكوها.. لو هربت ستكون كارثة!

صدى الهتافات الصارمة خلفي يدفعني للمزيد من الركض بسرعة مبتعدة عنهم، لتتلاحق أنفاسي المذعورة داخل صدري.. يجب أن أبحث عنها.. فايزة! هي وحدها من ستنجيني من هذا المصير الأسود الذي ينتظرني لو لحقوا بي.. تراها تعرف الحقيقة؟! بالتأكيد تعرف.. هي دومًا تعرف كل شيء!

التعب ينال مني لكنني أجاهد بكل طاقتي لأصل لباب الغرفة الوحيدة أمامي.. مخاطرة دخولها غير محسوبة لكن لا حل آخر فلا يمكنني العودة.. ألتفت خلفي لأطمئن لخلوّ المكان، ثم أغلق الباب برفق محاذرة إصدار أي صوت.. الغرفة شبه خالية إلا من نافذة وحيدة هرعت إليها لأطلق سبة خافتة وأنا أجدها مغلقة بقضبان من حديد.. لن يمكنني الهرب عبرها، ولن أخاطر بفتح باب الغرفة من جديد.. هل يصلح مكان هنا للاختباء؟!

عيناي تمشطان محتويات الغرفة.. دولاب خشبي صغير بزخارف قديمة قد تآكل طلاؤه، تخيفني محتوياته التي أجهلها.. سجادة صوفية متوسطة القيمة لا تقارن بما عرفته

عيناي طوال عمري من بذخ وترف.. وصورة على الجدار بإطار مذهب فخم لمولانا ملك البلاد المعظم (فاروق).. أغمض عيني بسرعة وشيء من الصورة يقبض قلبي برهبة؛ لكن الجلبة بالخارج تدفعني للاختباء بسرعة تحت المكتب الوحيد في الغرفة..

أضم ركبتيّ لصدري كي أحتل أصغر مساحة ممكنة.. أكتم أنفاسي وأنا أسمع صوت الباب يفتح لتتوقف خفقاتي للحظات مع سماع صوت خطواتهم..

(ليست هنا)

الصوت الصارم -على قسوته- يمنحني بعض الراحة وأنا أسمع الباب يغلق من جديد فأسمح لنفسي ببعض الارتخاء دون أن أغير جلستي.. بقايا الشمس الغاربة تتسلل خائفة -مثلي- عبر قضبان النافذة لتمنح الغرفة بعض الإضاءة الخافتة التي تمكنني من رؤية صندوق القمامة الصغير أمامي جوار المكتب والذي بدا فقير المحتوى لكنني لم أمنع فضولي من تفقده.. ورقة تقويم مطوية ملقاة بإهمال..

الخامس عشر من أبريل ١٩٤٢

إنه تاريخ اليوم.. يا الله! كيف مرت عليّ الأيام السابقة حتى وصلت إلى هنا مطارَدةً من أولئك الأوغاد؟! تكمل يدي

تفقد محتويات الصندوق لعلي أصل لما يمكن أن ينقذني من ورطتي.. ما هذه؟! قطعة من مرايا مكسورة بدا خلالها وجهي الذي أعرفه.. شفتاي الممتلئتان بتقوس طفيف للأعلى.. أنفي الدقيق المدبب.. وجنتي المرفوعتين.. بشرتي القمحية المائلة للسمرة والناعمة دون شائبة.. حاجباي الرفيعان، عيناي الواسعتان برموشهما الطويلة.. ملامح مثالية لولا هذا الحوَل الخفيف في عينيّ والذي يكاد يكون غير ملحوظ لكن (عين النقص) فيّ كانت تبرزه لي دومًا.. حتى قابلته.. هو (غريب)!

- ليس حوَلًا بل حوَرًا.. أنت حوراء.. كيف لا تفطنين حقًّا لجمال عينين كعينيك؟! كأنهما تسعان العالم.. بل كأنهما وحدهما عالم! رمشكِ هزمني بالحب.. وجفنكِ علمني الغزل.

وكأنما طفت الذكرى لعقلي كبلسم على جروح الروح.. لتهدأ دقات قلبي الثائرة وأنا أحاول الاسترخاء أكثر كي أفكر في مصيبتي الحالية، لكن كل مجهودي ضاع عبثًا فاسمه وحده -كالعادة- كفيلٌ بأن يحتل كل كياني.. هو «غريب».

لو كان لكل امرئ من اسمه نصيب فهو أخذ نصيبه كاملًا.. طالما بدا لي غريبًا في كل شيء.. غريب من «الغربة» ومن «الغرابة»!

متى كانت أول مرة رأيته فيها؟!

يبتسم قلبي لعذوبة الذكرى التي بدت طازجة:

يومها كنت حديثة العهد بالانتقال مع عمتي لسكنى العوامة ٧٧ التي احتلت موقعًا متميزًا على شاطئ النيل وتكونت من طابقين.. كل طابق يحوي أربع غرفات ومطبخًا وحمامًا.. أعرف أن العوامات نوعان: ثابتة لا تتحرك من مكانها، وأخرى متحركة ويطلق عليها «ذهبية».. وعوامتي كانت من النوع الأول.. يومًا ما سألت عمتي عن زمن ظهور العوامات ومن ابتكر هذه الفكرة الرائعة، فأجابتني عبر ابتسامتها -الحزينة دومًا- أن العوامات ظهرت في العشرينيات، وقد فرضتها الضرورة عندما عانت البلد من نقص مواد البناء بسبب الحرب العالمية الأولى؛ لهذا تسابق الناس لاستخدام الخشب في البناء.. لكن الضرورة تحولت لرغبة راقت عيون الأثرياء الذين تسابقوا في بناء العوامات الفاخرة للإقامة فيها.

ولعل هذا من حسن حظي أنا! فعمري الحقيقي بدأ هناك منذ انتقلت مع عمتي لسكنى عوامتنا التي بدت لي جنة صغيرة بشرفتها المطلة على النيل والأشجار التي أحاطت بها مع سقيفة من أغصان الكافور.. وجدرانها الخشبية التي تم طلاؤها بالأبيض الناصع.. وبابها الأنيق الذي تظلله شجيرات اللبلاب حيث تكبر كل يوم واعدة بالمزيد من الجمال مع

زهور حمراء صغيرة.. كانت عمتي تقطف إحداها يوميًا بعدما تصفف لي شعري فتفرقه من المنتصف لتضعها خلف أذني مع قبلتها الحانية التي تناسب عبارتها (أجمل عروس يا نور عيني).. أما أثاث العوامة فكان بسيطًا رغم فخامته، طلبته عمتي خصيصًا على ذوقها الرفيع من الخواجة (صموئيل) الذي يُعد أكبر تجار القاهرة في الأثاث فزبائنه يكادون يقتصرون على الباشوات ورجال قصر الملك، بل وبعض الإنجليز كذلك.. حتى سقالة العوامة التي تربطها بالشاطئ والتي كانت تخيفني نوعًا ما أول الأمر باهتزازها تحت وقع الأقدام، بدت لي بعدها كأنها أرجوحة لطيفة وجهاز تنبيه يشبه الجرس لو فكر أحدهم في زيارتنا مع غياب الحارس (العم نوح) الذي يقيم في كوخه الطيني على الشاطئ..

يومها شعرتُ ببعض الملل وقد أصاب عمتي صبيحته مرض خفيف جعلها تلازم الفراش.. فلم يتبقَّ لي رفيق سوى (لوسي) قطتي البيضاء التي صارت أنيسة وحدتي مؤخرًا.. وكأنها شعرت مثلي بالملل فظلت تلعق قدمي بموائها المستعطف، قبل أن تندفع نحو باب العوامة لترمقني بنظرة راجية لم أقاومها وأنا أضحك لها بحنان..

حملتُها بين ذراعيّ لنغادر العوامة وليس في نيتي الابتعاد؛ حتى أنني لم أخبر عمتي بمغادرتي.. نويت التمشية مع

(لوسي) قليلًا على شاطئ النيل ومراقبة العوامات المجاورة لنا بعض الفضول الذي سرق انتباهي وأنا أحاول التركيز في تفاصيل المكان حولي، ليقطع شرودي هروب (لوسي) من يدي واندفاعها نحو العوامة المجاورة لنا تمامًا.. ناديتها مرارًا وقد تملكني الخوف عليها والحرج من اضطراري عبور سقالة العوامة للبحث عنها.. اقتربت أكثر لأجد الماكرة قد جذبتها رائحة السمك الطازج الذي يبدو حديث الصيد، والذي تكدس مغريًا في حاويته جوار باب العوامة..

(لا تفعلي.. ليس ملكنا)

أهمس بها بالمزيد من الحرج، وأنا أكاد أنحني لأحملها بعيدًا، ليُجفلني الهتاف الرجولي خلفي (من أنتِ؟! ماذا تفعلين هنا)

أرتبك وأنا ألتفت نحوه لأشرح:

(قطتي.. هربت مني.. أعتذر.. يمكنني دفع ثمن السمك.. كله لو أردت)

لم أوصف يومًا بضعف الشخصية ولا باستجابتي للمشاعر المراهقة؛ بل على العكس طالما كنت أتسلى بنظرات الرجال المعجبين حولي موقنة أنني آمنة مكر الوقوع في الحب؛ لكن رجفة قوية شملت جسدي كله وعيناي تصطدمان بعينيه،

وكأنني سقطت في هوة بلا قرار... شيء فيهما جذبني.. جذبني بقدر ما أخافني.. لا ليس خوف الرهبة بل خوف التعلق.. لم يكن بالطبع أوسم رجل رأيته؛ لكنه كان أكثرهم جاذبية؛ خاصة وأنا أراه يغض بصره عني بما لم أفهم تأدبًا أم نفورًا..

سواد عينيه فاحم كليل بلا قمر، أنفه أشم يمنحه انطباعًا متغطرسًا، ، وقد كانت هذه أول مرة أرى رجلًا بهذا الشقّ الطبيعي في ذقنه، يسمونه في النساء (طابع الحسن) ولا أظنه زاده هو إلا سحرًا!

صوت المشادة العنيفة تحتنا يجعلني ألتفت نحو مصدرها.. (لوسي) التي كانت تتشاجر بمواء عنيف مع قط آخر أكبر منها حجمًا -لا أعرف من أين ظهر- في معركة بدت شرسة حتى أنني خشيت التدخل.. لكن الرجل أمامي قد فعل!

(سيزار)!

كلمة واحدة منه أنهت المشادة للعجب.. فقد استجاب قطه فور ما سمع اسمه لينسحب قافزًا نحوه، فالتقطه ليتفقد جسده بتفحص، قبل أن يمسد ظهره بحنان ليدفعه نحو العوامة فيغادرنا القط بمواء راضٍ.

(لوسي!) قلتها بلوعة وأنا أميز خدوش جسدها الدامية،

بينما أنحني لأحملها؛ لكن الرجل سبقني لفعلها ودون كلمة واحدة، بدا كفه الخبير على دراية بكيفية اجتذاب القطط.. (القطط فقط؟!) نفضت الخاطر الأخير عن رأسي وأنا أهتف به بغلظة لا تشي بما في نفسي:

- هاتها.. لا تلمسها.. ألا يكفي ما فعله قطك المتوحش؟! قلت لك سأدفع لك ثمن السمك كله.

لكنه رمقني بنظرة مستهينة وهو يعبر باب عوامته ببساطة حاملًا (لوسي) وتاركًا إياي بالخارج.. الوغد سرق قطتي! لهذا لم يكن أمامي سوى..

- عم نوح!

ناديت بأعلى صوت ليغادر الحارس كوخه مهرولًا نحوي باستغراب من وجودي هنا وليس في عوامتنا.. سقالة العوامة تهتز بقوة تحت وقع خطواته وهو يقترب:

- خيرًا يا هانم!

أشرت له بسبابة مرتجفة نحو الداخل وأنا أشرح له الوضع بكلمات مقتضبة، اندفع ليطرق باب العوامة المفتوح؛ لكنني لم أنتظر إذنًا وقد أمدني وجود (نوح) بالقوة المطلوبة، فانطلقت للداخل لأكتم شهقتي وأنا أرى الرجل قد استقر فوق شلتة قطنية على الأرض بينما (لوسي) بين ذراعيه وقد

انهمك في مداواة جروحها بحنان استجلب مواءها الممتن وهي ترفع نحوي عينيها كأنها تقول لي (اطمئني.. أنا معه بخير)..

تخشّب (نوح) جواري وقد فهم بدوره حقيقة الوضع بينما اختلست نظرة للمكان حولي والذي -على عكس عوامتنا- كاد يكون خاليًا إلا من أثاث بسيط.. بضع وسائد قطنية على سجادة خفيفة بدت لي يدوية الصنع برسوم مميزة لم أرَ مثلها من قبل.. مائدة خشبية اعتلاها (جرامافون) كبير.

عدت ببصري نحوه؛ لكن (الغريب) تجاهل كلينا، وقد بدا مشغولًا بمعالجة (لوسي).. يهمس في أذنها بما لم أسمعه وهو يضمها لصدره قبل أن يقبل رأسها بحنان جعل جسدي يرتجف من جديد.. (حنان الرجل! شيء يشبه أساطير الجان التي نسمع عنها ولا نراها.. طالما ظننت أن الإنسان قد خُلق من طين.. تراب وماء.. لكن طين الرجل يختلف عن طين المرأة.. المرأة يغلب على طينها الماء.. ماء عاطفتها.. والرجل يغلب على طينه التراب.. تراب قسوته)؛ لكن هذا الرجل ضرب عقيدتي في مقتل وحنان لمساته ونظراته يبدو لي كشمس لا يمكن نكرانها!

حنان ناقَضَ الصرامة التي خاطب بها (نوح) متجاهلًا إياي تمامًا:

(القطة معكما.. خذها وغادرا).

ساعتها ميزت لكنته الثقيلة -الغريبة نوعًا ما على مسامعي- لكنني لم أتوقف أمام الملاحظة فقد عدت لعوامتي بعدها وكان أول ما فعلته بعدما اطمأننت على عمتي و(لوسي) أن توقفت أمام مرآتي أراقب شكلي بتفحص.. ثوبي الأنيق قصير الكمين بلونيه الأبيض والكحلي والذي يظهر مثالية جسدي رغم نحوله.. شعري الطويل الذي فرقته من المنتصف وتركته حرًّا مموجًا إلا من زهرة حمراء خلف أذني.. حذائي ذو الكعب العالي الرفيع والذي لم يشفع لي أمام طول الجار الفارع.. وأخيرًا وجهي الذي داعبته حمرة خجل وأنا أسأل نفسي (كيف كنت أبدو له؟).

خجل امتزج بغيظ وأنا أتذكر الطريقة الفظة التي عامَلَنا بها.. لقد طردنا تقريبًا من عوامته بعدما أدمى قطه السخيف قطتي.. لهذا لم أملك نفسي وأنا أرسل له (نوح) مع مبلغ من المال يساوي أكثر بكثير من ثمن السمك.. لكنه رد لي إهانتي وهو يعيد المال مع (نوح) مع ما بقي من كيس السمك وبطاقة ورقية كتب عليها:

«هنيئًا لـ(لوسي).. تمنياتي لها بالشفاء العاجل».

خطه كان أنيقًا مثله.. لا أزال أذكر قميصه الكريمي المكوي بإتقان مع سرواله بلون أغمق قليلًا وطربوشه الذي استقام

بعزة تليق بجبينه العريض وسمرة وجهه الحليق التي ناقضت بياض أسنانه المنتظمة..

وفي فعل شديد السذاجة لم أعرفه في عمري من قبلُ وجدتُني أرفع البطاقة نحو أنفي أشم بقايا عطره العالقة فيها.. مزيج من الليمون والأخشاب ورائحة زيتية أخرى لم أعرفها.. لا أظنني يومًا شممت عطرًا فريدًا كهذا!

قضيت ليلتها مسهدة و(لوسي) في حضني.. كيف يمكن أن يكون الخوف لذيذًا هكذا؟! ولماذا أثار هذا الرجل بالذات اهتمامي؟ ألأنه أول رجل يتجاهل جمالي لا أعرف تهذيبًا أم نفورًا؟ أم هو حنانه الذي فاض في أفعاله مع مجرد قطة رغم تحفظ كلماته معي أنا؟ أم تراني أنا الواهمة الباحثة فقط عن تسلية وسط ركود أيامي؟

كنت أمسد ظهر (لوسي) بأناملي، فتُسول لي نفسي أنني فقط أطارد أثر لمساته.. شهقت لجرأة التخيل فغادرت فراشي لأتوجه نحو الشرفة وهاجسٌ ما يمنعني من إضاءتها.. هاجسٌ شكرته كثيرًا وأنا أنظر للجوار فأميز في الظلمة شبحه في الظلام يقف هو الآخر في شرفة عوامته يستند لسياجها وينظر لصفحة النهر رتيبة الحركة والتي بذر عليها القمر لآلئه.. هذه المرة لم يكن يرتدي طربوشه ليبدو لي وجهه الذي منحه ضوء القمر ظلًا مهيبًا أكثر حميمية.. شعره

الأسود متوسط النعومة مصفف بعناية.. شفتاه تتمتمان كأنه يتحدث لشخص غير مرئي ولا أعرف لماذا تمنيت أن أكون أنا!

لماذا هو بالذات أيقظ هذه المشاعر بصدري؟ لم أعثر على جواب شافٍ؛ لهذا كان الهروب للداخل أكثر القرارات عقلًا وقتها؛ لكنني بدلًا من هذا وجدتني أضيء الشرفة متصنعة البراءة كأنني وصلت لتوي.. نظرت نحوه بما بدا عفويًا لأصطدم بـ(شبه ابتسامة) زينت شفتيه وهو ينتبه إليّ.. لكنه خنقها خنقًا وملامحه تعود لجديتها.. لم يهز رأسه حتى بتحية فقط انسحب لداخل عوامته مغلقًا ضوء شرفته هو.. وتاركًا لي (شبه ابتسامة) ساحرة لونت ما بقي من أحلام ليلتي حينها!

أنتبه من شرود ذكرياتي على صوت باب الغرفة يُفتح من جديد فأنكمش على نفسي تحت المكتب أكثر..

(أخبرتك أنها ليست هنا.. لا تقلق سنجدها.. لن تهرب بعيدًا.. الكلاب بالخارج لن تدعها تفكر حتى في تجاوز السور).

الهتاف المرعب يتزامن مع نباح الكلاب من الخارج كأنها تؤيد كلامه فيتعالى معه توتري حتى بعدما سمعت صوت الباب يغلق من جديد..

يا إلهي.. متى ستنتهي هذه الليلة؟ وكيف سيمكنني الهرب؟ والأهم كيف أجدها هي.. فايزة التي تعرف كل شيء!

***

فايزة

أعرف أن الكثيرين يبحثون خلفي، وكيف لا وأنا شريرة الحكاية كما يظنون؟ هل أهتم؟ لا.. فليظنوا بي ما شاءوا أنا (ابنة أبي) التي تسير على دربه!

كان (فوزي نصار) يخبرني دومًا أن الدنيا كلها ليست سوى جلسات قمار متتالية.. بعضهم يكسب وبعضهم يخسر لكنه هو وحده اقتنص من اسمه نصيبًا فلم يعرف في حياته سوى الفوز والنصر.

لهذا عندما اختار لي اسمي فور ما تلقفني قطعة حمراء بين يديه، جعله (فايزة)، لعل حُسن طالعه يلتصق بقَدَري ما حييت..

(فايزة فوزي نصار).. اسمي الذي صار لعنتي!

أقاوم هذه الدمعة الحارقة في عيني وأنا أشعر ببعض الخوف مع الكثير من الألم؛ لكنني هنا في مأمن.. (عصمت) وعدني بالحماية وأنا -لسبب لا أعرفه- أصدق وعده.

الخاطر الأخير يعيد الثقة لنفسي فأتفقد شعري بحرص، أعيد ترتيب خصلاته، أتوجه نحو نافذة غرفتي المفتوحة فيطالعني انعكاس صورتي في زجاجها، شعري القصير الداكن الذي انسدلت بعض خصلاته الأمامية على جبيني

لتمنح وجهي استدارة رائعة، أنفي الدقيق، شفتاي الممتلئتان بطلائهما المتألق الذي يمنح دعوة لا يمكن رفضها خاصة مع هذه (الشامة) المتحدية في طرفهما تكاد تهمس بإغواء (أنا هنا فمن أنت لتتجاهلني؟).. ثوبي الأسود الضيق يحتضن منحنيات جسدي المثيرة بإغواء فأبتسم لصورتي في غرور أحبه في نفسي، تستقبلني شمس الصباح الدافئة مع رائحة الزهور المغرية التي تحمل لي نداء صامتًا بالنزول للحديقة حيث اتخذت مقعدي تحت شجرة (البانسيانس) الكبيرة بزهورها الحمراء المميزة.. طالما أحببت اللون الأحمر.. يزعمون أنه لون الدم.. وأحيانًا لون الحب.. لكنني أراه لون النصر.. وامرأة مثلي لا يغريها شيء قدر النصر مهما كان الثمن! هكذا أنا.. كنت وسأبقى (ابنة أبي).. فايزة فوزي نصار.

- نهارك سعيد يا فايزة هانم.

- نهارك سعيد.. أتيتَ مبكرًا اليوم.

أقولها وابتسامة مطمئنة ترتسم على شفتي وأنا أرى (عصمت) يتخذ مقعده على المائدة أمامي.. طربوشه الأحمر القاتم مستقيم على جبينه بأناقة أحببتها.. عيناه خلف زجاج نظارته المستديرة تحملان لي هذه النظرة التي أحتاجها الآن بالذات.. نظرة تقدير مع عاطفة لستُ موقنة من وجهتها لكن القليل منها يكفيني! وجهه مربع بجبهة عريضة جدًّا تكاد

تساوي وحدها نصف بقية ملامحه.. بشرته بيضاء متوردة تعطي مع ذقنه الحليقة مظهرًا شبه طفولي قريب للقلب، وسيم هو.. لكنها هذه الوسامة الخطرة التي تشعرني أنني محاصرة خلف نظرته المتفحصة.. لا يهم.. على أي حال أنا لا أنوي الكذب عليه.. ورقة مطوية تسقط من جيبه على الأرض، أتجاهلها -مؤقتًا- بينما أسترخي أكثر في مقعدي.. حمالة ثوبي ترتخي عبر كتفي لأعلى ذراعي فلا أتحرك لمنعها، مترقبة نظرته التي لاحقتها باهتمام فأكتم ابتسامة انتصار تليق بي.. لعل اهتمامه الذكوري يساوي أمانيّ هنا.. لهذا أُسبل جفني بارتياح وأنا أسمعه يسألني..

- كيف حالك الآن؟

أهز كتفي لأقول دون أن أفتح عيني:

- بخير طالما تنفّذ وعدك بمساعدتي.

- تبدين أكثر راحة وجمالًا اليوم.

- هل يعني هذا أنني كنت بشعة بالأمس؟

أقولها مبتسمة بدلال أنثوي أعرف أنه يزيد فتنتي الطبيعية، مختبرةً رد فعله؛ ليضحك ضحكة عالية وهو يرفع أحد حاجبيه بقوله:

- ماكرة أنتِ! لا ريب أنك كنت طفلة شقية.

تتجمد ابتسامتي وصوتي يشبهها:

(لا أحب الحديث عن طفولتي).

- لماذا؟ كانت قاسية؟

أتهرب من سؤاله وأنا أنحني لألتقط الورقة التي سقطت منه..

(مِظلّة عشقنا متقوبة، فكيف أقف وسط الريح أستهزئ بالمطر؟)

قرأتها بصوت عالٍ لألمح في عينيه وجعًا يشبه وجعي، جعلني أتمتم بأسى بينما أنظر لعينيه:

- هذا كلام عاشق بائس لوّعه الحب!

يبدو مصدومًا من قراءتي للورقة؛ لكنه يتجاوز هذا بسرعة ليقول متخابثًا:

- وما أدراكِ أنني أنا من كتبته؟

يقولها وهو يتناول مني الورقة ليطويها في جيبه من جديد، فأسأله بحذر:

- لماذا تساعدني؟

يُطرق برأسه للحظات حتى ظننته لن يجيبني قبل أن يرفع رأسه بعينين شاردتين:

- لأجلها.

- من هي؟

- يومًا ما سأخبركِ قصتها.. دعينا الآن نتكلم عنك أنتِ.. قلتِ إن طفولتك كانت قاسية؟

- لم تكن قاسية بقدر ما كانت غريبة.

أشيح بوجهي هاربة من حصار نظراته؛ لكنه يضحك وهو يقترب بكرسيه مني بعبارته: (هذا يزيد فضولي للمعرفة.. وفضولي ليس صالحًا للمقاومة لو تعلمين!).

- لا تهتم.. أظن ما يهمك حقًّا هو حقيقة زواجي من (مراد).

- كل ما يهمك.. يهمني.

ألتفت نحوه كأنني أختبر صدق دعمه، ثم أزدرد ريقي بارتباك، تلتقي أعيننا ببعض العناد الذي روّضه ذكاؤه بابتسامته:

- اعتبريه عربون صداقتنا.. ألا تحبين أن نكون صديقين؟ دعينا نتبادل الذكريات.. وأعدك أن آخذ دوري مرة قادمة.

صديقين؟ هل يمكن حقًّا أن تظلّ علاقتنا هكذا؟ هل يخدعني هذا الود في نظراته؟ أفكر أن أستغل ذكائي للمزيد من المراوغة؛ لكنني أعاند طبيعتي هذه المرة لأمنحه نقطة تفوق.. لا بأس من بعض الفتات الذي يُرضيه ما دام هذا يضمن بقائي آمنة هنا..

- موافقة.. ربما أنا أيضًا أحتاج للتفكير في شيء بعيد عن مصيبتي الحالية.

يشير لي براحته كي أبدأ الحكي ونظرته تلين رويدًا رويدًا برفق آنسني وجعلني أجنح للمزيد من السلم.. عدت أغمض عيني في مقعدي وأنا أحاول مطاردة نورس الماضي المهاجر:

- ولدت وفي فمي ملعقة ذهبية كما يقولون، كطفلة وحيدة في فيلّا (فوزي نصار) كما تعرفها.. فيلّا فخمة في (الزمالك) تشبه القصور، خادمة مخصصة لي، طلباتي كلها مجابة قبل حتى أن أطلبها.. طفولة مثالية.. باستثناء شيء طفيف.. طفيف جدًّا.. أنني شهدت جريمة مقتل أمي.. بل وتسترت على قاتلها.. ربما.. ربما لأنني دون قصد شاركته جريمته!

تحشرج صوتي في كلماتي الأخيرة رغمًا عني.. تعجبتُ بَوْحِي بهذا الأمر أمامه هو بالذات.. هل كنت أتلاعب؟ أحاول كسب تعاطفه؟ لا.. الحقيقة أن سؤاله أزاح الغطاء عن فوهة

البركان الذي عشت عمري أحترق بحممه والآن تجرأت لأجد من يقبل أن يحترق به معي.

فتحت عيني للحظة أراقب ردة فعله على ما قلت.. تكذيب؟ شفقة؟ فضول؟ لا.. لم يبدُ شيء ما على ملامحه الجامدة؛ كأنه ينتظر بقية اعترافاتي دون مراوغة.. ربما لهذا أعدت إغلاق عيني مستجيبة للمزيد من البوح بنبرتي التي تحمل دومًا رنة السخرية:

- تعرف؟ أفكر أن أكتب يومًا مذكراتي في كتاب أسميه (لا تنظري تحت الفراش).. الفضول قتل القط.. والتلصص من تحت الفراش عادةٌ سيئة قتلتني منذ زمن بعيد.. لا أذكر متى بدأت.. لعلها يوم سقطت دميتي صدفة تحت فراش أبي فتسللت تحته لألتقطها.. ثم خطر لي أن أذهب لأعود بفانوس رمضان الماضي الذي أوقدت شمعته لينير الظلمة النسبية تحت الفراش.. ووجدتني منجذبة لعالم صغير منعزل مع عرائسي هناك كأنه اكتشافي المذهل.. ظللت أكرر التجربة بعدها كلما سنحت لي الفرصة.. أبقى هناك مستلقية على بطني أراقب غرفة أمي وأبي من ذاك المكان.. الغرفة التي حملت فراشين.. أحدهما لأمي والآخر لأبي.. ورغم أن أمي كانت الأقرب لي بطبيعة الحال -فهي المقيمة معي طوال اليوم- لكن أبي كان يبدو لي كحارس المغارة الغامض المبهر

الذي لا يظهر كثيرًا؛ لكنه يعود فاتحًا كفيه لتنهمر منهما الكنوز.. لم يكن حنونًا ولا أذكر أنه كان يسرف في عناقي وتقبيلي؛ لكن حضوره كان يعني بعض التجديد والكثير من الطعام المميز والحلوى التي تعدها أمي. ومن برج مراقبتي السفلي هناك تحت فراش أبي عرفت أن الثريا الفخمة المدلاة من سقف الغرفة إحدى كريستالاتها مكسورة.. وأن ستائر الشرفة لا يصل طولها للسقف كما كنت أظن.. وأن الخادمة كانت تستغل مساحيق زينة أمي في غيابها.. وأن الخادم كان يغازلها.. عرفت أين يُخفي أبي مفاتيحه السرية.. وأين تخفي أمي خيبة نهارها ودموع ليلها.. وأن الوسائد ليست فقط للنوم بل لدفن البكاء.

صمتُّ للحظة وأنا أشدد إغماض عيني كأنني أستدعي المزيد من الذكريات.. فتخرج كلماتي متخبطة:

- لا أزال أذكر تلك الليلة التي عدت فيها مع أمي -وقد كنت فقط طفلة ذات سبعة أعوام- من زيارة لإحدى صديقاتها.. عدنا فجأة لنجد أبي وحده في الفيلّا على غير موعده، وقد صرف جميع الخدم وبدا على وجهه ارتباك نادر.. لم تلحظ أمي ما لاحظته وهو يدفع بقدمه شيئًا ما تحت الفراش.. تعرف ماذا كان؟ قِطَعًا خاصة جدًّا من ملابس داخلية نسائية! رفعتُ رأسي لأمي لكنها بدت غافلة عما رأيته.. كانت المرة

الأولى التي تصطدم فيها فطرتي بشيء مثل هذا، لأفهم بوعي الطفلة وقتها أن أبي يفعل شيئًا شائنًا مع امرأة غير أمي.. شيء يشبه مغازلة الخادم للخادمة، والتي تنتهي بالتلامس الذي لم أعرف وقتها إلامَ يُفضي، فقد كنت أغمض بعده عيني.. ليلتها مارست هوايتي في التسلل لغرفتهما لأقبع تحت الفراش باحثة عما رأيته لكن أبي كما بدا لي نجح في إخفائه.. هل حقًّا أخفاه؟ لماذا إذن بقيت عيني تراه ليالي طويلة بعدها تحت الفراش كأن الصورة التصقت بحدقتيّ فأبت مغادرتها.. كنت أكبر فيكبر شعوري أن أبي يخون أمي.. لهذا تبكي دومًا عندما لا يراها أحد.. هل أخبرتها بما رأيته؟ لا.. لم أفعل.. كان الذنب الأول الذي تسترتُ عليه والذي تلاه المزيد من الذنوب.

لم أنتبه لخيط الدموع الذي سال على وجنتي إلا عندما شعرت بنبرة عصمت الحانية مع قوله:

- اشربي العصير.. برتقال بالجزر كما تحبينه.

شكرتُ له عدم تعليقه واكتفائه المؤقت بالاستماع إليّ، لألتقط بعض أنفاسي مع رشفات العصير، ثم أساله بترقب مراوغ:

- ألا تزال تريد سماع المزيد؟ يمكنني الانتقال دون ثرثرة فارغة لظروف زواجي من مراد.

لكن نظرته الحاسمة تمنحني الجواب الرادع، فأعاود الاسترخاء في مقعدي لأكمل مطاردة نورس الماضي:

- كنت أكبَرُ يومًا بعد يوم فيزداد وعيي لما حولي.. لكن عادتي في التلصص من تحت الفراش بقيت كما هي من آن لآخر عندما تتاح لي الفرصة.. بدأت أمي تنشغل عني فلا أكاد أراها ليزداد شعوري بالوحشة، وأنا لا أفهم لماذا صاروا يبعدونني عنها.. ولماذا لم تعد تتفقد أحوالي كالسابق.. صار وجهها أكثر شحوبًا وجسدها أكثر نحولًا ووسادتها أكثر بللًا، فلم تعد تكتم الدموع فقط بل والصراخ كذلك..

- كل يوم تزدادين حلاوة!

- (فايق ورايق).. هل هذا وقته؟

- وما له الوقت؟

- (الست هانم بتموت).. أصابها (المرض البطّال)! كل يوم تذهب لطبيب ولا فائدة.. سيدي (فوزي) أرسل في طلب الطبيب الإنجليزي الذي عالج الباشا صاحبه ليطلع على حالتها.. حرام! لا تزال صغيرة! وابنتها.. من لها بعدها؟

من موقعي المختلس تحت الفراش سمعت حوار الخادم والخادمة ليخفق قلبي لأول مرة بهذا الرعب وأنا أفهم

أن (المرض البطال) هذا كان رسول الموت لأمي.. هذا هو سبب ما يحدث.. حالة أمي وبُعْدها عني.. كدت أُظهر نفسي وأصرخ في الجميع أنني صرت أعرف.. لكنني كنت مصدومة باكتشافي مقهورة بحزني وخائفة أن أفقد مزية مخبئي، لعله فرصتي الأخيرة لمراقبة أمي.. ليلتها دخل أبي لغرفتي، عانقني عناقه القصير المقتضب الذي كان يخيفني أكثر مما يطمئنني، كان ينظر لعيني قائلًا كلامًا مبهمًا عن أن الدنيا قد تحرمنا بعض الأشياء رغمًا عنا، وأنني فتاة قوية يتوقع منها الصمود أمام أي أمر.. بحثت في عينيه وقتها عن بقايا حنان تشبه حنان أمي؛ لكنني لم أكن أعرف أن (الحنان) كلمة مفقودة في قاموس (فوزي نصار) كشأن كل العواطف الإنسانية الأخرى.. هو كان مجرد آلة للكسب محركها الطمع ووقودها المادة فحسب.

أصمت قليلًا وكأنما أتمالك سخطي الحالي على فوزي نصار، أو (الجوكر) كما يحب وصف نفسه.. لأعاود الغوص في بحر الماضي:

- مرت الأيام القصيرة بعدها متشابهة.. قلّ اهتمام الجميع بي حتى صرت غير مرئية.. سمحوا لي بزيارة أمي التي صارت ملازمة الفراش؛ لكنهم كانوا يمنعونني النوم معها.. كانت تنظر لي نظرات غريبة كأنها تعاتبني مرة، تعتذر مني

مرة، وتودعني مرات.. نظرات لم أفهمها إلا تلك الليلة التي مارست فيها عادتي الذميمة وأنا أتسلل مستغلة نوم الجميع لأرقد تحت فراش أبي الذي صار غائبًا دائمًا فقد سمعته يقول إنه ضاق بالبيت الكئيب الذي تفوح منه رائحة الموت والمرض.. كنت أراقب أمي من مكاني وقد افتقدتها لثلاثة أيام كاملة، منعوني فيها من رؤيتها من جديد.. اعتدت صرخاتها المتألمة التي صارت وقتها تشق سكون البيت.. تمنيت لو أنام في حضنها لكنني خفت أن تستيقظ وتعيدني لغرفتي كما صارت تفعل مؤخرًا.. هي الأخرى صارت تتحدث مثل أبي بكلام يشبه كلامه عن أنني فتاة قوية يجب أن تعتاد الفقد.. لكن صوتها الشاحب المرتجف لم يكن أبدًا يشبه صوته.. كنت أحتضن دميتي وقد نمت على بطني أراقبها في نومتها من أسفل.. ورغم أن المرض اللعين سرق جمالها وحيويتها؛ لكنها في نومتها الهادئة بدت لي كما رأيتها طوال عمري.. ملاك! هل حسدتها؟ هكذا شعرت وهي تنتفض فجأة من نومها لتتأوه من جديد بألم شق صدري.. كدت أندفع نحوها لكنني تجمدت مكاني وأنا أرى باب الغرفة يُفتح، توقعته أبي؛ لكنه كان آخر رجل توقعت رؤيته هنا الآن! كان حارس البيت! من سمح له بالدخول لغرفة النوم في هذا الوقت؟ هل جاء يسرق؟

الغريب أن أمي التي كانت تبعدني -كي لا أراها في وضع

كهذا- لم تطرده؛ بل رفعت له كفيها بعجز وقد بدت كأنها تكتم آهاتها.. اندفع نحوها ليركع جوار فراشها فسمعت ما لم يخطر ببالي:

- لماذا جئت؟ أرجوك ارحل.. أنت بالذات لا أريدك أن تراني هكذا! دعني كما كنت طوال العمر بعينيك.. زهرة لا تذبل أبدًا.

- كنتِ وستبقين.. في أي صورة وفي أي حال.. لا تطلبي مني المستحيل.. أنا احتملت حُكم القدر فينا ورضيت بتركك لمن هو خير مني كما قالوا وقتها.. قَبِلتُ أن أكون له مجرد حارس فقط لأبقى جوارك حتى ولو لم تكوني لي.. قنعتُ بدور الظل الذي يناظر حياتك كأنها حياته.. يحب ابنتك كأنها ابنته.. يكفيه أنه يبقى حيث بقيتِ! والآن تريدين الرحيل دونه؟ ما عهدتك ظالمة يا طيبة القلب..

دموعه تمتزج بدموعها وهو يقبض كفيه جواره كأنه يحارب نفسه كي لا يمسها.. فتنفلت منها آهات وجعها رغمًا عنها.. ألمها لم يكن يسحق صدري وحدي؛ بل هذا الراكع جوار فراشها والذي انسابت كلماته محترقة بلوعته:

- ماذا أفعل؟ فداكِ روحي يا كل روحي..

- الألم لا يطاق.. جسدي كله يتفتت.. أرجوك.. سأطلب منك شيئًا لن يفعله لي غيرك.. أرجوك لا ترفض.

- ترجوني؟ منذ متى رفضت لك طلبًا؟

أشارت بسبابتها المرتجفة نحو كيس من الأدوية على الكومود جوارها هاتفة بين صرخاتها الواهنة:

- بسرعة.. قبل أن تعود الممرضة.. احقنني بهذا العقار.. الأمبول كاملًا.. كاملًا أرجوك.

- وماذا سيفعل هذا؟

سألها برعب، وقد بدا أنه يفهم مقصدها قبل أن تفصح عنه:

- سيرحمني من هذا العذاب بسرعة..

- لا!

انتفض بها رافضًا، ليحجب عني جسده الطويل وجه أمي؛ لكنها انكبت على كفه تقبله قبل أن يسحبه هو بعيدًا بسرعة وهي تكرر رجاءاتها:

- أنت لست مثلهم.. ارحمني.. أنت تعرف ما قاله الطبيب.. ما جدوى بضعة أيام أعيشها في هذا الجحيم؟ كلهم تركوني لنهايتي وحدي.. لو كان لي في قلبك مثقال ذرة من حب فأرحني من هذا العذاب!

- أقتلك؟! أقتلك بيدي وأنا الذي أتمنى لو يفتديك بعمره كله؟!

- أرجوك.. لم أعد أحتمل.

الشلل أصابني ورجاءات أمي الحارقة تلهب قلبي، الحيرة سمّرتني مكاني مثله، لو كانت أمي طلبتها مني أنا هل كنت سأفعلها رحمة بها؟ أم كنت سأجبن وأنتظر حكم القدر؟!

ملّت أمي من طول رجاءاتها، فاستسلمت لنزيف آهاتها المتوجع بينما بدا هو كأنه يقف على جمر، قبل أن يغادر الغرفة كلها، فامتزجت صرخات أمي الخافتة ببكائها.. تحركت أنا وفي نيتي أن أُظهر لها نفسي وأخبرها أنني معها؛ لكنني سمعت الباب يُفتح من جديد، فعدت لمخبئي بسرعة.. لقد عاد! بدا وكأنه لم يحتمل صرخات وجعها فاتخذ قراره.. أنفاسي احتبست في حلقي وأنا أراه يملأ الأمبول كاملًا، فتمد له أمي ذراعها برجاء ليغرسه فيه!

وابتسمت أمي.. ابتسمت أخيرًا بعد أيام طويلة عجاف لم أرها تفعلها.. ابتسمت بامتنان وهي تعيد رأسها للخلف.. بينما شرع هو يبكي وهو يتخذ مجلسه جوارها على الفراش هذه المرة، يرتعش صوته وهو يحدّثها لأفهم من كلامه أنهما كانا متحابيْن قبل أن تعرف أبي؛ لكن أهلها أجبروها أن تتزوجه.. لم تخن أمي كما كان يفعل أبي؛ بل حفظت عِرضه طوال هذه السنوات وإن بقي قلبها المغلق على حاله.. احتملت حياتها الجافة لأجلي.. الآن فقط أفهم معنى نظراتها الغريبة لي..

- لن أعيش بعدك يومًا واحدًا..

قالها بحسرة لتهتف له بتضرع:

- بل ستعيش.. لن يعرف أحد بما حدث.. ستعيش لأجل فايزة.. احمها ولو من نفسها.. احمِها منه هو.. هو سيؤذيها.. قلبي يخبرني أنه سيفعل.. هي أمانتي لك.. عش لها.. عش لها العمر الذي لم نعشه معًا.. عش لها.

انقطعت كلمات أمي مع إغماضة عينيها الأخيرة، لأراه ساعتها فقط يضمها إليه بذراعيه كأنها أغلى كنوزه، رافعًا رأسه للأعلى ومتمتمًا بكلمات لن أنساها:

- يشهد ربي أني لم أمسّكِ يومًا في حرام.. لكن الآن لا يمكنني إلا أن أودعك كما يليق بكِ.. ولا شيء يليق بوداعك لو تعلمين.

قطع عبارته وهو يخفي وجهه في طيات عنقها وقد ارتعد ببكائه جسده.. وجسدي!

كلماتهما الأخيرة ظلت عالقة في قلبي كنقش على حجر.. من كانت تقصد أمي بقولها (أنه سيؤذيني)؟ الأيام منحتني الجواب الذي لم أكن أتوقعه لكن بعد سنوات..

لا أذكر ماذا حدث لي عقب ذاك الأمر فقد أصابتني حمى

شديدة بعدها أفقدتني التركيز عدة أيام حتى انتهت مراسم الجنازة والعزاء.. أفقت لأجدني في نفس البيت لكن غابت روحه.. لم أكف بعدها عن التسلل تحت فراش (فوزي) بل فعلتها مرات.. أناظر فراش أمي الخالي فأتذكر كل ما حدث ليلتها.. أكتوي به وحدي.. وكلما كنت أرى الحارس الذي أعرف سره كنت أمنع نفسي بقوة من الوثب لعنقه ونشب أظفاري فيه والصراخ بكل قوتي أنه هو.. هو قاتل أمي.. لكنني كنت أعود لأفكر.. هل قتلها حقًّا أم رحمها؟ هل كان ضعيفًا وهو يستجيب لرجاءاتها أم كان قويًّا وهو يجبر نفسه على فعلها؟ من قتلها حقًّا؟ فوزي نصار الذي قطف زهرة عمرها وبخل على بتلاتها الجافة بالرعاية حتى في لحظاتها الأخيرة؟ أم هو الحارس العاشق الذي لم يرضَ لها المزيد من الألم اليائس؟ والذي بقي محافظًا على عهد أمي في القرب مني وإن لم يعرف أنني أعلم كل شيء!

أفتح عيني أخيرًا لأصطدم بنظرة عصمت المراعية والتأثر الذي شاع في قسماته، فأغتصب ابتسامة ساخرة:

- قصة غريبة! تظنني ألفتها؟

- أنا أصدقك.

كان هذا ما أحتاجه لأطلق تنهيدتي الحارقة وأنا أشرد في سرب طيور بيضاء في السماء لأسأله:

- وهكذا كبرت لأدرك أنني تسترت على خيانة أبي، فتحدثني نفسي أنه ربما لو كنت أخبرت أمي لكانت وجدت عذرًا للتخلص منه.. لكانت هجرته وتزوجت من رجل قلبها الذي بَقِيَ وفيًا للنهاية.. بل لو لم أكن موجودة أصلًا لما اضطرت أمي للمزيد من البقاء معه.. لكن نفسي كانت تحدثني مرات أخرى بالعكس؛ ربما لو لم تحب أمي الحارس لوجدت في قلبها مكانًا لأبي ولما عانت تعاستها.. وبين الشعورين المتناقضين كبرت وأنا أرهب هذا الشعور الذي يسمونه (الحب).. أرهبه وأهرب منه وقد عاهدت نفسي ألا أسمح بالغرق في بئره أبدًا.. وفي كل مرة كانت عيني تقع في عين ذاك الحارس كنت أسأل نفسي وأنا أكاد أجزم بالجواب (هل يقتلنا الحب؟ يقتلنا من حيث نظن أنه يحيينا؟).

يرمقني عصمت بنظرة غريبة وهو يهم بالرد؛ لكننا ننتبه للجلبة عند الباب الكبير، فأنتفض من مكاني وأنا أسمع صراخ الأصوات العنيفة مع الطرق المدوي على البوابة المعدنية:

- هي هنا.. نعلم أنها هنا.. أعيدوها إلينا.. أخرجوها حالًا.

أرمق عصمت بنظرة راجية، أذكّره بوعده، فيتحرك مع رجاله ليبتعدوا نحو البوابة؛ بينما أختبئ أنا خلف جذع شجرة قريبة بقلق حتى تختفي الجلبة ويعود لي عصمت مبتسمًا بقوله الواثق:

- لا تخافي.. وعدتك ألا يؤذيك أحد..

أرد له ابتسامته بامتنان، وأنا أكتف ساعديّ بقولي:

- يكفي هذا اليوم.. نكمل حديثنا فيما بعد.

لوهلة ظننته سيعترض؛ لكنه أومأ برأسه ونظرة حانية تغزو عينيه.. يغادر لأصعد نحو غرفتي فأستلقي على فراشي وأنا أتحسس هذا الثقل في إصبعي.. كتلة من الذهب حملت اسم أكثر رجل عشقته.. وأكثر رجل كرهته.. (مراد)!

***

النغمة الثانية

(الحب لا يشتري الثياب والألعاب والحلوى لكنه يخلق في القلب فرحة ألف عيد)

غزل

أشعر بالتنميل في قدمي فأحركهما قليلًا، أجرب رفع رأسي لأعاود تفحص الغرفة الكئيبة تحت ضوء القمر الهزيل، لن أقبع ساكنة هكذا تحت المكتب طوال الليل.. لكن هل من العقل أن أبرح مكاني؟

أحسم حيرتي وأنا أتحرك بحذر.. يُصدر المكتب صريرًا معدنيًّا يثير رعبي وأنا أخشى أن يكون قد سمعه أحدهم لكن السكون حولي يمنحني المزيد من الأمن.. أتحرك بخفة نحو الباب أسمع ما خلفه ويدي تتردد على المقبض.. لا.. لا أشعر بالاطمئنان للخروج.. فلأبقَ هنا قليلًا.

أتوجه نحو النافذة وأنا أمسّد جسدي محاولة تليين عضلاتي المتيبسة.. القمر ليس حبيسًا مثلي.. يراوغني من خلف غيومه فيظهر ويختفي كأنه يلعب معي الغميضة.. يبتسم لي كأنه يذكّرني بأغلى من نظر إليه معي.. (غريب)..

فتجرفني تيارات الذكرى من جديد...

كانت قد مرت بضعة أيام بعد لقائنا الأول لم أحاول رؤيته فيها.. فبقدر الانجذاب الذي دغدغت قلبي حلاوته نحوه، بقدر الخوف الذي ملأني من مطاردة سراب الحب.. حتى كان ذاك اليوم الذي قبلت فيه دعوة (أم زكي)!

من أم زكي؟ زوجة كبير الصيادين في هذه المنطقة والتي دعتني مع عمتي لرحلة في مركبه الكبير نرى فيها كيف يتم الصيد عبر النهر العريض.. اعتذرت عمتي عن قبول دعوتها فكدت أرفض أنا الأخرى، فما الممتع في رحلة كهذه؟ لكن الملل دفعني للقبول آخر الأمر.. ارتديت ثوبًا بسيطًا بلون السماء مع نقط بيضاء صغيرة، وتخليت عن الكعب العالي مكتفية بحذاء خفيف مفتوح، وفرقت شعري من المنتصف كما أحب لأتركه حرًّا دون أن أتخلى عن زهرة عمتي الحمراء خلف أذني، وأخذت معي رواية أجنبية لكاتبي المفضل تحسبًا لشعوري بالملل هناك.. ومع هذا بدا مظهري جذابًا حتى أنني شعرت بالخجل من نظرات الصيادين المتفحصة على المركب الكبير؛ لكن العم (أبو زكي) زجرهم بنظرة رادعة وهو يرحب بي:

(خطوة مباركة يا ست هانم).

ابتسمت له بودّ وأنا أمد له يدي ليساعدني في صعود المركب، وقفت عمتي تلوح لي مودعة من مكانها في شرفة عوامتنا حتى اطمأنت لسلامتي ورضاي عن الرحلة، ثم علا صوتها توصي أبو زكي وزوجته عليّ.. لتضحك الأخيرة قائلة:

(الخير على قدوم الواردين.. رزقك يا كريم يا رب).

اتسعت ابتسامتي وأنا ألاحظ أخيرًا أن الدعوة لم تشملني

وحدي.. فهذه (مدموازيل إيريني) جارتي في إحدى العوامات المجاورة.. لفظة (مدموازيل) بدت غريبة مع تجاعيد وجه المرأة التي فضحت خمسين عامًا على الأقل.. لكنها بقيت على آثار لجمال باهت وطيبة محببة.. حيتني العجوز خضراء العينين وردية الشفتين بدينة الجسد بترحاب حار، فرددت لها تحيتها بتحفظ خجول..

- جسم جميل يستحق واحدًا من ثيابي.

قالتها بلطف وهي تجالسني على نتوء المركب البارز والذي كان يتموج بنا بهدوء ولم يبدأ الحركة بعد، فابتسمت قائلة:

- أشتري ثيابي دومًا جاهزة من (شيكوريل).. سيكون لطيفًا حقًّا أن أجرب التفصيل هذه المرة.. عمتي أخبرتني أنك خياطة محترفة.

ضحكة المرأة الودود أضفت المزيد من الصفاء على الجو الجميل حولنا وهي تمسك كفي بين راحتيها قائلة بعربيتها الكسيرة:

- بعد ثوب واحد من إيريني لن تقبلي أن ترتدي إلا صنيعة يدها.

أعجبني الفخر اللطيف في صوتها، فضحكت لها برقة وأنا أمنحها وعدي بزيارتها في عوامتها لتحكي هي لي قصتها

باختصار، وكيف غادرت وطنها في باريس منذ سنوات طويلة بعد قصة حب فاشلة أوصدت بعدها أبواب قلبها لتكمل بقية عمرها هنا متفانية لعملها وراغبة في النسيان.. فكافأها الزمان بكليهما وإن حرمها سنوات عمر لن تعود.

انضم لجلستنا عبد العظيم باشا رفقي.. كان أحد القضاة في (سراي الحقانية) قبل أن يتقاعد ليقرر قضاء بقية عمره هنا في عوامته المجاورة لنا.. وقد بدا لي -رغم نظراته الصارمة ووجهه غليظ القسمات وأنفه المفلطح وشاربه الكث وبدلته البنية التي تهدلت على كتفيه واشية بفقدانه للوزن- رجلًا ودودًا يحمل الكثير من الحكايات المسلية.. وقد صدق ظني وهو يتخذ مجلسه جواري من الناحية الأخرى، ليصافحني بيد قوية وعينين متفحصتين جابتا فوق الرواية الأجنبية في حجري وهو يعدد محاسني بصوت مسموع:

- جميلة.. أنيقة.. خجول.. وذكية.. أيضًا.. تجيدين الإنجليزية؟

- والفرنسية.

قلتها بفخر خجول ليصدر آهة إكبار وهو يربت على رأسي ليسألني عن رقم عوامتي؛ معربًا عن دهشته لأنها أول مرة يراني هنا، ولما أجبته ببساطة انعقد حاجباه باستغراب وكأنه يهم بسؤال ما لكنه كتمه.. وشيء في وجهه عاد يحمل

التكلف رغم تظاهره بالعكس..

- احكِ لنا عن نوادر القضايا يا باشا.. أحب الاستماع إليك.

قالتها إيريني بصوتها اللطيف الرفيع وقد بدت على سابق معرفة به، ليفتل الرجل شاربه وهو يعدل وضع طربوشه على رأسه مستمتعًا بسرد نوادر قضايا المحكمة الشهير منها والمغمور.. والمسموح بالحكي بالطبع.. كخبايا قضية (ريا وسكينة) الشهيرة، التي حكت لي عمتي كيف أثارت الرعب في الإسكندرية وقتها منذ سنوات طويلة تقارب العشرين عامًا..

(كانت هناك مشكلة في قبول القضاء لإعدام امرأتين لأول مرة، وقد كان هذا غريبًا على المجتمع المصري، فقد كنا مقتنعين أن النساء لا يرتكبن الجرائم إلا لمبرر يدفعنا للرأفة بهن.. لكن النيابة استطاعت إقناع المحكمة بأن دوافعهما تخلو من أي مبرر للرأفة؛ إذ كانوا يتعمدون ارتكاب جرائمهم في نفس المكان الذي يأكلون ويشربون وينامون فيه بضمير بارد.. واقتنعت المحكمة أن الرأفة بهما ستشجع النساء فيما بعدُ على ارتكاب الجرائم ما دُمن يجدن مبررًا للتعاطف؛ فتم أخذ القرار بإعدامهما).

قالها الباشا بعظمة مستمتعًا بسرد المزيد من التفاصيل وحيثيات الحكم.. لترد إيريني بدلال:

- متحامل أنت على النساء يا باشا.. (إحنا غلابة).

قالتها المرأة بعربيتها الكسيرة توددًا له فضحك الرجل لتبدو ملامحه أكثر لينًا مع نبرته الماكرة الممازحة:

- (إحنا الغلابة).. وأنتن كيدكن عظيم!

كانت أم زكي تُخفي وجهها في طرف وشاحها وهي تجلس تحت أقدامنا على أرضية المركب.. تستمع لكلامنا وعيناها الطيبتان تلتمعان دون أن تشاركنا الحديث.. وكأنما تكتفي بقبولنا دعوتها البسيطة والتواضع الذي أبداه الباشا بالذات، والذي شكرتُه له أنا الأخرى، فقد بدت لي الجلسة بكل ما فيها متكاملة تناست الفوارق بين الطبقات.. كأنها مشهد من إحدى رواياتي المفضلة.. حيث تجمع الصدفة البشر باختلاف طباعهم ونشأتهم فتنزع عنهم قشرة ماديتهم وتبقي لهم فقط جوهر إنسانيتهم..

- الفطور.

يهتف بها أبو زكي بصوته الجهوري، فرأيت بناته يتقدمن ليحملن مائدة خشبية مرتفعة قليلًا تأهبًا لوضع الطعام فوقها؛ لكن الباشا هتف بتواضعه الحلو:

- مللنا جلسات الموائد.. جئناك لشيء مختلف.

- غالٍ والطلب رخيص.

قالها أبو زكي ضاحكًا وبشاشته توحي بودّ قديم مع الباشا؛ لكنه استأذننا أولًا فقبلنا الجلوس على مائدة خشبية صغيرة (طبلية) فرشوها بمفرش بسيط لكنه نظيف ارتصت فوقه أطباق الفاكهة الموسمية والخبز البلدي و(المِشّ البلدي) والفول.

ورغم تحفظ معدتي التي اعتادت أنواعًا مختلفة من الأطعمة؛ لكنني وجدت الجو كله مذهلًا.. السماء الصافية الزرقاء بغيومها البيضاء التي تشبه عرائس تتهادى بخجل.. النيل الهادئ الذي كافأته الشمس بتراقصها على مسرحه.. النسيم البارد الذي يحمل رائحة خاصة لاشتياق لشيء ما لا تعرف ما هو لكنك تحتاجه بشدة.. والصحبة الطيبة التي اختلف ظاهرها إنما تشابهت بواطنها.. و..

هو!

هو؟! هنا؟!

شهقت متفاجئة أفضح كل دواخلي وأنا أراه بطوله الفارع يشرف علينا من علوٍ.. لم يدُرْ بخلدي أبدًا مع علمي بانضمام جيراني أن يكون هو الآخر مدعوًّا..

- ها قد اكتمل العدد.. نبدأ رحلتنا.. (مرحبًا بالغالي)..

قالها أبو زكي بحميمية وهو يعانقه ببساطة أشعلت جوارحي.. بساطة جعلتني أتساءل.. لأي طبقة ينتمي هو؟ طبقة البشوات.. البهوات.. الأفندية؟ ورغمًا عني تمنيته وجيهًا من علية القوم ولم أشأ الاعتراف بالسبب.

قام أبو زكي بمهمة التعارف بيننا لأكتم ابتسامتي وأنا أتبين كم يليق به اسمه.. (غريب)! بينما لم أتمالك فضولي وأنا أرفع إليه عينيّ لأتبين أثر اسمي عليه.. هل أعجبه؟ بدا لي رد فعله غامضًا وهو يكتفي بـ(شبه ابتسامته) المقتضبة وهو لا يزال محافظًا على عادته بتحاشي النظر إليّ وكأننا لم نلتقِ من قبل.. يومًا ما سيخبرني أنه هو الآخر وقتها كان يخافني كما أخافه وأن قلبه كان يُحذّره من التمادي كما يفعل قلبي.

ارتباك لذيذ شاع في جسدي وأنا أسمع الريس أبو زكي يحدثنا عنه:

- الغالي ابن الغالي.. رحمة الله على أبيه.. كان من أحسن الناس.. لكنك مختفٍ من مدة.. لم تعد تزور العوامة منذ وقت طويل.. هل سحرتك مطروح؟ يقولون إن عندكم جنية بحر تستحوذ على قلوب البشر فلا يعود من يذهب.

قالها ضاحكًا ليرد (غريب) بعفوية زادت من جاذبية صوته ذي اللكنة البدوية:

- أمي صحتها لم تعد تحتمل السفر.. انتهزت فرصة سفرها لأخوالي من أعراب مطروح وجئت أقضي مصالحي هنا.. أنا الآخر افتقدت العوامة.. قضيت فيها قديمًا مع أبي أجمل شهور الصيف.

- هل تنوي البقاء طويلًا؟

- لا.. بضعة أيام فقط.

جوابه أشعل المزيج المتناقض في روحي بين ارتياح لخلاصي من ارتباك شعوري المستحدث، وبين ضيق غير منطقي لرحيله.. ربما لهذا نهضت فجأة من مكاني..

- لم تأكلي أي شيء.. لم يعجبك الطعام! نحضر لك غيره؟

هتفت بها أم زكي بجزع مسّ قلبي وجعلني أقول بسرعة كارهة ضيقها:

- لا.. لا.. أبدًا.. معدتي فقط تؤلمني قليلًا.. لا أحتمل الطعام في الصباح وخاصة مع حركة المركب.. سأبتعد قليلًا لأراقب حركة الصيد حتى تنتهوا من طعامكم.

بدا لي تصرفًا فظًّا لكنني لم أكن أكترث سوى بالابتعاد عن ذاك الرجل الذي أثار زوبعة مفاجئة في روحي الراكدة.. وقد هُيِّئ لي أنني نجحت عندما ابتعدت للجانب الآخر

من المركب الذي كان يشق النهر برفق.. انشغلت بمراقبة الصيادين الذين يلقون شباكهم وأخافتني فكرة أن أكون مجرد سمكة يغريها طعم فتسقط في شبكة صياد.. ربما هذا ما أثار حفيظتي لأبقى مكاني معطية ظهري للجميع خلفي كأنني أحتمي ببراح النيل من ضيق هذا الخوف بين ضلوعي..

تأوهت بدهشة فجأة وأنا أرى هذه اليد تمتد نحوي، التفتُّ لأرفع إليه عيني بوجل لتتلقفني (شبه ابتسامته) التي حملت حنانًا خاصًّا هذه المرة وهو يفتح يده الممدودة نحوي:

- حظك جيد لأنني أحتفظ دومًا بدواء كهذا، فمعدتي كذلك حساسة للغاية.

- لا أحب الأدوية.

فظاظتي كانت أول خطوط دفاعي ضد تأثري بلفتته الحنون وأنا أشيح بوجهي عنه كخط دفاع ثانٍ.. أضم كتابي لصدري كخط دفاع ثالث.. لكنه نسف خطوط دفاعي كلها وهو يسألني باهتمام حانٍ:

- تفتقدينها؟

رفعتُ رأسي إليه بتساؤل عما يقصد، ليزيد ضيقي من فرق الطول بيننا خاصة دون الكعب العالي.. بالكاد وصل رأسي

لمنتصف صدره..

- لوسي.. قطتك.

ابتسمت دون تحفظ مع ذكر لوسي ليرد بلطف:

- أنا أيضًا افتقدت سيزار.. لكن لا بأس من الحرمان الذي يُشعرنا بالنعم.. الشوق يجعلنا نعرف قيمة القرب.

مس حديثه خوفًا أصيلًا بصدري لأُطرِق برأسي قائلة:

- هي الآن صديقتي الوحيدة فلست أحظى بسهولة بالصداقات.. طوال عمري كنت أحلم أن أقتني قطة.. ولم يتحقق الحلم سوى الآن.. مع أني أعرف أنني سأضطر للتخلي عنها قريبًا.

- ولماذا تتخلين عنها؟

ولما كنت غير قادرة على البوح بالسبب، أشحت بوجهي من جديد دون رد؛ لكنه بدا منجذبًا للمزيد من الحديث فأشار بعينيه للرواية بين يدي:

- أعرف هذه الرواية.. لا أنصحك بقراءتها.. نهايتها حزينة.

- لا أحب النهايات السعيدة.. تفتح أبواب القلب للأمل فلا يجد إلا ضيوف الخيبة.

ضحك.. فشعرت بروحي تهوي بين قدمي! فعلى عكس (شبه ابتسامته) المغيظة، بدت ضحكته وكأنها تمنحني أجمل عناق هدهد قلبي -الطفل- بين ضلوعي.. احمرت وجنتاي للتشبيه الأخير وأنا أسمعه يهتف متهكمًا بمرح:

- منتهى التفاؤل والإقبال على الحياة! ثوب سماوي وزهرة حمراء تداعب شعرك ونظرة سوداء للحياة هكذا! إنه أغرب مزيج ألوان رأيته!

كان دوري لأضحك وشعرت أن أثر ضحكتي عليه لم يكن أقل من أثره عليّ.. ووجدتني مأسورة للون عينيه الذي بدا في ضوء الشمس كقدحين من قهوة داكنة.. وشعرت بعينيه هو الآخر تتنازلان عن إعراضهما فتتفحصني نظرته بإعجاب وعجب كأنه يرى معجزة كونية.

لكنني هربت من خجلي بسؤالي:

- تبدو مثقفًا إذن.. رشح لي أعمالًا تحبها..

واتسعت عيناي بالمزيد من الإعجاب وأنا أسمعه يجيبني بأكثر مما توقعت من استفاضة.. فيذكر لي وابلًا من أسماء الكتب والكتاب قديمهم وحديثهم.. من الشرق والغرب.. وسعدت لأنني وجدته محبًا للقراءة مثلي.. ووجدت الحذر بيننا يذوب، وامتدت بنا الثرثرة في أمور كثيرة.. كلمني عن

مطروح وجمالها، بساطتها ودفئها، عن عمله في التجارة وعن أخواله من الأعراب الذين يحب بيئتهم وعاداتهم، وعن ضيقه من العيش في العاصمة التي يجد عوامته أجمل ما فيها كأنها تُعرِض عن الجميع، تعطيهم ظهرها وتفتح ذراعيها للنيل فحسب.. كل كلمة كان ينطقها كان يندفع بها داخلي ألف خطوة ويبني ألف قصر.. أما أنا فكلمته عن عمتي وحبي لها، عن استمتاعي أنا الأخرى بسكنى عوامتي، عن مدرستي التي أنهيت الدراسة بها، عن رغبتي في العمل كمعلمة، عن حبي الشديد للأطفال رغم خوفي منهم.

- وهل يجتمع الحب والخوف؟

سألني مندهشًا لأرد:

- نخاف لأننا نخشى فقدان ما نحب.. ونحب لأننا نظن أن الحب يُنسينا الخوف.. الحب والخوف توأمان لصيقان.. ليل لا يفضح ظلمته إلا نهاره.

بدا مأخوذًا بحكمتي الكبيرة على سني ومظهري البسيط لتتحول (شبه ابتسامته) لابتسامة حقيقية وهم يهمهم كأنه استوعب منطقي:

- أتمنى لك حبًا مات توأمه.. حبًا دون خوف.

ومن جديد تصيب كلماته قلبي كقذيفة، فأفكر في الهرب

غير نادمة.. لكنني لم أكد أتحرك حتى تعثرت خطواتي وكدت أسقط على وجهي، لولا أن تلقفني ذراعاه.. وتعانقت عينانا..

ألف مطرقة هوت على صدري حينها.. ألف حلم أشرق في ليل روحي كنجمات صغيرة.. ألف وعد صاغته نظراته حمله النسيم بيننا وشهد عليه نهر الحب.. لكن كل هذا كان لا شيء مقابل شعور امرأة مثلي تؤمن بشارات القدر وتمسكت برمزية الموقف.. أنني (كدت أسقط لولاه!).

ومن جديد استسلمت لرغبتي في الهرب معتذرة بكلمات مرتبكة لكنه لَحِقَ بي:

- تعدينني لو فكرتِ في التخلص من لوسي أن تمنحيني إياها؟

ابتسامة دامعة منحته وعدي، ليجزيني عنها ابتسامة رائقة، واللهفة في عينيه تكاد تستبقيني مكاني لولا أن اندفعت نحونا مدموازيل إيريني هاتفة ببشاشة:

- تعاليا.. الريس أبو زكي سينشد موالًا.. صوته بديع.

لا أزال أذكر كل تفاصيل اليوم السعيدة بعدها.. كيف صدح الصوت الجميل للرجل حولنا كأنه احتجزنا داخل فقاعة سحرية.. كيف كنت أختلس النظرات نحو غريب لأجده هو

الآخر يختلس النظر إليّ دون أن يجرؤ أحدنا على المزيد.. كيف عاد الجميع سعداء لعواماتهم وعاد الريس أبو زكي فرحًا بوفرة صيده.. بينما لم أعد أنا بقلبي!

استقبلتني عمتي بلهفة قلقة وهي تلاحظ تبدّل حالي؛ لكنني أبقيت سري بين ضلوعي.. ليس لهذه الليلة فقط بل لليلتين بعدها كنت أراه فيهما عبر شرفتيْ عوامتيْنا.. نقضي الليل ساهرين معًا كلٌّ منا في مكانه، لا يكلم أحدنا صاحبه بالشفاه إنما يكتفي بأنس قربه.. يسترجع ذكريات لقائنا القصيرة في ذهنه، فيصنع منها غدًا وعمرًا وحياة.. لكنني فجأة وجدته قد اختفى بعدها تمامًا لأيام طويلة دون مقدمات!

شعرت لو أن تجويفًا كبيرًا ملأ صدري بعدها؛ خاصة بعدما أخبرني العم نوح وسط كلامه ذات يوم أنه سمع أن غريب عاد لمطروح وربما لن يعود ثانية، فلم يكن حضوره هذا سوى (حدث عارض)!

بكيت طويلًا بعدها لكنني عدت لألوم نفسي.. أنا التي تعلقت بحبال ذائبة.. هو لم يعدني بشيء.. بل أنا الحمقاء التي زعمت حَصانةً ضد الحب، لتسقط في أول فخ نُصب لها.. وليته كان يتعمد الصيد؛ بل كان حضوره فقط كافيًا لأمنحه كل مفاتيح قلعتي، وأسمح له بدخولها غازيًا منتصرًا..

حب؟! هل اعترفت أنه كان حبًّا؟! لو لم يكن حبًّا فما هو؟

لا أذكر كيف مرت بي الأيام بعدها؛ لكنني حاولت تجاهل ذكرياتي القصيرة معه.. تجاهلتها حقًّا حتى وأنا أشتري كل الكتب التي رشحها لي.. حتى وأنا أرحب بتفصيل ثيابي لدى مدموازيل إيريني لأنني سمعت منه ملاحظة عابرة يوم اجتماعنا عن أنه أحب تصاميمها.. حتى وأنا أتعمد الثرثرة مع الريس أبو زكي كل صباح لعل لسانه ينفلت بخبر لي عنه من قريب أو بعيد.. وحتى وأنا أقضي لياليّ في عوامتي أراقب عوامته المظلمة وأذكره واقفًا مكانه يرنو إليّ من بعيد.. تجاهلته! حقًّا تجاهلته!

- ميعاد (البروفة) الجديدة عند (مدموازيل إيريني) اليوم؟

سألتني عمتي ذات ليلة وأنا أودعها على باب العوامة لأردّ وأنا أحتضن لوسي:

- نعم.. تعالي معي.. اختاري تصميم فستان جديد لكِ.

لكنها ضحكت وهي تقبل وجنتيّ (لا تشغلي بالك بي.. اقضِ وقتًا ممتعًا)

ودخلت عوامة إيريني لأشعر بدفئها زائدًا هذه المرة، ضوء مصابيحها كان خافتًا أكثر مع هذه الرائحة المميزة لعطر فرنسي مميز تضعه في بعض الأوقات، أزحت (البرافان)

الخشبي الذي يستر مدخل العوامة، لأبتسم وأنا أراها أعدت كعكة الفراولة كعهدها منذ علمت أنني أحبها.. بادرتني بقولها:

- يجب أن تخبريني بالسر.

- أي سر؟

- سر جمالك! تجددينه بتعويذة سحرية؟! أخبريني لعلها تنفع عجوزًا مثلي! عجوزًا لا تصدق أنه يمكنها الوقوع في الحب من جديد.

ضحكت من قلبي وأنا أميل عليها متجاهلة فارق السن وقد شعرت حقًّا أننا صديقتين:

- عبد العظيم باشا قادم الليلة.. صحيح؟

- كيف عرفتِ؟

احمرت وجنتاها الممتلئتان بخجل زاد من ضحكاتي وأنا أميز أناقتها المتكلفة هذه الليلة، تصفيفة شعرها التي أضافت إليها ملمعًا ما جعلها أكثر حيوية، العطر الذي خمنت أنها خصصته لليالي زياراته لها، أحمر الشفاه الذي لا تضعه إلا عندما تترقب زيارته، ولمعة عينيها التي تفضح لهفة تكاد تكون مكتوبة باسمه.. لم تخبرني هي عن شيء؛ لكن يبدو أن القلب العالق في شباك الحب يشعر بأشباهه!

وتخطيت كل هذا كي لا أحرجها، فقط هززت كتفيّ بخبث (مجرد تخمين).

- أووووه.. لست سهلة!

قرصت بها وجنتي تقولها بالفرنسية بعتاب مصطنع وهي تناولني الثوب الذي سأقيسه، فضحكت وأنا أتناوله لأدخل به الغرفة التي خصصتها هي للبروفات، تأملت شكلي في الثوب بانبهار، حتى لوسي أصدرت مواء طويلًا وهي تلعق قدمي كأنها أحبت شكلي فيه، فقد كان أكثر أناقة مما تخيلته، بلون نبيذي قاتم صنع مع لون بشرتي مزيجًا رائعًا، حرملته العريضة انحسرت عن كتفي وأعلى صدري، القماش الناعم احتضن خصري لينسدل بعدها ببعض الضيق مبرزًا تناسق ساقيّ، ورغم أني كنت أحب الفساتين المنفوشة غالبًا؛ لكنني وجدتني أكتشف جمال جسدي من جديد في ثوب كهذا.. ورغم جمال الثوب لكنني شعرت بشيء ما ينقصه.. ما هو؟ ممم.. أولًا بروش ماسي أنيق أظنني كنت أرتديه لثوبي السابق.. وثانيًا.. أن يراني (هو) فيه! هو!

ابتسمت فقط للتخيل وأنا أتحرك نحو ثوبي المخلوع فأنزع منه البروش لأركّبه على الثوب الحالي وعاودت النظر للمرآة.

جَفنُه علّم الغزَل.. ومن العلم ما قتل..

فحرقنا نفوسنا.. في جحيم من القُبَل.

انبعثت الكلمات من جهاز (الجرامافون) في الخارج بصوت المبدع محمد عبد الوهاب فضحكت وأنا أخرج لأجد العجوز لا تزال تمسك كيس الأسطوانات متلبسة بجريمتها، هل اختارت الغنوة بالذات لأجل (الباشا)؟

- أووووه! تبدين كالأميرات! ليتني كان لي ابنة مثلك!

أطلقت إيريني صيحة إعجاب وهي تُمَيّز شكلي، فتركت ما بيدها لتندفع نحوي، أعادت ترتيب خصلات شعري التي تشعثت بعد القياس وثبتت لي زهرتي خلف أذني، لتقبلني دامعة العينين بأمومة واضحة فشاكستها بقولي:

- تمالكي نفسك.. الباشا قد يصل في أي وقت.

لم أكد أنتهي منها، حتى فوجئنا بالعوامة تهتز منذرة بخطوات ثقيلة على السقالة سبقت صوت الطرقات.. لكن الطارق لم يكن الباشا.. بل كان هو.. (أهم ما ينقص الثوب)! (غريب)!

واختفى العالم كله في ثوانٍ! طنينٌ مميز احتل أذني إلا من كلمات أغنية بقي سحرها بيننا.. نظراته المشتاقة غلفتني من أعلى رأسي لأخمص قدميّ..

هاتها من يد الرضى جرعة تبعث الجنون

كيف يشكو من الظما من له هذه العيون؟

لا تزال كلمات الغنوة تصنع نسيجًا غير مرئي يشد أحدنا لصاحبه.. يقترب وأقترب.. ينصهر وأنصهر.. يذوب وأذوب..

يا حبيبي أكلما ضمنا للهوى مكان

أشعلوا النار حولنا فغدونا لها دخان

انقبض قلبي وقد بدت لي الكلمات كنبوءة لكنني نفضت عن رأسي هاجسه وأنا أتشبث بما بقي من الكلمات..

قل لمن لام في الهوى هكذا الحسن قد أمر

إن عشقنا فعذرنا أن في وجهنا نظر..

(جفنه علم الغزل)

هل تمتمت بها شفتاه دون صوت أم قرأها قلبي أنا على صفحة عينيه؟ لا يهم.. أنا شعرت بها تطوقني.. تعانقني.. تصافحني قبل كفه الذي امتد بما بدا عفويًا كمصافحة؛ لكنني كنت أدرك أن كلينا يتلقفه كطوق نجاة لغريق.. نظراتي تتشبث به تشبث الضرير بعصاه.. ونظراته تذوب داخلي ذوبان الشَفَق في كأس الليل..

- غريب.. شكرًا لأنك قبلت دعوتي على العشاء اليوم.

قطعت بها إيريني سحر اللحظة بيننا، ليترك كفي مرغمًا وهو يصافحها بدوره قائلًا بنبرته شديدة التهذيب والتي امتزجت بلكنته البدوية:

- لم أخلع ثياب سفري بعد.. لكنني لم أستطع تفويت دعوتك.

- رأيته منذ قليل وهو يفتح باب عوامته فانتهزتها فرصة لنجتمع كذاك اليوم في مركب الريس أبو زكي.. كان يومًا جميلًا ليته يتكرر.

قالتها لي مفسرة؛ لكني لم أستمع لبقية ثرثرتها.. ما كان يعنيني حقًّا أنه عاد.. صمتُّ لحظات أتمالك نفسي وأنا أشعر أن (التجويف) الكبير الذي صنعه رحيله في صدري عاد يمتلئ.. كل ما فيّ كان يتمنى عناقه فقط ليتشبث به راجيًا إياه ألا يرحل من جديد.. وحدها قطتي لوسي حققت الأمنية! المحظوظة ظلت تتمسح في سرواله فرفعها إليه ليعانقها بحنانه الذي يزلزلني قبل أن يظهر قطّه سيزار عند الباب فينزلها غريب ليهتف بهما مازحًا كأنهما يفهمانه:

- هيا.. أنتما الاثنان.. معاهدة صلح ننسى فيه القديم.. ونبدأ صفحة جديدة.

كشر سيزار عن أنيابه فانكمشت لوسي مكانها؛ لكنه اقترب منها ليلعقها بما بدا كاعتذار تقبلته لوسي كما ظننت.. ضحكت من قلبي ضحكة عالية لأجده هو يلتفت إليّ كأنما هي أول مرة يبصر فيها امرأة تضحك، أو كما قال لي بعدها (ضحكتك دومًا تبدو كمعجزة طازجة لا تفقد أثر مفاجأتها).

- بونسوار.

كان هذا الباشا الذي وصل لتوه والذي أشرقت لأجله ملامح إيريني، بينما تمد له كفيها بتحية حارة.. صافحته أنا بمودة لكنه بدا أكثر انشغالًا بإيريني التي منحها زهوره، فابتسمت هي كأنما منحها فوق الدنيا دنيا!

- تبدين ساحرة الليلة!

قالها لي الباشا وقد انتبه لي أخيرًا، فابتسمت وأناملي تتحسس حرملة توبي بخجل؛ خاصة وأنا ألمح طيف غيرة في عيني غريب.. غيرة أرضتني كثيرًا رغم كونها مضحكة.. يغار من العجوز حقًّا؟ أم يغار لأنه لا يملك الجرأة على التصريح مثله بأنني ساحرة؟

جلسنا معًا نتسامر في أمور عدة بدأت بالطعام الذي تناولناه معًا، وامتدت للحديث عن الغناء والحب..

- طوال عمري لم أومن في حياتي بالحب..

قالها الباشا لتشحب ملامح إيريني؛ لكن وجنتيها عادتا تتوردان والعجوز يردف بخبث:

- كنت (حمارًا).. ضاع العمر هدرًا.

انطلقت ضحكاتنا كلنا فقد كانت مرة نادرة تخلى فيها الباشا عن وقاره المعهود، وبدت إيريني عروسًا خجولًا وهي تتمتم:

- أنا آمنت بالحب مرة وندمت.. لا أعرف إن كان العمر يتسع لدرس جديد.

- دومًا يتسع العمر للدروس (إيرو).. لعل الدرس الأخير هو الأجمل.

انفلت لفظ تدليلها من شفتيه عفويًا وقد بدا قصده واضحًا لنا كلنا، وخفق قلبي بفرحة حقيقية لهما معًا؛ لكن العجوز تهربت من خجلها لتسأل غريب عن رأيه في الحب.. فابتسم وهو ينظر في عمق عيني عبر المسافة بيننا ليرد:

- أنا أيضًا لم أكن أومن بالحب.. لكن بعض الجفون قاهرة.. سحرها يجبرك أن تعتنق الحب وتحترف الغزل.

الخجل عصَف بجسدي كله وأنا أشعر بعيون الجميع مسلطة عليّ وسؤال إيريني ينتقل إليّ، وكان دوري لأرد:

- أؤمن بالحب؛ لكنني أراه كنجم مضيء، نلتمس نوره من بعيد راضين؛ لكننا نأثم لو طمعنا أن يسقط في أيدينا.

بدت إجابتي سوداوية حقًّا حتى أنني فكرت في الاعتذار عنها؛ لكن هذا حقًّا ما كنت أشعر به وأخشاه.. ومع هذا ابتسم غريب ليقول بما بدا لي كالوعد:

- بعضهم يستحق أن نقطف له المستحيل.. لو لم تكن لهم نجوم السماء فلمن سواهم؟

وكأنني سددت أذني عمدًا بعدها كي أدخر أثر كلماته في نفسي لأطول وقت.. غبت في دوامة لذيذة من طغيان شعوري به.. دوامة انتهت عندما بدأت إيريني في توزيع كؤوس الشراب علينا.. اعتذرت لها بلطف فلم أكن أشرب الخمر، وترقبت رد فعل غريب الذي شاركني رغبتي فلم يفعل كذلك.. بعدها عادوا لتسامرهم الذي انحدر في وديان السياسة:

- يبدو أننا على وشك الدخول في حرب جديدة.. لماذا ندفع دومًا فواتير غيرنا؟

صممت أذني عن قول الباشا الذي كان منفعلًا ساعتها فقد كان أسوأ ما أحب الحديث عنه هو السياسة؛ لهذا استأذنت منهم بأدب كي أتوجه نحو الشرفة، فرمقني الباشا بنظرة

غامضة تشبه تلك التي منحني إياها عندما عرف رقم عوامتنا؛ لكنني تجاهلت هذا وأنا أحاول التقاط أنفاسي من نسائم الشرفة، رائحة الأزهار حولي مع الأنغام التي لا تزال تتكرر على الجرامافون وتنقلني لعالم آخر.. حتى طغا حضوره هو على كل شيء وأنا أشعر به خلف ظهري، التفتُّ لتلتقي عينانا في لحظة بدت وكأنها عرقلت عقارب الساعات.

كفه التقط كفي برقة مستأذنة لم تلبث أن استحالت لقوة مهيمنة:

- آسف.

هربت كلماتي الجبانة وعيني تسأله عن سبب اعتذاره ليرد:

- آسف لأنني رحلت هكذا دون تفسير.

وكأنني أملك كل الحق في عتابه!

سحبت كفي كارهة وأنا أسبل جفني مخفية عاطفتي، وجوابي وصله مراوغًا:

- ولماذا تعتذر؟ حقك أن تغادر في أي وقت.

- معك حق.. لكنني شعرت أنني مدين لك وحدك بالتفسير.

جف حلقي وأنا أتجاهل تفسير كلماته لكن عاطفته عاودت دك حصوني:

- افتقدتُ... (لوسي).

لم أكن غبية لأفهم صمته القصير بين الكلمتين ماذا كان يعني؛ لكنني تظاهرت بتصديق ظاهر عبارته فابتسمت لأرد بمشاكسة:

- هي (بنت حلال) تستحق.. لا ألومك.

ضحكته القصيرة دغدغتني وهو يستند بمرفقيه على سور الشرفة وقد أصابته عدوى المشاكسة:

- أظنها هي الأخرى افتقدتني.

- كيف عرفت؟ هي قالت لك؟

- أشياء كهذه لا تقال.. تُحس!

أشحت بوجهي عاجزة عن كتم ابتسامتي ليردف بنفس النبرة المشاكسة:

- أخبريها أنني اضطررت للسفر لأنني علمت أن أمي كانت مريضة.

- (ألف سلامة).. هي بخير الآن؟

سألته باهتمام ودود ليبتسم بجواب فاض بعاطفته:

- بأفضل حال.. وجاءت معي أيضًا.. رغم عدم تفضيلها لجو

القاهرة لكنني أقنعتها أن بها ما يستحق المغامرة.

هربت من تلميحه رغم أنه حملني على غيمة وردية ثم طلبت منه أن يكلمني عن أمه فاتسعت ابتسامته الحنون:

- ليس أحب إليّ من الحديث عن أمي.. اسمها فردوس وهي حقًّا أشبه بفردوس على الأرض.. امرأة عظيمة.. ربتني بعد وفاة أبي المفجعة.. كانت تعيش مع أبي -رحمه الله- هنا في رغد لكنه مات فجأة فلم يترك لنا سوى عوامتنا وبعض المال القليل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.. فعادت أمي لسكنى مطروح حيث أهلها هناك.. حرصت على تعليمي حتى أنهيت دراستي لكنني حققت لها رغبتها بمساعدة أخوالي في القبيلة.. تنظيم أمور التجارة وتربية الماشية والخيل.

كان قد حدثني عن حياته عمومًا من قبل لكنه هذه المرة كان أكثر تفصيلًا كأنما يقربني أكثر من دقائق حياته.

- أحب الخيل.

قلتها وأنا أستند بمرفقي مثله على سور الشرفة، فتوهجت عيناه وهو يهمس بمرح دافئ:

- عظيم! يسرني إذن أن أدعوكِ وعمتك لتزوري قبيلتنا في مطروح.. سأكون سعيدًا أن أعرّفك على كل حصان هناك.. وأدعوكِ لركوبها واحدًا واحدًا.

ابتسمت وأنا أتخيل زيارتي هذه، وداعبني الحلم الحلو بأنه هو يحملني على ظهر جواده بعيدًا نحو الأفق.. ومضى الوقت بنا بسرعة حتى انتبهت لدقات الساعة فاعتذرت منه لأنصرف فلم أكن مستعدة لتوبيخ عمتي.. مددت له يدي مصافحة؛ لكنه فاجأني وهو يرفعها ببطء شديد مستأذن لشفتيه بقبلة خفيفة ناعمة أسرت هذا التيار اللذيذ بيننا.. خاصة وهو يهمس لي برجاء عزيز:

- سأنتظر أن نلتقي من جديد.

أفيق من شرود ذكرياتي مع غريب فجأة على صوت نباح الكلاب بالخارج!

أرتجف برعب وأنا أعود لواقعي المخيف، أبتعد عن النافذة.. أتلفت حولي وأنا أحاول البحث عبر الإضاءة الخافتة عن أي شيء أدافع به عن نفسي في رحلة هروبي من هنا، لا شيء!

أوف! أفتح أدراج المكتب واحدًا تلو الآخر فلا أجد أي شيء.. لكن.. مهلًا.. ما هذا؟ إنها صورة فايزة مع بعض الأوراق التي تخصها! ما هذه الصدفة المفرحة؟! ما الذي تفعله هنا مع هذه الصور الأخرى؟ هل أعرف كل هؤلاء؟ لا.. لا أحد مألوف.

لا وقت للتفكير.. أخذت الملف الورقي الذي حوى صورة فايزة وأخفيته في طيات ملابسي.. حتمًا سيساعدني في الوصول إليها.. هل هي خلف ما يجري لي الآن أيضًا؟ هي من سلطت عليّ هؤلاء الأوغاد؟ سأعرف الحقيقة.. سأعرف كل شيء.

أقسمت بها لنفسي وأنا أعيد إغلاق أدراج المكتب بعدما عثرت على بغيتي في فتاحة خطابات حادة أمسكتها بقوة وأنا أتوجه نحو الباب لأفتحه بتمهل.. وجدت الرواق خاليًا فقطعته بخطوات حذرة وأنا أهبط الدرج بحرص؛ لكنني سمعت صوت خطوات تقترب فكتمت أنفاسي وأنا أختبئ في زاوية مظلمة، لكنني لم أستطع منع شهقتي الخائفة وهذه اليد الثقيلة تهوي على كتفي!

***

فايزة

هذه الليلة أسماها (عصمت) ليلة المفاجآت! وقد كانت!

بداية من زهور الزنبق البيضاء مفضلتي والتي أهداني إياها مع تلك العلبة الفخمة من نوع سجائري المفضل.. وانتهاء بدعوتنا لتلك الغرفة المشبعة برائحة المتعة.. الغرفة التي حوت مائدتين مغطاتين بمفرشين أخضرين، إحداهما حملت كؤوسًا وزجاجات مختلفة الأحجام من الشامبانيا والويسكي، والأخرى جلست عليها مع عصمت ورجلين وامرأة وسرعان ما تم التعارف بيننا.. فوقنا كانت لمبة ضخمة نصف دائرية تتدلى من السقف وتبدو كشاهد متطفل على أوراق اللعب في أيدينا..

أما المرأة فهي (شكرية هانم) زوجة (صاحب دولة) سابق واسمه مرشح في التنظيم الجديد؛ لهذا تظن نفسها دومًا فوق الجميع.. لا أعرف كيف تحتمل نفسها وقد عوضت خفة عقلها بثقل ظلها، وحاول وزنها النحيف إنقاذ المعادلة فلم يفلح كذلك! كتلة خفيفة من الأصباغ الملونة تنفث الدخان كقاطرة، ولا يعرف لسانها سوى الفرنسية ممطوطة الأطراف والتي تبدأ جملها دومًا بـ(mon dieu).

الرجلان أحدهما هو (م. و) كما يحب أن يخفي هويته

أثناء اللعب.. ممثل مغمور لكنه يظن نفسه غير ذلك.. يزعم أن (السرايا) أنعمت عليه بالبكوية مؤخرًا، فاكتشف أن له أنفًا صار يرفعه في وجوه الجميع كأنه (ما جابتوش ولادة)، ولولا خوفه من انكشاف أمر إدمانه للقمار لأذاع فوزه في الصحف والمجلات باعتبارها هدية السماء للعباقرة أمثاله!

والآخر (دسوقي) باشا.. أخذ (الباشوية) بـ(الدراع) كما يقولون، بعد دفع تبرع كبير لجمعية خيرية.. لا يزال يرتدي الجلباب ويأكل بيديه ويمشي حافيًا في أوقات كثيرة؛ فلم ينس أصله؛ بل إنه يتردد في اللعب كل مرة هاتفًا بنا أنه تاب ولن يعود للعب من جديد، قبل أن تجرفه نشوة المقامرة فيعطي ضميره منومًا حتى ينتهي الدور.

هكذا حدثني عنهم عصمت باختصار قبل حضورهم، وقد كانت المرة الأولى التي ألتقيهم فيها على مائدة اللعب..

راقبتهم جميعًا بنظرة متفحصة وأنا أستعيد ما علمني إياه (فوزي نصار): القاعدة الأولى هي (أوراق اللعب مستورة لكن حركات الجسد فاضحة).. تناولت كأسًا من الشامبانيا وتجاهلت نظرة شكرية الغيور، و(م. و) الراغبة، و(دسوقي) المترددة؛ مكتفية بابتسامة محايدة.. استسلمت للخسارة مرتين متتاليتين عامدة، كي أتمكن من دراسة ردود أفعال الجميع قبل أن أنفث دخان سيجارتي التي أشعلتها لأميل

على أذن عصمت هامسة بثقة:

- ارفع رهاننا للدرجة القصوى.. أنا سيدة الأدوار القادمة كلها.

رفع أحد حاجبيه باستهانة وهو يوزع علينا الأوراق للدور الجديد الذي كسبت فيه لأرمقه بنظرة تعني (ألم أقل لك؟).

فعاد يبتسم مع هزة كتف (لعلها مصادفة!)، لكنني كسبت جولتين بعدها؛ مما جعله يرمقني بنظرة متشككة وهو يبعد المائدة قليلًا ليتفحصها كي يتأكد من أنني لا أخفي أية أوراق مساعدة..

أطلق أنا ضحكة ظافرة وأنا أكتف ساعديّ لأرمقه بنظرة متحدية، فيزفر زفرة حارة وهو يعيد المائدة مكانها لنبدأ الجولة الجديدة والتي كسبتها أيضًا..

(non, c’est trop)

(لن نلعب معها مرة أخرى)

(بل سأفعل.. لكن غدًا.. لن أترك مالي لكِ.. سأستعيده كله ومضاعفًا كذلك).

الأولى بصوت (شكرية)، والثانية لـ(دسوقي)، أما الثالثة فكانت ل(م. و) الذي كاد يحرقني بنظراته قبل أن يغادروا

الغرفة جميعًا ليتركوني وحدي مع عصمت، الذي استند بمرفقه على المائدة ليقترب مني بوجهه وقد ضاقت عيناه بسؤاله:

- كيف تفعلينها؟

آخذ نفسًا عميقًا من سيجارتي أنفثه ببطء لأغمض عيني بقولي:

- أنا (ابنة أبي).

- غريبة! تنطقينها بمشاعر مختلفة.. فخر.. كراهية.. امتنان.. حقد.

فأصفق بكفي ساخرة:

- برافو! هذا هو بالضبط شعوري نحو فوزي نصار.

- لا أعرف كيف هو شعور الأبوة فقد فقدت أبي وأنا عمري بضعة أشهر.. لم يترك لي سوى اسم يتبع اسمي في الأوراق الرسمية.

يقولها عصمت بنبرته القوية التي لم تهتز؛ لكنني شممت الأسى الكامن خلف حروفه، لهذا امتزجت ابتسامتي بمرارتي وأنا أرد:

- اعذرني لو لم أشفق عليك في وضع كهذا! أنا التي تمنيت

كثيرًا لو كنت مثلك.. بلا أب!

يرمقني بنظرة متعجبة لتلتوي شفتاه بقوله:

- كلميني عنه.

رجاؤه الخفي يمتزج بنبرته المسيطرة، فأبتسم وأنا آخذ نفسًا آخر من سيجارتي:

- لو لم أتحدث عنه في جو كهذا وليلة كهذه.. فمتى أفعل؟

أقولها ثم أتحرك لأغلق زر الإضاءة كأنما لا يليق بحديثي عن فوزي إلا الظلمة، أنفث المزيد من دخان سيجارتي ثم أطفئها كأنني كرهت حتى الوهج الطفيف الذي تبعثه.

- سنجاب!

قلتها ليتفحصني عصمت بتساؤل، فانحنيت لأستند على سور النافذة، والظلمة داخل روحي تبدو أشد عتمة من ظلمة الليل أمامي، وفسرت قولي:

- عشت حياتي بعد وفاة أمي كـ(سنجاب) خائف، لا يغادر جحره إلا مضطرًا، أجر ذيلًا طويلًا من ذكريات تخنقني كل ليلة، وأشحذ أسناني ليس فقط كي تكون قادرة على عضّ كل من يحاول إيذائي، بل لقرض جذع الشجرة الذي وجدتني أنتمي إليه، لعله حين يسقط أهرب لجذع جديد

أكثر صلابة.. ونظافة!

يربت عصمت على كتفي فأشكر له صمته المُراعي، ثم أُردِف ونصالُ الذكرى تطعن روحي واحدًا تلو الآخر:

- كبرت وكبر معي خوفي المبهم منه.. كان يتجاهلني كثيرًا كأنني غير موجودة.. لكن في تلك الأوقات القليلة التي كان يتواجد فيها في البيت كان يعاقبني بشدة على أقل خطأ.. لا أزال أذكر ذاك اليوم الذي أيقظني فيه صراخه جوار أذني -قبل صراخي أنا- وهو يشد شعري بقوة كادت تخلع رأسي، جرّني خلفه كالشاة غير مكترث بصرخاتي وأنا لا أفهم ماذا جنيت، ألقى بي أرضًا أخيرًا ليصطدم رأسي بقدم مائدة اللعب الخضراء ذات المكان شبه المقدس في بيتنا، إصبعه وكز صدري بقسوة وعيناه تتوهجان كجمرتين من نار:

- أنتِ من خدشتِ المائدة؟

انكمشت مكاني وأنا أنظر حيث يشير، تذكرت فضولي الذي دفعني في الليلة الماضية للجلوس عليها وقد كانت إحدى الليالي النادرة التي خلَت من ضيوفه المعتادين، عيناي القاصرتان حاولتا البحث عن الخدش حتى وجدته..

- مجرد خدش!

ارتعش بها صوتي المذعور بينما أحاول تهدئته، لتفاجئني

لطمته العنيفة على خدّي:

- هذه المائدة أهم ما في حياتي.. أهم منكِ أنتِ نفسك.. إياكِ أن تقربيها مرة ثانية.. إياكِ.

لم تشفع اعتذاراتي وأنا أراه يأتي بحبل غليظ يربط به ساقي لساق المائدة.. بكيت، صرخت، رجوته أن يعفو عني؛ لكنه بدا لي من مكاني على الأرض وقد أشرف فوقي بطوله الفارع كأنه جبل سيسقط على رأسي..

- ستبقين هكذا طوال اليوم.. دون طعام.. دون شراب.. دون حركة.. حتى تتعلمي ألا تعيديها.

ظننته يخوفني فقط؛ لكنه خرج ليغلق باب الغرفة خلفه.. ظللت أناديه مذعورة ليرتد صوتي خائبًا.. قرصة الجوع والعطش لم تكن وحدها ما جعلتني أبكي والخادمة تتقدم مني آخر اليوم لترمقني بنظرة مشفقة وهي تحل وثاق ساقي.. بل شعوري بالخزي مع بلل ملابسي وتلك البقعة من السائل التي تركتها مكاني وجعلت الخادمة تربت على رأسي هامسة:

- لا بأس.. يمكنك الذهاب للحمام الآن.. سأنظف المكان.. وأعطر جسدك وثيابك.

عطر؟! أي عطر؟! أي عطر ذا قادرٌ على محو تلك الرائحة؟!

أتصدقني لو قلت لك إن الرائحة المنفّرة بقيت ملتصقة بأنفي من وقتها؟! كانت تذكرني بعاقبة عصيانه، بشدة قسوته، فتعلمت أن أتجنب غضبه بل وأتجنبه هو نفسه.. وبينما كنت أنا (السنجاب) الجبان المختبئ دومًا في جحره، كان هو (الجوكر)! تعرف لماذا سمى نفسه بهذا؟ الجوكر هو ورقة اللعب الزائدة، يمكن الاستغناء عنها أو استبدالها بأية ورقة أخرى، وهنا تكمن أهميته في (لا جدواه)، وتتضح قوته فيما يمكن منحه من بدل.. الجوكر هو الكارت الوحشي الذي لا يرفضه أحد.. هو الكامن كأنه بلا قيمة؛ لكنه وقت الجد يساوي أغلى قيمة.. هكذا شرح لي يومًا فلسفته، وقد كنت على تلك الحافة الخطرة بين الطفولة ومبلغ الأنوثة.. ويبدو أن عينيه وقتها التقطتا تفاصيل جسدي الذي تهم براعمه بالتفتح، فرأى فيّ ما رآه في كل حياته.. شيء ثمين يستحق الرهان!

- كبرتِ!

قالها لي فوزي ذات يوم وقد أتممت السابعة عشرة من عمري، قالها بعينين ملتمعتين وهو يقترب مني يتفحص أكثر بنظرة مختلفة عما عهدته من نظراته.. ربتت أنامله على شعري فكدت أموء كقطة مشتاقة لهذا الحنان، وقد كنت أفتقد عطفه بعد وفاة أمي، وبدت لي الأيام التالية كأنه ندم

على قسوته، وطول إهماله لي وحرماني من عاطفته، فأغدق عليّ الكثير؛ الثياب، الأحذية، الحقائب، العطور.. صار يأخذني معه للنادي نهارًا، لحفلات أصدقائه ليلًا، والتي كانت تقام في فيلّتنا نحن.. علمني أسرار الموائد الخضراء، كيف تثرثر لي أوراق اللعب مهما بدا أصحابها كتومين.. وعرفت نوع حفلاته الليلية وطبيعة ضيوفها من صفوة المجتمع.

- كي تنجحي في اللعب يجب أن تجعلي عينيك أولًا تتعلمان الكذب.. عيناك أول نقطة ضعف يجب أن تروّضيها لتلقيها لقمة سائغة لخصمك يغص بها حلقه!

كانت أول نصائحه لي.. لا أزال أذكر ملمس أول جنيه كسبته في اللعب ووعدني هو بالمزيد، كنت أتلقى نصائحه بنهم وأنا ألاحظ اهتمامه بمشاركتي لضيوفنا جلساتهم، ولم يكن يزعجني هذا؛ فقد كانوا من علية القوم.. كنت منبهرة بجواهر النساء وأناقتهن ووسامة الرجال وهيمنة حضورهم الطاغي، والأهم مركز فوزي نصار وسط كل هؤلاء، فكأنه وهو يتحرك بينهم تتراقص حركته بين عصفور نشيط، وهدهد حكيم، فلا تنتهي الليلة إلا وهو طاووس منتصر انتفش جناحاه بالمزيد من أموالهم، في كل مرة كنت أظنهم سيمضون خاسرين فلا يعودون.. لكن!

- سيرجعون.

كان فوزي يراهنني عليها كل مرة ويكسب رهانه..

- المقامرة غريزة فطرية جُبِل عليها كل الناس، كلهم مقامرون لكن البراعة الحقيقية هي إلقاء طُعْم الرهان المناسب ليسيل لعاب خصمك ولا يرى نصب عينيه سوى بريق المكسب، ساعتها فقط يمكنك نصب فخاخ الخسارة.

- الدنيا كلها ليست سوى رهان كبير لا تظهر نتيجته إلا عند الموت، الحمقى فقط من لا يجيدون ترتيب أوراقهم أو يجهلون قيمتها.. قوتك الحقيقية في تلك اللحظة التي تُلقين فيها بطاقتك الرابحة وتشاهدين خصمك ينزف دون دماء بينما ذراعاكِ يكتنزان كل ما فوق المائدة.. هذه هي النشوة التي لا تعادلها نشوة!

- في اللعب -كما الحياة- لا صدق ولا كذب، لا مبادئ.. حين يجلس المنتصر على قمة هرمه فإنه هو من يكتب التاريخ ويضع القواعد ويشرع القوانين.

كانت هذه هي المبادئ التي غرسها داخلي فوزي نصار واحتسيتها رشفة رشفة مع كل يوم مر من عمري بعدها.. أحاسيس متباينة كنت أشعر بها معه ما بين الخوف من غضبه، وتسوّل عاطفته، والفخر بهذا الرجل الذي يكسر أنوف البكوات والباشوات وأصحاب الدولة في كل ليلة ومع هذا ينصرفون مبتسمين واعدين بالعودة، والامتنان لهذا

الأستاذ الذي علمني كما ينبغي.. علمني كيف أقرأ نظرات عيونهم، ماذا تعني ارتجافة الشفاه، حكة الأنف، شدة الأذن، اصطكاك الأسنان، لمعة العين، تهدل الكتف، تمسيد الشعر، كل حركة فاضحة لخبايا صاحبها، فصرت أشاركهم جلساتهم بنَهَمٍ فضولي وقد كنت تلميذة نجيبة لم تخيّب ظن أستاذها حتى..

- حتى ماذا؟

يسألني عصمت بفضول وقد أجبرتني غصة حلقي أن أقطع عبارتي..

ورغمًا عني أشحت بوجهي لأجيب بصوت ميت:

- حتى صرت أنا الرهان!

يتحشرج صوته بهمهمة مستنكّرة؛ لكن نسور الذكرى اختطفتني لتنهش مخالبها في صدري بألم لا يزال طازجًا حتى بعد كل هذه السنوات:

- كانت ليلة شتوية، أعد فوزي حفلًا كبيرًا بمناسبة بلوغي الثامنة عشرة.. تقمص دور الأب ببراعة وهو يعانقني يومها هامسًا في أذني (أنتِ حبيبة بابا.. كم أنا فخور بكِ!) وتقمص دور (النخاس) ببراعة أيضًا وقد أهداني ثوبًا أنيقًا أبرز مفاتني كغانية؛ لكن هذا لم يكن شيئًا وهو يتقمص أكثر دور

يجيده.. (الجوكر)!

عجبت لهذا الحفل بالذات، لماذا خلا من النساء، كلهم كانوا رجالًا وشعرتُ ببعض الخجل من نظراتهم المتفحصة الجديدة على عيني، وعندما دعاهم فوزي للعب وهممت بالانضمام إليهم كعادتي منعني وطلب مني الصعود لغرفتي، وهمس في أذني أن أنتظر مفاجأة عظيمة الليلة! وحقًّا.. كانت عظيمة!

أصمت للحظات أتمالك أنفاسي وبعض الوجع في صدري لأردف:

- لن أُكثر الكلام عن الأمر، فلن تعجبك التفاصيل، أنا فقط سأذكر أنني سمعت صوت باب غرفتي يُفتح فانتفضت مكاني وأنا أرى أحد البشوات العجائز من أصدقائه يتقدم.. كدت أبتسم له فما ظننت إلا أنه قد جاء يهنئني؛ لكن ابتسامتي ماتت على شفتيّ وأنا أسمع باب الغرفة يغلق من الخارج بالمفتاح! نظرات الباشا لم تحتمل التأويل وهو يتقدم نحوي فاردًا ذراعيه تمامًا كما يفعلون عندما يجمعون ما ربحوه على المائدة الخضراء!

صرخت أنادي (أبي) -أو من كنت أظنه- لكن ضحكة (الباشا) أخبرتني أن الأمر منتهٍ.. وأنه كسب الرهان!

يطلق عصمت سبة بذيئة وهو يشد بكفه على كتفي بانفعال صارخ؛ لكنني أرفض بادرة عطفه فأغتصب ضحكة ساخرة وأنا أحاول مقاومة الغصة في حلقي:

- لا بأس.. لم يكن ثمني بخسًا على أي حال.. فقد حصل فوزي نصار على (الباشوية) بعدها ببضعة أيام.. وأخبرني أن هذه كانت المفاجأة وأن هذا كان.. ثمني!

- مستحيل! لا أصدق أن هناك أبًا كهذا! وأنتِ؟! كيف احتملتِ أن تنظري في وجهه مرة أخرى؟! لماذا لم تهربي؟

يصيح بها عصمت بذهول مستنكر فترتجف شفتاي والماضي يصفعني دون رحمة:

- إلى أين؟ ولمن؟ أصابع فوزي الطويلة كانت لتطالني في أي مكان أذهب إليه.. (السنجاب) الجبان لم يكن ليفعل شيئًا سوى الاختباء في جحره! شعوري أنني انتهيت.. صرت مدنسة.. جعلني أرضخ للمزيد من الذل تحت جناحه، ولأول مرة شعرت أني أحسد أمي على مرضها الذي أنجاها من براثنه وتمنيت لنفسي المثل، وتذكرت.. تذكرت..

(احمِها منه.. هو سيؤذيها.. أشعر أنه سيفعل)

عادت وقتها لذاكرتي بصوت أمي ليلة احتضارها وهي تقولها للحارس، تمنحني جواب السؤال الذي لم أعرفه

وقتها.. أمي كانت تعلم أنه انحدر بحقارته للدرك الأسفل.. أنه لم يكن يبالي بالتضحية بي أو بأي شخص لأجل مصلحته.. تراه فعل معها ما فعل معي؟ قامر بها كما قامر بي؟ لن أعرف.. لن أعرف أبدًا.

- حتى الوحوش تأنف عن فعل كهذا! كيف يفرط في شرفك وهو شرفه؟!

يقولها عصمت بازدراء مشفق فأبتسم بمرارة ساخرة:

- الشرف؟ الشرف كلمة مستهلَكة في قانون فوزي نصار.. يباع ويشترى؛ بل ويمكنه المقامرة به على المائدة الخضراء.. أعذرك في استنكارك.. أنا مثلك ظننتني وقتها أعيش كابوسًا سينقضي بعد لحظات.. كنت أقول لنفسي أنه مهما بلغ طمعه وقسوته لن يفعل بي هذا! لكن الكابوس بقي يجثم على صدري مجبرًا إياي على التصديق.. أضربتُ أيامًا طويلة عن الطعام، حبست نفسي تحت الفراش كما كنت أفعل في صغري؛ لكنني لم أعد أختلس النظر نحو الخارج فما صار شيء يعنيني.. جرحت معصمي بشفرة حادة وانتظرت الموت تحت فراشي.. تعرف من أنقذني؟!

- الحارس!

يقولها عصمت بذكاء فترتجف ابتسامتي:

- أنت خطير حقًّا.. هكذا سأخاف منك.

يشد بقبضته أكثر على كتفي داعمًا يطلب المزيد من التفاصيل فأشيح بوجهي قائلة:

- لا أدري كيف عرف.. عندما أفقت من إغمائي وجدته هو يقف جوار الطبيب.. ينظر لي نفس النظرة التي رأيتها في عينيه يوم وفاة أمي.. رجوته ألا يخبر فوزي عما كان؛ فهز رأسه بطاعة صامتة كما كان يفعل دومًا.. عيناه سألتني دون صوت عن سبب ما فعلته؛ لكنني لم أجرؤ على البوح لأحدهم بما حدث.. ربَت على شعري، فوجدتني أبكي في حضنه دون تحفظ، وأقسم لك أنني شممت عطر أمي على صدره.. ولوهلة عاد لي الصراع القديم وأنا أسأل نفسي هل هو عشيق أمي أم قاتلها؟ لكنني تجاوزته وأنا أستسلم للشيء الوحيد الذي كنت واثقة فيه ساعتها.. أنه أحبني كما أحبها.. أحبني كابنة لم ينجبها.

- وماذا بعد؟

- استسلمت لقدري وتقبلت نصيحة فوزي: (نحن لا نختار أوراق اللعب لكن البراعة أن تجبر أوراقك أن تقودك للفوز) وأنا لم أختر ظروفي لكنني صممت أن أعيش ما بقي من عمري على طريقته هو.. وعدت لكنفه كطير مكسور الجناح لم يعد له مأوى سواه.. لكنني لم أملك نفسي ذات ليلة وقد

استيقظت مذعورة على إثر كابوس طاردني بتفاصيل ليلة اغتصابي.. وجدت خطواتي تقودني نحو غرفة فوزي، جلست على طرف فراشه أراقب ملامحه النائمة بوداعة كأنه لم يغرس في صدري نصلًا سيبقى يُدميني عمري كله، وامتدت أناملي دون وعي لعنقه، هل كنت أنوي خنقه حقًّا؟ هل كنت أملك القدرة لفعلها؟ لا أعرف! استيقظ هو فجأة لتتسع عيناه وهو يميز ما كدت أفعله..

- تلك الليلة.. تلك الليلة..

لم أكن بحاجة لتفسير أي ليلة أقصد وآثارها محفورة على ملامحي.. أصابعي تزداد ضغطًا على عنقه فلا يمنعني -للعجب- كأنه أراد للبركان الكامن داخلي بعض التنفيس كي لا ينفجر مطيحًا بالجميع.. نحيبي يتعالى مع ضغط أصابعي:

- أخبرني عن إحساسك وأنت تغلق باب الغرفة علينا وقتها.. عن شعورك وأنت تسمع صرخاتي.. قل لي أنك لم تكن واعيًا.. أنك شربت الخمر حد الثمالة.. أو أن أحدهم كان يقيدك ويهددك بالقتل خلف الباب.. قل أي عذر.. اكذب وسأصدقك.. لكن لا تدعني أشعر أن ما عانيته كان بلا سبب.. بلا عذر.. بلا حاجة!

أسبل جفنيه دون رد، وإن اختلجت شفتاه فيما بدا لي كبقايا من آدمية.. خبرتي به نبأتني أنني ألقيت حجرًا في

مياهه الراكدة؛ لكن سطحها لن يلبث أن يعود لسكونه الوحشي من جديد، ربما هذا ما شجعني لأصرخ بنبرة أقوى:

- لن تفعلها بي ثانية.. لن أكون رهانًا مرة أخرى!

لا أعرف بأي لسان نطقتها وقتها لكنني لمحت في عينيه نظرة ضعف نادرة وهو يومئ برأسه فيما يشبه الوعد! لماذا؟ هل شعر بالإشفاق عليّ؟ لا أظن.. هل أخافه ما فعلته؟ ربما! أو ربما هو فقط فَطِنَ بذكائه أنني بعدما فقدت عذريتي لم أَعُد الرهان المغري بالمزيد فاختار (الجوكر) إعادة ترتيب أوراقه بما يناسب الوضع الجديد.

مرت بي الأيام بعدها متشابهات لكن زخارف دنيانا التي كان يزيد بهرجها يومًا بعد يوم صارت تلهيني.. واعتدت مشهد المائدة الخضراء وأوراق اللعب، وسلمت أن ما بقي من عمري مجرد دور في رهان كبير لا أعرفه بعد، وانتظرت أن أكسبه كما علمني (الجوكر).. وظننت أني قد رضيت وتأقلمت حتى قابلته.. هو.. مراد.

صوت طرقات على باب الغرفة يقاطعنا قبل دخول أحدهم ليسر في أذن عصمت بشيء ما جعله يقول لي بنبرة معتذرة:

- سأضطر للرحيل الآن.

- هل هناك شيء؟ هل عرفوا مكاني؟

أسأله بقلق لكنه يربت على يدي مطمئنًا بقوله:

- لا تقلقي.. أخبرتك أنك في أمان معي.. نامي جيدًا ولا تفكري كثيرًا.

أتنهد بارتياح مستسلمة للوعد الحاني في نظراته وأنا أراه يضغط زر الإضاءة قبل مغادرته، فيغشي عيني نور الغرفة قليلًا قبل أن تتعلق نظراتي بما ربحته هذه الليلة على المائدة.. في ظروف أخرى كنت لأفرح بغنيمتي، لكن يبدو أن مرارة الذكريات أفسدت انبهاري بمكسب الليلة! ستدرك أنك كبرت عندما تتوقف عن الانبهار بأي شيء وبأي شخص.. عندما تتحول حياتك لنكتة سخيفة سمعتها من قبل آلاف المرات.. لكنك فقط كنت طفلًا أحمق يضحك عليها كل مرة كأنها أول مرة.. ويبدو أنني كبرت.. كبرت كثيرًا.

***

النغمة الثالثة

(لا تظن أن العالم ملون فقط لأنك تهوى الرسم.. ما عسى يجدي لون الفرشاة ما دامت اللوحة نفسها سوداء؟)

غزل

قطة! كان الذي هبط بثقله على جسدي مجرد قطة! زفرت بسخط وأنا أزيحها عن كتفي مرتعبة فركضت هاربة تموء بصوت عالٍ أخافني من أن يكتشفوا مكاني، لهذا ركضت على غير هدى لأختبئ فيما بدا لي كمخزن صغير.. ولحسن حظي نافذته بلا قضبان.

لم أفوّت الفرصة وأنا أفتحها.. لم أفكر للحظة وأنا أقفز عبرها للأرض لكن فرحتي لم تكتمل وأنا أرى هذا السور من الطوب الجاف يحيطني.. الأوغاد! لهذا تركوها دون قضبان!

سببتهم لاعنة وأنا أتلفت حولي.. صوت الكلاب النابحة يكاد يصم أذني من جديد؛ لكنني أجبرت نفسي على الهدوء.. سأخرج من هنا.. أقسم أني سأفعل.

أتسلق السور الذي بدا لي رغم قِصَره بلا نهاية، كفاي يكادان يتشققان من فرط المجهود لكنني أثابر.. العرق يسير في خيوط طويلة على ظهري وعضلاتي تئن لكنني لن أضعف..

ألهث بقوة وأنا أصل أخيرًا لقمة السور، أرى باب الخروج من مكاني لكنه محاط بالرجال والكلاب بل والأسوار الشائكة.. ما هذا المكان اللعين؟ ماذا أفعل الآن؟

اضطررت للتراجع ونظرت للأسفل أقدّر الارتفاع.. لن يكون

سقوطي كارثة.. فقط لنأمل هذا! كتمت أنفاسي وتركت نفسي للقفز لأسقط على ظهري، لم أستطع كتم صرخة ألم ودعوت الله سرًّا ألا يكون سمعني أحدهم لكن..

- سمعت صرخة أنثوية.

- أين؟

- لا يمكنني التحديد.

هتافاتهم المتحفزة تمتزج بصوت خطواتهم الراكضة خلف الجدار، فأكتم وجعي وأنا أتحسس فتاحة الخطابات التي احتفظت بها.. لو وصل الأمر أن أقتل نفسي قبل أن يصلوا إليّ فسأفعلها!

أسحق أنفاسي وأنا أزحف على الأرض لأختبئ في زاوية مظلمة بين النافذة والجدار.. لأبقَ هنا قليلًا فحسب حتى تهدأ الأمور ويخف وجع جسدي.. أشعر بالعطش لكن لطف القدر يغمرني بـ(قُلّة فخارية) وجدتها موضوعة على سياج النافذة، شربت دون تحفظ، ثم وضعتها بتنهيدة حارة وأنا أستسلم لبكاء قصير انتهى بصرختي عديمة الصوت (كيف وصلت إلى هنا؟ أين أنت يا غريب؟ لماذا تركتني وسط كل هذا؟)

أرفع وجهي للقمر الذي بدا رفيقي وسامري الوحيد هذه

الليلة، ثم أمسح دموعي وأنا أحاول التسرية عن نفسي بالاستسلام للمزيد من الذكريات:

- لماذا تأخرتِ هكذا؟

عاتبتني بها عمتني تلك الليلة عقب عودتي من عوامة (إيريني)، فتذرعث بوجود عيوب في الثوب اقتضت التأخر لتعديلها..

- ذاك الشاب انضم إليكم؟ رأيته عبر الشرفة.

قالتها بقلق مستكشف، فهززت رأسي إيجابًا لتقترب مني وترفع وجهي نحوها مردفة:

- تخفين عني شيئًا؟ ذاك الشاب ما قصته؟

ولأول مرة أكذب عليها فأغتصب ابتسامة لأهز كتفي بقولي:

- مجرد شاب لطيف رأيته بضع مرات هنا.. تربطه صداقة قوية بالباشا ومدموازيل إيريني.

لكنها بدت قلقة أكثر وهي تضمني إليها كأنها تحميني من خطر مجهول:

- انتبهي لحالك حبيبتي.

قالتها وجلست على الأريكة لتسحب رأسي في حضنها وتعيد تذكيري بحكايات كثيرة اعتادت قصها على مسامعي عن نساء ذبحهن الحب.. لم تكن قصتها هي نفسها أولها ولا آخرها.

- لا تخافي عليّ.

قلتها كي أطمئنها وأنا أرفع رأسي لأقبل جبينها؛ لكنها احتضنت وجهي بين راحتيها هامسة:

- لا أقول هذا لأخوّفك.. أنا فقط أحذرك.. الحب نور ونار.. وقليلٌ جدًّا من أدرك نوره واتقى ناره.

عدت وقتها لغرفتي شاعرة ببعض الذنب والكثير جدًّا من الخوف.. أستعيد ذكريات الليلة السعيدة التي بقيت ملتحمة في ذهني بكلمات الغنوة الرائعة فيرتجف قلبي كبرعم صغير يتفتح لتوه كي تعانق بتلاته ضوء الشمس، لكنني كنت وقتها مرتعبة من فكرة الوقوع في الحب.. لم أكن أخاف من (غريب) نفسه فما رأيت منه إلا خيرًا؛ لكن خوفي كان من الحب ذاته.. تلك القوة القاهرة التي تسلبنا قلوبنا وإرادتنا وتجعل سعادتنا دائرة في فلك واحد فلو تفلتنا منه.. شقينا ما بقي لنا من عمرا

(قل لمن لام في الهوى هكذا الحسن قد أمر

إن عشقنا فعذرنا أن في وجهنا نظر)

انتفضت مكاني والأنغام تنبعث قريبة فارتجف قلبي بترقب ممتع وأنا أكتشف مصدرها.. تحركت لأزيح ستارة الشرفة بحرص متلصصة لأتبينه واقفًا مكانه في شرفة عوامته يستند لسورها وقد انطلقت الأنغام من الجرامافون خلفه، لتلقي قلبي فوق غمامة وردية لم تلبث أن اتشحت بالرمادي وقد عاد خوفي اللا مبرر يراودني.

لا أعرف أي غباء انتابني للأيام التالية بعدها وقد صممت أن أحبس نفسي في عوامتنا قاطعة على قلبي طريق لقائه.. حتى الشرفة لم أخرج إليها كي لا يرى أحدنا صاحبه، رفضت دعوات إيريني والباشا لمشاركتهما نزهاتهما وتجمعاتهما؛ خشية أن ينضم إلينا.. هل كان الأمر مجرد (تدلل أنثوي) لأتبين مكانتي الحقيقية عنده؟ تمنيت حقًّا لو كان الأمر فقط هكذا بهذه البساطة؛ لكنني وحدي كنت أعرف أنني لا أزال أجبُن عن منح قلبي للحب كأولئك الساذجات اللائي أرقن دماء كبريائهن متسولات على أرصفته! لعلها كانت رهبتي.. رهبة طفل محروم امتلك فجأة صندوق حلوى وصار يخشى فقده!

خفت ضعفي أمامه كتلك الليلة التي طبع فيها قبلته على كفي فجعلني أشعر حينها أنني مستعدة لألقي كل شيء خلف

ظهري دون تعقل وأركض معه لآخر حدود الشمس! وأخيرًا انتصر لهيب خوفي وهزم شرارة حبه..

لهذا عندما أخبرتني عمتي بعدها بيومين أن أم (الشاب اللطيف) التي تسكن العوامة المجاورة دعتنا لزيارتهما وسألتني عن رأيي، ادعيت عدم الاكتراث:

- دعينا (في حالنا).. لا داعي للاختلاط.

وشعرت أن الرد أرضى عمتي كما أرضى عقلي، وعزمت على نسيان نزوتي العارضة، لكنني اضطررت لزيارة إيريني في عوامتها اليوم التالي بعدما علمت من العم نوح أنها مريضة.. تمنيت لو لم أره هناك؛ لكنني اصطدمت بعينيه بمجرد دخولي، وقد كان جالسًا مع الباشا جوار الأريكة التي استلقت عليها العجوز بوهن، وقد أشرق وجهها لرؤيتي رغم عتابها إياي لتأخري عن زيارتها..

- رغمًا عني..

قلتها بودّ معتذرة ليصلني قوله هو الملهوف كأنه يشاركها عتابي:

- أنتِ بخير؟

لكنني تجاهلت سؤاله تمامًا؛ بل وتعمدت عدم النظر إليه

وأنا أوجه كامل اهتمامي للعجوز التي ساءها قلقي فأخبرتني أنها فقط مجرد نزلة برد خفيفة لا تستحق التوتر.. وأمعنت أنا في تجاهله راجية أن ينصرف ويتركني لصومعتي الآمنة، ولم يخيب (ذو الكبرياء) ظني، فقد غادرنا بعدها بقليل دون أن يحاول النظر إليّ حتى بعدها.

وتوقفت النغمات عن الانبعاث من (الشرفة العزيزة) التي أظلمت بعدها، وقد رحل صاحبها مع أمه، وعادت حياتي طبيعية كما كانت.. آمنة كما كانت.. ومملة كما كانت.

ومرت الأيام متثاقلة بعدها، يزورني طيفه بذكرياتنا القصيرة فأقول لنفسي إنه كان مجرد حلم.. أستعيد صوته الحلو وهو يحكي لي عن نفسه وحياته بحميمية.. فأتعجب كيف كنا بهذا القرب، وكيف صرنا بهذا البعد؟

لن أكذب فأقول إنني لم أندم على صدّه.. ندمت! لكنني كنت أعرف أن لكل شيء مقابلًا.. ولعل هذا مقابل شعوري بالأمان.. وعلى الرغم من هذا لم أكف عن التطلع كل ليلة لـ(الشرفة العزيزة) المظلمة، أسمع بـ(أذن خيالي) النغم المنبعث منها فيرتعد قلبي لكنني أجيد سيطرتي عليه بقولي (كانت صفحة مزينة لكنها طُويت للأبد).

- ستخرجين؟

سألتني عمتي ضاحكة ذاك الصباح وهي تراني أتأهب للخروج، فابتسمت وأنا أعدل وضع ثيابي في المرآة راضية عن شكلي بثوبي الوردي الذي أضفى من لونه على بهاء وجنتي وقد أظهر حزام الثوب الأبيض العريض ضيق خصري وجمال جسدي لأجيب:

- الباشا دعاني لزيارة نادي الخيل مع إيريني ومشاهدة السباق.. صحيح أنني أكره أن أبدو كـ(عزول) بينهما؛ لكنني متحمسة هذه المرة للرسم!

قلتها مشيرة للحامل الخشبي العريض بلوحته البيضاء وأدوات الرسم التي استقرت في حقيبتها، لتهتف عمتي ضاحكة:

- كفى! العوامة تكدست بلوحاتك للنيل والشاطئ.. هل ينقصنا الخيل أيضًا؟

- اصبري فقط حتى أتمرس.. وساعتها سأزيدك من صور الناس كذلك.

- وسأكون أول وجه ترسمينه!

لوّحت بها بسبابتها لأضحك وأقبل جبينها:

- ومن أعز منك ليسبقك؟

- وترسمين وجهي دون تجاعيد، وشعري دون شيب، وكتفي دون ترهل.

- هكذا يكون غشًّا وليس رسمًا يا عمتي!

خبطتني على كتفي بمرح فضحكت وأنا أعاود تقبيل رأسها، ساعدني عم نوح في نقل حاجياتي لسيارة الباشا.. (كاديلاك) بيضاء قادها السائق بنا نحو نادي الخيل.

تقدمنا نحو صالونه الزجاجي الذي يطل على الميدان الأخضر الفسيح والذي تناثرت فيه حواجز القفز فأخذت نفسًا عميقًا وأنا أراقب الهدوء الجميل من حولي.. الخيل تتهادى بشموخ راقٍ وفوقها راكبوها.. السماء صافية تبتسم لنا بوداعة.. والنسيم مُغوٍ بالحلم..

تلفتُّ حولي أتفحص صور الخيل التي عُلقت على الجدران وعاهدت نفسي أن أرسم الأفضل.. طلبت من أحد العاملين أن يضع لي الحامل في مكان متميز يتيح لي رسم الميدان الأخضر واتخذت مجلسي لأشرع في بث خطوطي..

كنت أبتسم وبعض عبارات الغزل بين إيريني والباشا خلفي تداعب أذني، فأتظاهر بالصمم وأنا أحاول التركيز، وقد نجحت لدقائق طالت مع شعوري بالاندماج؛ لكن الفرشاة ارتجفت في يدي وتركت خطًّا متعرجًا وأنا أسمع الصوت

الخطير خلفي.. (غريب)!

اختلست نظرة نحوه لأراه يصافحهما وقد بدا متفاجئًا بوجودهما..

- متى عدت للقاهرة؟

سأله الباشا بدهشة ليرد بتحفظ:

- من يومين.

- لم أركَ في العوامة!

قالتها إيريني بتعجب، ليرد بابتسامة بدت لي باردة متباعدة:

- أقيم في (أوتيل) حتى أقضي مصالحي وأعود لمطروح.

- ولماذا لا تقيم في العوامة؟

- لم تعد مناسبة.. صار الجو باردًا.

خيل إليّ أن عبارته الأخيرة تصفعني على ظهري، وتمنيت لو التفتُّ إليه وحييته ودعوته للجلوس بل واعتذرت له عن إعراضي السابق غير المبرر؛ لكنني وبدلًا من هذا مضيت في تجاهلي إياه، فردّ لي بضاعتي وهو يعتذر منهما ليجلس بعيدًا عنا دون أن ينظر إليّ، وقد فهمت من حديث الباشا مع

إيريني أنه يأتي كثيرًا إلى هنا مشاركًا في سباقات الخيل أحيانًا.. ومتفرجًا أخرى.

ظلَّلَتْني الكآبة وأنا أشعر أنني فقدت رغبتي في الرسم وفي كل شيء، لكن هذا لم يكن شيئًا مقارنةً بما حدث بعدها وأنا أرى من موقعي تلك المرأة الشقراء أرستقراطية الملامح عاجية البشرة تتأرجح في مشيتها بثوبها الأنيق الذي أبرز مفاتنها بكرم، وتتوجه نحوه لتمد له يدها مصافحة، ثم تدعوه ببساطة لمائدة (البنج بونج) القريبة منا كي يشاركها اللعب.

توقعتُ ألا يقبل دعوتها ويعتذر بتهذيب كعادته؛ لكنه قام ليتحرك معها نحو المائدة، فتعالت ضحكاتهما معًا وهما يتشاركان اللعب بمرح، واحترق قلبي بشعور أجربه لأول مرة.. وعجزت عن تجاهله مع كل ما أتجاهله.. الغيرة!

وفي تلك اللحظة فقط عرفت مقدار القوة الشريرة التي أملك في ضلوعي، والتي كادت تدفعني لشد تلك الشقراء من شعرها وصفعها على وجهها، والصراخ فيها أن تلملم عرضها السخي هذا وترحل لأن هذا الرجل يخصني أنا!

قوة بقيت دفينة صدري وأنا أحاول المزيد من التجاهل؛ لكن الظروف كلها بدت وكأنها تمعن في إذلالي وغنوتنا تنساب أنغامها في المكان من جهاز جرامافون بعيد.. (جفنه

علم الغزل).

نظرت إليه أتبين وقعها على ملامحه؛ لكنه بدا منشغلًا تمامًا بصاحبته والكرة الصغيرة تبدو كشيطان أبيض يتراقص بينهما.

هنا لم أتمالك نفسي وأنا أقف لأغادر دون تفسير للباشا أو إيريني.. خطواتي الراكضة كانت خط دفاعي الأخير وأنا أغادر الصالون الزجاجي نحو الخارج شاعرة أنني ودعت عزيزًا للأبد.

شهقت متفاجئة وأنا أشعر بذراعه القوية خلفي تسحبني لتوقفني مكاني، ثم تُلصقني بجذع الشجرة القريب، فيقترب مني وأنفاسه المتلاحقة تخبرني أنه كان يركض مثلي..

تلفتُّ حولي بقلق لكن المكان بدا خاليًا إلا منا فهتفت له بحدة:

- اترك ذراعي! ما الذي تفعله؟!

قلتها وأنا أحاول تخليصه منه؛ لكنه تشبث به أكثر وعيناه تتشددان مع سؤاله:

- ما الذي تفعلينه أنتِ؟

تكدست الدموع في عينيّ، وخشيت أن أتكلم فتنفجر دون

رادع.. كيف أخبره أنه وهو بهذا القرب جعلني أدرك فجأة كم كنت أشتاقه؟!

هل ازدادت عيناه سوادًا وسحرًا؟ ازداد جبينه سعة وضياء؟ وهذا (الشق) العزيز الغائر على ذقنه صار أشبه بـ(نداهة) الحكايات يغريني بلمسه ليبدأ القصّ!

وبدا لي أنه شعر بحالي، فقد لان ضغط قبضته على ذراعي، وإن بقي متشبثًا به لينعقد حاجباه بقوله:

- لو كان وجودي هو ما ضايقك هكذا فسأغادر أنا وارجعي أنتِ.

- ولماذا يضايقني وجودك أساسًا؟

هتفتُ بها بنفس الحدة كأني أنفي عن نفسي تهمة الاهتمام به؛ لكنه بدا وكأنه يدرس كل تفاصيل ملامحي ليسألني:

- إذن ضايقتك الغنوة؟ جريتِ أول ما انبعثت أنغامها!

وانفجرت كلماتي دون تفكير:

- ولماذا تضايقني الغنوة؟ ألأنها تذكّرني بأحدهم، كلما مر على امرأة علمه جفنها الغزل! يبدو لي قلبه كتلميذ مجتهد يتوق للعلم على يد الكثير من المعلمات!

اتسعت عيناه بدهشة للحظات، أغمضت بعدها أنا عينيّ

وأنا ألعن نفسي.. ليس فقط حماقة ما قلته بل الأسوأ وشايته بما لم أقله!

شعرت بقبضته تتخلى عن ذراعي ليجتاحني برد مفاجئ جعلني أفتح عينيّ الدامعتين لكنه تناول كفيّ بين راحتيه لتلتوي شفتاه بابتسامة عاتبة ناسبت همسه شديد الخفوت:

- تغارين؟

أشحت بوجهي دون رد ليميل على أذني هامسًا بأرق صوت سمعته:

- ولو أخبرتكِ أنها فقط معلمة واحدة.. لم يعد قلبي يرضى بغير دروسها؟ هي (غزل) واحدة خُلق لها القلب.. تصدقين؟

- كاذب!

حاولت قولها! صدقًا حاولت! تمامًا كما حاولت سحب كفيّ من راحتيه أو حتى الابتعاد قليلًا عن هذه الهالة الآسرة التي فرضها حضوره.. لكنني فشلت في كل هذا بجدارة فسقطت دمعة من طرف عيني مسحها هو بإبهامه وهو يضمد جرح قلبي بابتسامته الراجية:

- تعالي.

استسلمت لدفء كفه وهو يتحرك بي لخارج النادي، فتح

لي باب سيارته ليجلسني ثم جلس جواري، ولم يكد يفعل حتى ابتسم وهو يحتضن كفي ليتنهد بحرارة أحرقتني مع همسه:

- أخيرًا! أنتِ معي!

عضضت شفتي شاعرة بالمزيد من الاضطراب من كل هذه الفوضى في مشاعري خاصة وهو يبثني عتابه:

- لماذا تباعدتِ عني؟ أنا أحضرت أمي خصيصًا لتراكِ بعدما كلمتها عنك.. طلبت منها دعوة عمتك كي نتعارف لكن عمتك تهربت.. وبعدها حاولت مقابلتك عدة مرات لكنك اختفيتِ فجأة كأن الأرض ابتلعتك.. حتى الشرفة التي كنت أراكِ فيها من بعيد صارت خالية منكِ.. لم أملك تفسيرًا سوى أنك لا تبادليني شعوري.. خاصة عندما رأيتك في عوامة إيريني لأسألك عن حالكِ فلم تردي حتى عليّ.

كنت أعرف أنه محق في كل كلمة قالها لكن العزة أخذتني بالإثم:

- لا بأس.. يبدو أنك وجدتِ العوض بسرعة في تلك الشقراء التي كنت تشاركها اللعب.

- أنا أرتاد النادي في أوقات متفرقة ولي كثير من المعارف هنا.. هي التي بدأتني بالكلام ودعوة اللعب.. ماذا كنت

سأفعل؟

قالها بحنان صبور كأنه يهادن طفلة فهتفت بحدة:

- ترفض! ماذا؟ ألم يعلموك صغيرًا أن تقول (لا)؟

قهقه بتلك الضحكة التي تأسر روحي وهو يرفع كفي لشفتيه بقبلة معتذرة رغم نبرته المشاكسة:

- في المرة القادمة لن أرفض..

عقدت حاجبي بشدة ليكمل عبارته:

- لن أرفض فقط بل.. سأشكرها أيضًا فلولاها ما وصلنا هنا.

شعرت بعُري عاطفتي يُربكني أكثر فسحبت كفي منه:

- يجب أن أرحل الآن فأنا..

- مستحيل.. لن تهربي ثانية.. ليس قبل أن أفهم كل شيء.

وانطلق بسيارته فلم أسأله عن وجهته ولا أزال متخبطة بدوار مشاعري.. توقف أمام مقهى (جروبي) ليسألني بابتسامة كأنه أراد محو ارتباكي:

- نكمل اليوم الحلو بأكلة حلوة.

فابتسمت وأنا أترجل من السيارة لأسير معه للداخل.. طلب لي (مارون جلاسيه) و(بول دي شوكولاه) و(إكلير) ومنعته

بالكاد من أن يكمل الجريمة بـ(الجيلاتي)..!

- تحب الحلويات؟

سألته ببعض الارتباك وأنا أكاد أدفن وجهي في طبقي فرفع ذقني إليه هامسًا:

- يبدو أنني سأحب كل شيء معك من جديد.. فيكون الحب مضاعفًا!

دمعت عيني فتنهد ليهمس بنبرة غريبة بين أمر ورجاء:

- ما الذي يحدث معكِ؟ افتحي لي قلبك.. لن تندمي.. يقولون إنني صديق جيد.

أسبلت جفنيّ ولا أزال أقاوم، ليردف:

- أنتِ لا تعرفين كيف مرت عليّ الأيام السابقة.. أنتِ أتيتني كأجمل حلم تمنيته فإذا بي أراه واقعًا أمامي.. لكنني ما كِدتُ أمد يدي لألمسه حتى تبخرا! والأسوأ أنني لم أكن أفهم السبب!

ثم صمت لحظة ليحترق صوته بسؤاله:

- هناك رجل آخر؟

هززت رأسي نفيًا، لتهدأ ملامحه وأنامله تداعب الزهرة

الحمراء على أذني، فأقول بشرود:

- خائفة!

- مني؟!

- منك ومن نفسي ومن الحب.. خائفة أن تخذلني.. وأن أخذلك.. أو أن تخذلنا الدنيا.. طالما كنت أقول لنفسي أني آمنة في صومعتي ما لم أتعلق بأحدهم.. جنتي في صدري ما دمت غير راغبة في شخص أو شيء.. فمن أين يجيء إذن عذاب الحرمان؟ لكنك لوّحت لي بالثمرة المحرمة.. ووجدتني رغمًا عني أهرب من جنتي لجنتك.. والآن أخاف أن أعود خاوية الكفين فلا يبقى لي سوى جحيم خسارتي.

- أما أنا فلست بخائف.. أنا أثق بقلبي فلم يخذلني يومًا.. قلبي الذي أشار إليك من أول مرة رآك فيها فلم أكذّب نبوءته بأنك ستكونين سيدته الأولى والأخيرة.

قالها وهو يمسد معصمي بإبهامه في حركة بدت لي شديدة الحميمية كأنها ألغت كل الحواجز بيننا فما عاد بينه وبين قلبي حجاب! انتقل يقينه منه إليّ لأبادله ابتسامة بابتسامة، وشوقًا بشوق، وعهدًا بعهد.. ومر بنا الوقت في سرعة قياسية كأنما كانت تطير بنا عقارب الساعات.. وافترقنا على لقاء لكن ليس وحدنا هذه المرة؛ فقد أوصلني بنفسه للعوامة

ليقابل عمتي ويعرض عليها رغبته في التقدم لخطبتي؛ لكنها طلبت منه تأجيل الأمر قليلًا، فاقترح أن يدعونا لقضاء بعض الوقت في مطروح للمزيد من التعارف على عائلته، ووافقت عمتي بعد إلحاح مني فأعددت العدة للسفر شاعرة أنها ستكون أجمل رحلة في عمري كله.

- أنتِ هنا! وجدتك!

الهتاف الخشن يوقظني مرعوبة من فيض ذكرياتي، لأشهق بجزع وأنا أميّز جذع الرجل الذي انحنى عبر النافذة وقد لمحني مكاني، ودون تفكير أجدني أندفع نحوه بسرعة لأخدش كتفه بفتاحة الخطابات، يطلق صرخة متوجعة وهو يهم بالإمساك بي؛ لكنني أهوي بـ(القلة الفخارية) بقوة على رأسه ليسقط مكانه.

أقف ألهث بقوة وأنا أنظر خلفه برعب، هل سمعه أحدهم؟ هل هي صوت خطوات تقترب؟

***

فايزة

صرخة قصيرة أطلقتُها وأنا أستيقظ من نومي بعد كوابيس بشعة أرقتني طيلة الليلة الماضية لكن..

(ياللي جفيت ارحم حالي)

النغم الساحر بصوت (أم كلثوم) ينبعث من الراديو القريب فيمنحني ما يشبه التهويدة ويعيدني لأتمطأ على وسادتي في محاولة للاسترخاء؛ لكن أي استرخاء وقد تآمر عليّ صوتها الساحر ولحنها الشجيّ ودقات قلبي الغادرة وثقل دبلة مراد في إصبعي..؟

فأتنهد بحرقة وأنا أرفع عني الغطاء رافضة شعوري بالاستجابة للسَكْرة العاطفية التي تفرضها ذكراه..

أغسل وجهي وأعيد تمشيط شعري مع لمسات خفيفة من الزينة على ملامحي أبرزت جمالي أكثر، أتخير ثوبًا ضيقًا بلون أصفر زاهٍ وأزرار بيضاء كبيرة على طول صدره وخصره.. يعجبني ذوق عصمت في اختيار هداياه كهذا الثوب الأنيق.. فقط لو كان لونه أكثر قتامة.. لا أحب الألوان الزاهية.

أسمع صوت الطرقات على الباب فأدعوه للدخول لتستقبلني نظراته المعجبة:

- (بونجور) فايزة! كم يليق بكِ الفستان!

لم أجد مكافأة أفضل من ضحكتي ذات الدلال وأنا أتحرك نحوه لأقول بامتنان لا أدعيه:

- شكرًا على كل شيء.

- نمتِ جيدًا؟

- نعم.. جدًّا.

- لا تكذبي.. كنت أسمع صرخاتك طوال الليل.

يهمس بها عاتبًا فانتبهت لموقع غرفته جوار غرفتي.. أُطرِق بوجهي لكنه يرفع ذقني نحوه محتكرًا نظراتي بعينيه النافذتين:

- اتفاقنا كان واضحًا.. صراحتك أمام حمايتي لكِ هنا.

ابتسامتي المرتعشة تكفيه كاعتذار مقبول، فيبتسم بدوره وهو يشير للخارج:

- نتناول الإفطار بالحديقة؟

تتسع ابتسامتي وأنا أومئ بالموافقة.. أتحرك جواره معترفة أن وجوده صار مرادفًا للأمان.. لم أعد أداهنه رغبة في الحماية بل صرت حقًّا آنس بقربه..

يسحب لي كرسيًا لأجلس ثم يجلس أمامي ليشبك أصابعه وهو يسألني:

- تحبين الشاي الإنجليزي؟

- فقط لو دعوتني لشربه في لندن.

أقولها مازحة وأنا أراهم يرصون لنا المائدة بأصناف الطعام المختلفة فيضحك وهو يصب لي الشاي بنفسه:

- اشربيه مؤقتًا معي هنا وأعدك عندما تتحسن الأمور أن أدعوكِ لنشربه معًا في لندن.

قالها ثم مضى يحكي لي عن نوادر سفره للندن، وعجائب ما صادفه من مواقف هناك، كان حديثه ممتعًا مرحًا دافئًا كالشاي الذي شرعت في احتسائه ببطء مع الإفطار اللذيذ الذي بدا لي بلذة دعاباته الحاضرة..

- أحب الكلام معك.

أقولها فتطوقني ابتسامته الدافئة للحظات.. قبل أن تلتمع عيناه بصدى كلماته:

- لماذا لا تزالين ترتدين دبلته؟

سؤاله المفاجئ يصعقني وعيناه تتعلقان بأصابعي المرتجفة على كوب الشاي الذي أعدته مكانه، ليردف عصمت

بنظرة متفحصة:

- لا تزالين تحبينه؟

- لماذا تقول هذا؟ ربما أنا فقط أحتاج لتذكرة نفسي بقسوة ناب الأفعى كي لا أنخدع بنعومة جلدها من جديد!

أقولها بتهكم ساخر وأنا أكتف ساعديّ مردفة:

- أحتاج سجائري.

يهز رأسه متفهمًا وهو يطلب من أحدهم إحضارها من غرفتي، أتحرك نحو شجرة كبيرة تدلت بعض غصونها الرفيعة حولها.. أسلي نفسي بانتزاع أحد الغصون النحيفة وكسره حتى أشعر به يقترب ليعطيني سيجارة دسستها بين شفتي فأشعلها لي وهو يتفحص ملامحي بنفس النظرة التي تُشعرني أنه يخترق خباياي..

- أعرف أن فضولك يحرقك لتعرف عن مراد بالذات.. صحيح؟

- أنت أيضًا تريدين التحدث عنه.. أكاد أقرأها على وجهك.

يهز بها كتفيه فأحاول اغتصاب ابتسامة مشاكسة أو قولًا مراوغًا؛ لكن دموعي تخذلني! تنهمر فجأة دون سابق إنذار!

يبدو مأخوذًا ببكائي المفاجئ، فيربت على ظهري بحنان لا

أظنه يدعيه..

- دموعنا عورة لا تنكشف إلا على محارم قلوبنا.. طالما تشدقت بهذه العبارة؛ فمالي الآن أسكب دمعي على الأرصفة ليكون للعامة مباحًا؟!

أتمتم بها بحسرة تكوي ضلوعي وأنا أخفي وجهي في ذراعي المستند على جذع الشجرة فيصلني صوته المؤازر:

- أفهم جيدًا كيف تشعرين.. الحب تلك العملة ذات الوجهين.. أحدهما صورة لـ(ملك) على عرش القلب والآخر (كتابة) لتاريخه.. محظوظ من وجد عملته وقد صالح فيها (الملكُ) (الكتابةَ) فلم يلعنه تاريخها؛ بل وثق نصره ووفاء عهده.. بينما قليلو الحظ لا تغريهم حلوى البوح لأنهم يدركون ما خلفها من مرارة الخزي.. لكن دعيني أخبرك شيئًا مما وعيته من دروس ماضيّ.. أحيانًا نربّي وحش الكتمان في صدورنا حتى يكبر ونصير أول ضحاياه.. لا ضير من بعض البوح أحيانًا.

- معك حق..

أقولها وأنا أرفع وجهي، آخذ نفسًا آخر من سيجارتي لأغوص في بحر ذكرياتي:

- أين التقيته أول مرة؟ في حفلة من حفلات فوزي نصار

ليلًا؟ في أحد النوادي نهارًا؟ لا أذكر.. ولا يعنيني أن أذكر.. هل سيشكل هذا فارقًا؟ دعني أقول إنني التقيته صدفة ذات يوم بعد تاريخ طويل من ملاحقات الرجال لي.. لا أخفيك قولًا أنني بعد مصيبتي كنت أبحث عن إبرة الأمل وسط كومة من قش الخيبة.. كنت أريد رجلًا ينقذني من سيطرة فوزي نصار.. ينسيني خضرة الموائد وتراقص أوراق اللعب.. يساعد (السنجاب) أن يقرض جذع شجرته حتى يسقطه ثم يبني له بين ضلوعه جذعًا آخر آمنًا من جديد.. لكنني كنت أذكّر نفسي أنني لم أعد صالحة للحب حتى لو أردت.. وأن خطيئتي التي لم أرتكبها ستبقى وصمة جبيني طوال عمري.. كنت أكتفي بالاستماع لمغازلات الرجال نهارًا شاعرة أن هذا أقصى ما سأحصل عليه منهم، وعندما كنت أخلو بنفسي ليلًا كنت أمارس عادتي القديمة في التسلل تحت فراشي.. أضيئ الظلمة بقداحتي.. أرسم قصصي الخاصة التي أنتقم فيها منهم.. أسحقهم.. أدهسهم.. كلهم.. كلهم وأولهم فوزي نصار.. لا تلمني فقد كان هذا الخيال هو سلاحي الوحيد ضد كوابيسي.. خيال.. مجرد خيال.. لكنني عندما كنت أستيقظ صبيحة اليوم التالي كنت أعود لطبيعتي المستسلمة الجبانة المنقادة خلف قطيع فوزي نصار.

أصمت قليلًا أتمالك أنفاسي والطيف الحبيب الغادر يعاود احتلال حصوني:

- تؤمن بالحب من أول نظرة؟ هل هذا ما حدث لي؟ لا أعرف.. كل ما أعرفه أنني عندما رأيت مراد لأول مرة أدركت أنه قدَري.. روحي كانت تقسم أن هذا الرجل ليس كغيره.. أنه صورة مرآتي! بداخله جحيم يشبه جحيمي.. حمقاء ظننت كلًّا منا سيكون جنة الآخر، ونسيت أن النار لا تطفئها نارا!

ملامحه عادية لكن اجتذبني هذا الصراع على قسماته؛ كأن شيطانًا وملاكًا يتعاركان على وجهه.. نظراته كانت تتأرجح بين حنان طاغٍ وقسوة هادرة.. ولا أعرف كيف أقنعت نفسي أنني أستطيع ترويض تلك القسوة! حاجباه مقوسان بشدة كأنهما معقودان بجدية طوال الوقت لكن ابتسامته متلاعبة ماكرة.. مزيج استفز ذكائي من أول نظرة وأنا أحاول فهم طبيعة رجل كهذا! أول ما لفت انتباهي في شكله كان ذاك الخاتم الفضي في بنصره؛ خاتم سقط فصه وترك مكانه خاويًا، خاتم أخبرني هو فيما بعد أنه ورثه من أبيه؛ لأدرك أنه كان يشبهه.. الخاتم سقط فصه وهو سقط قلبه!

- فايزة.. تدركين ماذا تفعلين؟

ينتزعني بها عصمت من شرودي لأنتبه أنني في غمرة انفعالي اللاواعي كنت أحفر بذاك الغصن الصغير اسمي واسم مراد على جذع الشجرة! ولم أكد أنتبه حتى ألقيته من يدي كأنه عقرب لدغني!

- لا تزالين تحبينه!

يقولها عصمت ببعض الحسرة؛ فلا ألومه في استنتاجه؛ بل أصرخ بغضب:

- لا.. لا.. لم أعد أحبه.. لم أعد.. لم أعد..

لكن صرخاتي تسخر مني وأنا أشعر بقلبي كجواد فكوه من لجامه بعد طول تقييد.. فتترنح كلماتي أمام طوفان الذكريات الذي عاد يجرفني في طريقه:

- أنت بارع في النحت حقًّا!

أتذكر يوم قلتها لمراد في إحدى لقاءاتنا الأولى، كنت مبهورة بدقته في نحت التماثيل بهذه الروعة، فأجابني وقتها بحزن صدقته:

- علمني أبي بخامات بدائية من الطين والفخار، ونميت موهبتي بعدها.

يومها مسدت أناملي كل قطعة فنية رأيتها في بيته، ورفعت رأسي إليه بنظرة راجية لبّاها دون أن أحتاج لقولها.. رقة أنامله طافت كالفراشات على ملامحي مع همسه:

- سأصنع لكِ واحدًا.. ليس فقط كي أستحضر ملامحك الجميلة كل وقت.. لكن لأن وجهًا كهذا يستحق أن يخلده فن

عاشق.

صدّقته.. صدّقته ومن يلوم الغريق لو تعلق بطوق نجاة؟ صدّقته كل ليلة كان يقسم لي فيها أنني امرأته الأولى والأخيرة.. كل لقاء بيننا كان يقتلعني من جذوري الفاسدة ويعدني أن يزرعني في تربة أطهر..

- تُذكّرينني بنبتة (مِسك الليل).

قالها لي مراد يومًا ونحن نتنزه في إحدى الحدائق مشيرًا للشجيرة البيضاء ذات الأزهار الأنبوبية بيضاء الشكل، فغلبتني طبيعتي الساخرة وقلت بتهكم:

- (اشمعنا)؟ أطرد البعوض مثلها؟

فابتسم وهو يداعب وجنتي بخفة ثم شبك أنامله بأناملي هامسًا:

- (مسك الليل) لا يفوح عطرها إلا ليلًا.. هكذا أشعر بكِ.. لا تهزمك ظلمة حزن ولا تقهرك عتمة يأس.. بل تزيد عطرك أثرًا..

صمت قليلًا ليتفرس في ملامحي وضحكته تعانق همسه:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

فاختنق صوتي بفيض عاطفتي:

- في كل مرة أنظر إليك أبحث عن هذا الجزء فيك.. الجزء الذي خبّأتَ فيه روحي.. أجل.. ما أظنني عدت سأجدها إلا لديك.

دخل حياتي في أشد لحظاتي ضعفًا وقد شعرت وقتها أن الدنيا كلها أعطتني ظهرها.. كيف كان يمكن أن أرفض فيض غيثه وأنا أكاد أموت عطشًا؟ خدعتني ابتسامة عاشقة كان يجيد رسمها، وشوقًا جارفًا في عينين محتالتين.. أنا التي صرت أكره لمسات الرجال أحببت لمساته هو.. تلك الطريقة التي يشبك فيها أصابعه بأصابعي كأنه يصرخ للدنيا كله أنني له وأنه لي.. أو التي يزيح بها خصلة شاردة عن وجنتي وراء أذني كأنه يقول لي (ارمِ الماضي كله خلف ظهرك).. أو التي يحتضن بها وجهي بين راحتيه كأنه يقول (نحن معًا فما لنا والناس؟).. قاسمته فرحه وجرحه.. لا أزال أذكر عناقه لي ليلًا أمام البحر وهو يحكي لي عن طفولته القاسية.. عن تجويف الألم في صدره الذي لن يُشبعه سوى الانتقام ممن ظلموه.. كان يخفي وجهه في صدري كأنه يلوذ بي من شياطين جحيمه.. كأنني وحدي منقذته! كذب؟ هل كان كل هذا كذبًا؟! حبه الذي أدفأني كعباءة لن تبلى؟! شوقه الذي كان ينبع من بئر لا ينضب؟! أسراره التي سكبها على صدري؟! همومه التي ألقى وزرها على كتفي؟! وعوده التي غرستني

فوق أعلى نجوم العشق؟! وأمانيّ التي صدقتها في عناقه؟! كل هذا كان خداعًا؟!

لم أنتبه أنني أستعيد ذكرياتي بصوتٌ مسموع إلا عندما غمغم عصمت:

- ما الذي تعنينه بالخداع؟

الغضب داخلي يتصاعد وكنت أظنني استطعت هزيمته طوال ذاك الوقت، فأضحك لأهتف بعصبية وأنا ألوح بذراعيّ:

- ألن تسألني أولًا كيف تزوجته؟ كيف قَبِلَ بي؟

يرمقني عصمت بنظرة طويلة كأنه يقرأ خباياي ثم يغمغم بحذر:

- كيف؟

تلسعني سيجارتي التي نسيتها مشتعلة بين أناملي فأطلق سبة عابرة وأنا أدهسها تحت قدمي، لكن عصمت يشعل لي واحدة أخرى يضعها مباشرة بين شفتي وكأنه أدرك أن ارتجافة أناملي المرتعدة قد تُسقطها من جديد.. أحاول تمالك نفسي وأنا أسير بضع خطوات مبتعدة..

- عندما سلمت أنني أحبه كنت أدرك أنني أحارب في أكثر

من جبهة.. كيف أصارحه بوضعي؟ ولو حدثت المعجزة ورضي هو بي كيف سيقبل به فوزي نصار زوجًا لي؛ خاصة وقد بدأ بعض الخطّاب يطرقون بابي.. رغم كل شيء كان يطمع في صهر يُرضي أطماعه.

- زواج؟ لكن.. كيف بعد..؟؟

يقاطعني بها عصمت بحرج؛ لكنني فهمت سؤاله لأردّ بابتسامة وقحة:

- سألته نفس السؤال الذي راودك، فأجابني أنه سيتدبر الأمر.. (قرص سحري) يدس للعريس في الشراب فلا يعرف كيف مضت ليلته، وفي الصباح يسهل تزييف (دليل الشرف)!

يبدو الاستنكار على ملامح عصمت، فأعطيه ظهري لأستطرد:

- تَقدم مراد لخطبتي فرفض فوزي رفضًا قاطعًا.. ولأول مرة وجدتني أقهر وحش خوفي من (فوزي) وأفكر في الهروب مع مراد كأنما منحني الحب عصًا سحرية ألانت لي الحديد وشقت لي الصخر.. حزمتُ حقيبتي وتركت بيت فوزي خلسة وقد صممت أن أكون لمراد مهما كان الثمن.. كنت مستعدة أن أعيش تحت قدميه ولو خادمة.. كان يكفيني المقابل أن يعيش قلبي آمنًا مطمئنًا أنه قد وجد

مأوى لأحلامه.

- هربتما؟ وضعتما فوزي أمام الأمر الواقع؟

ضحكتي العالية تخدش السكون حولنا وأنا ألتفت نحو عصمت بقولي:

- كنت طيبة مثلك هكذا.. ظننتني في تمثيلية قديمة سينتصر فيها الحب.. لم أكن أعرف أنني حقًّا في تمثيلية.. سينتصر فيها (الجوكر).

- تقصدين (فوزي)؟

- لا.. بل (مراد).. فوزي نَسِيَ أن أوراق اللعب تحتوي اثنين من (الجوكر).. أحدهما رمادي والآخر ملون.. وإن كان (فوزي) هو الجوكر الرمادي فمراد كان الآخر الذي يجيد التلون ببراعة حتى يصل لمبتغاه.

يبدو الفضول على وجه عصمت أكثر، فأتحرك لأجلس من جديد.. أرفع رأسي للسماء مغمضة عيني:

- رفض مراد فكرة هروبنا.. قال لي وقتها إن حبنا خلق للنور لا للظلام.. وأن حقنا يجب أن نأخذه بالأصول.. وأنني أستحق أن أرفع رأسي جواره لا أن أعيش تلوكني ألسنة الناس.. ترى كم كان جميلًا كلامه؟ تلومني لو صدقته؟! لو

عشقته أكثر وأنا أراه يعيدني وقتها لبيت فوزي نصار بنفسه، يقبّل جبيني ويمسح دموعي ويعدني أنه سيبذل ما بوسعه لأكون له ولو كان هذا آخر ما سيفعله في حياته.. وأننا سنتزوج برغبة فوزي نفسه وليس رغمًا عنه! ساعتها ظننته فارسًا نبيلًا يرجو معجزة القدر.. لم أكن أعرف أن الفارس يخفي مخالب ذئب.. والمعجزة لم تكن سوى خطة!

- خطة؟

- لن أثقل عليك بتفاصيل.. دعني أجعلك ترى الأمر كما رأيته وقتها.. كان مراد قد انقطع عن رؤيتي لأيام طويلة مكتفيًا بخطابات يرسلها لي من آن لآخر يخبرني فيها أنه على العهد وأننا قريبًا سنكون معًا.. يطلب مني الصبر ويعدني أن القادم أجمل.. لم أكن أصدقه.. كنت أظنها وعود عاشقين من ذاك النوع المدهون ليلًا بالزبد حتى إذا طلعت شمس النهار أذابته.. لكن الغريب أن الزبد بقي زبدًا! تصورا الشمس لم تزده إلا جمودًا!

يضحك عصمت لتشبيهي رغم اشتعال فضوله، فأبتسم بفتور وأنا أفتح عيني لأستقبل رد فعله على مفاجأتي:

- كان يومًا ربيعيًا صحوًا ذاك الذي استيقظتُ فيه من نومي لأجد فوزي على رأسي.. يبتسم ابتسامة (الفوز) التي أعرفها وهو يقول (ستتزوجين مراد)!

- معقول؟ ماذا فعل ليقنعه؟

- تصدقني لو قلت لك أنني لم أكترث وقتها بما قاله؟ ثرثرة مقتضبة وترهات لم تعنني في شيء عن مصالح مشتركة بينهما! أي مصالح قد تكون بين مراد وفوزي؟! لم أهتم.. ولماذا أهتم؟ بل وكيف أهتم وكل ما كان يعنيني وقتها أن المعجزة تحققت.. وأنني أخيرًا سأتحرر من عرين فوزي لأصير حرة في بساتين مراد.. حمقاء كنت! لم أنتبه أن القفص فقط تَغَير وبقي الوحش كما هو! لكن دعني أخبرك أولًا عن الفترة ما قبل زفافنا.. جنتي القصيرة على أرض الشياطين..

يرتجف جسدي رغمًا عني مستسلمًا لطعنات الحنين.. آه.. الحنين! ذاك الوحش الخبيث الذي يخدعنا بغلالة وردية شفافة يلقيها على عيوننا فننبهر بعطاياه ولا ننتبه إلا والمخلب القاسي يُنشب بين ضلوعنا!

- هل أحدثك عن ترتيبات ما قبل الزفاف؟ أسعد فترة قد تعيشها فتاة؟ عن اختيارنا لـ(عشنا الصغير) الذي سنكتب فيه أجمل قصة حب؟ عن شعوري بقرب التحرر وأنا أهيئ نفسي للعيش في بيت جديد مع رجل أعشقه ويعشقني؟ عن فرحتي المنقوصة وأنا أجلد نفسي كل يوم بصراعي.. هل أخبر مراد بما حدث لي؟ أم أستمع لنصيحة فوزي؟ هل

سيصدقني لو أخبرته؟ أم أن الخداع سيكون الطريق الأقصر هاهنا دون أن أسكب المزيد من دماء كبريائي؟

قضيت الليلة السابقة ليوم زفافنا في موقعي الأثير الذي صار هوسي تحت الفراش المقابل لفراش أمي في غرفة فوزي نصار والتي ما عاد يدخلها بعد وفاتها تشاؤمًا منها.. ولأول مرة وجدتني أحمدُ له هذا الصنيع، فقد ترك لي (إرث أمي) في الأنس بها وحدي..

وكأن جسدي لم يكبر.. وكأنني نفس الطفلة ذات العشرة أعوام أراقب الفراش بمزيج من خوف وأمل.. لا ينقصني سوى جسد أمي المريض بوجهها المتألم؛ وحتى هذا لم يبخل به خيال الذكرى.. ووجدتني أحدثها من مكاني تحت الفراش.. أستغفرها لذنب لم أرتكبه وأرجو منها غفرانًا لن أناله.. أكلمها عن مصيبتي.. عن حيرتي وأنا لا أعلم ماذا سأفعل غدًا مع مراد.. هل أخبره بالحقيقة وأضحي بما ينتظرني من حب؟ أم أخدعه؟ وهُيّئ إليّ أن وجهها يرمقني من بعيد بنظرتها الطيبة، تبتسم لي صامتة دامعة العينين، وأقسم لك.. أقسم لك.. أنني شعرت ساعتها أنها قامت وعانقتني.. بكت معي ولأجلي.. وأدركت وقتها أنني اتخذت قراري.. سأستمع لنصيحة فوزي.. ستكون كذبتي الوحيدة على مراد هي منجيتي.. ولن أكذب عليه بعدها أبدًا.

يهز عصمت رأسه مفكرًا كأنه يشاركني حيرتي التي احتلتني وقتها.. لكنني أنفصل عن العالم.. فيختفي وجه عصمت.. والحديقة من حولي.. لا أرى سوى أضواء.. أضواء كثيرة.. حفل كبير.. زحام من الوجوه من عرفته منها ومن لم أعرفه.. ثوب أبيض.. طرحة طويلة.. طويلة جدًّا سارت خلفي كظل ثانٍ.. وهو! هو مراد! حلمي الجميل الذي تَجَسّد كأجمل واقع.. عيناه الهائمتان تحلقان فوق ملامحي.. يقبّل وجنتيّ وهو يستقبلني أسفل الدرج في فيلّا فوزي نصار ببدلته البيضاء الأنيقة ليهمس في أذني بكلمتين.. كلمتين فقط.. كانتا لي وكأنهما غاية دنياي كلها (أنتِ لي)! لا أذكر أي شيء من تفاصيل الحفل بعدها فقد كنت أتراقص على النار بين شعورين متناقضين.. أحدهما أنني عروس تُزف لفرحة عمرها، والآخر أنني مجرد شاة تساق لذبحها.. ومن بعيد كانت نظرة فوزي نصار تحاصرني.. اقترب مني ليطبع على جبيني قبلة ثلجية.. ثم مال هامسًا على أذني (لا تقلقي.. ستجدين هديتي في درج الكومود بغرفتك).. فارتجفت ابتسامتي على وجهي وأنا أدرك أي هدية يقصدها، ورفعت إليه عينين حاقدتين حد الكراهية؛ فلولاه ما بدأت حياتي مع مراد بكذبة! لكن -ولا تعجب- كانتا ممتنتين له بغرابة وكيف لا؟ وقد كان هو وقتها ملاذي الأخير لنيل غنيمتي.. لا تندهش.. كثيرًا ما تختلط الأقنعة فلا تميز عدوًّا من صديق..

وأظن هذه كانت لعنة حياتي كلها!

أبتلع غصة بحلقي وأنا أسير مبتعدة أكثر.. أهرب لمزيد من عذوبة الذكرى:

- اختليت بمراد أخيرًا في عش حبنا.. خلع عني طرحتي لتندس أنامله بين خصلات شعري.. كانت من المرات النادرة التي رأيت فيها الصراع على حدقتيه يهدأ، فلا يبدو لي سوى نسيم عاطفته يحرك الشجر الكثيف بيننا.. تقوّسُ حاجبيه لم يعد يزعجني وقد صار يبدو لي كـ(جحر) آمن لـ(السنجاب) داخلي، ابتسامته ما عادت متلاعبة؛ بل معجونة بالحب لو نطقت لقالت إنني أول الكون وآخره..

ووجدتني أتذرع بأي عذر لأختلس طريقي نحو الكومود حيث هدية فوزي.. فتحته لألمح شريط الأقراص الذي بدا لي ساحري المنقذ.. تناولت منه واحدة بخفة ووضعتها في كأس العصير الخاص بمراد.. وعدت به إليه لأمنحه إياه شاعرة بقرب الخلاص.. غدًا تنتهي هذه المعركة.. وأتلقى عطايا الحب دون خوف.. لا بأس من خدعة صغيرة.. صحيح؟

- يا الله! أنتِ ترتجفين.. فايزة.. اجلسي.

ينتزعني بها عصمت من شرودي فأنتبه لذراعيه القويتين

تحيطان بي؛ بينما جسدي يكاد يتهاوى، لولا هذا الكرسي الذي أجلسني عليه ليطل من فوقي وجهه بملامحه القلقة:

- أنتِ بخير؟ توقفي عن الكلام لو كانت الذكرى تؤذيكِ إلى هذا الحد..

لكنني أهز رأسي بلا وعي وأنا أكمل الحكاية:

- وفي اللحظة الأخيرة.. وعندما كاد الكأس يصل لشفتيه وجدتني أرى طيف أمي.. وجدتها تفتح ذراعيها وتنطق أخيرًا.. (لا تلوثي نهر الحب بقطرة من خداع.. وإلا ستبقى تدنسه العمر كله).. ووجدتني أزيح الكأس بعنف لينكسر بدوي رهيب، رمقني مراد بنظرة مندهشة فاندفعت دون تحفظ أحكي له كل شيء.. كل شيء..

ينحني عصمت ليجلس على ركبته يربت على كتفيّ مهدئًا بقوله القلِق:

- يكفي هذا.. لا تخبريني بالمزيد.. تعالي نغير الموضوع.. تحبين الخروج الليلة لـ...؟

لكنني أقاطعه وقد صُمّت أذناي عن كل شيء.. فلم أعد أنتمي سوى لعالم الذكريات:

- صارحتُ مراد بكل شيء.. وأريته شريط الأقراص، ليدرك

ما كنت أنويه.. بقي لدقائق طويلة صامتًا وهو يحدجني بنظرات قتلتني ألف مرة.. جعلتني أندم على صراحتي.. وأخيرًا عاد لوجهه صراع شياطينه.. اقتربت منه لأحاول تهدئته؛ لكنه دفعني دفعة قوية أسقطتني أرضًا.. واختلطت صرختي بصرخاته.. كلانا غاضب بطريقته؛ لكن نتشارك الوجع! ولما استسلمت لبكائي الهادر وأنا أتحسس ثوبي الأبيض الذي كاد يتحول لـ(كفن).. وجدته يرفعني إليه.. يرج جسدي رجًا بين ذراعيه صارخًا:

- لماذا لم تخبريني قبل الليلة؟ لماذا؟

- خفت.. خفت أن أفقدك.. خفت أن تضيع مني فيضيع كل شيء.

- ولماذا لم تستمري في خطتك؟

عاود بها رجي بين ذراعيه فشعرت أن الأرض تميد بي وأغمضت عيني لأهتف بين دموعي:

- شَقّ على أن أكذب عليك أنت بالذات، وأنت الحقيقة الوحيدة النقية في حياتي.. خفت أن ألوث ما بيننا بكذبة.. فليبقَ كما هو طاهرًا دون دنس.. حتى لو انتهى الآن!

ظل يحدق فيّ لدقائق طويلة بعدها.. قبضتاه كجمرتين مشتعلتين على كتفيّ.. عيناه حمراوان كبوابتين للجحيم،

حتى خشيت أن يقتلني.. لكن ذراعيه تخاذلا أخيرًا ليعطيني ظهره ويغادر الغرفة بل والبيت كله.. وأيقنت ساعتها أنها النهاية.. خلعت ثوبي الأبيض وعلقته مكانه كمن يودع ميتًا لقبره للأبد.. ووجدتني أمارس عادتي من جديد في التسلل تحت الفراش.. فراش جديد هذه المرة.. تصوّرا أن تقضي عروس ليلة عرسها نائمة تحت الفراش لا فوقه.. وحدها ملطخة بالخيبة والخزي والعار.. كأنني سلّمت أنني لا تليق بي الحياة فوق الفراش كالأخريات، بل لا يناسبني إلا الاختباء والعتمة.. وفي الصباح استيقظت على رنين الهاتف فانتفضت مكاني.. تجاهلته مرتين برعب وأنا أشعر بالقرص الدائري للهاتف كدوامة تكاد تبتلعني؛ لكنني أجبت في الثالثة.. وعندما رفعت السماعة لأذني شعرتُ بها تزن أثقالًا.. كان فوزي يطمئن عليّ.. تدري ماذا قلت له؟

يفكر عصمت قليلًا ليرد:

- مممم.. دعيني أخمن.. أخبرتِه أن كل شيء على ما يرام.

- كيف عرفت؟

- يبدو أنني صرت أفهمك.

يقولها مشفقًا وهو يعتدل ليتخذ مجلسه جواري فأتنهد لأومئ برأسي بالإيجاب.. أمسح دموعي لأرسم ابتسامة على

وجهي:

- خفت من شماتته؟ ربما.. وربما تمنيت فقط لو يسمعني القدر فيجيب.. لو يكون كل شيء على ما يرام حقًّا.. لو يعود مراد ويعود معه الحلم.. والحب.. والعمر..

ابتسامتي تتحول لضحكة:

- العجيب أن القدر استجاب حقًّا! وعاد مراد.. أجل.. عاد ذاك المساء.. استقبلته شاحبة الملامح كأنني أنتظر حكم إعدامي على شفتيه.. حاولت قراءة الصراع المستعر على حدقتيه؛ لكن ملامحه بقيت جامدة.. لمحت عبر دموعي باندهاش هذا الجهاز بين يديه والذي يستخدم لملأ وتسجيل الأسطوانات.. ثم تلك الأسطوانة التي وضعها على القرص الدوار وبدأ التشغيل.. تعجبت فعلته وأنا أظنها مجرد أغنية لكن الصوت الذي انبعث منها أرجفني وبذر التنميل في جسدي كله.. لقد كان صوته.. صوت (الباشا) الذي انتهكني والذي بقي يؤرق كوابيسي لليالٍ طويلة.. يعترف بفعلته.. يبرئني ويعترف أنه كان رغمًا عني.. ويبدو من صوته الواهن أنه كان يتألم! لم أصدق أذني ورفعت عيني لمراد الذي قال كلمة واحدة عبر عينيه المظلمتين: (قتلته!)..

شهقت بعنف وأنا أغطي شفتي بكفي، ليردف: (لم يكن لفعلته عقاب أقل.. لا تخافي عليّ، سيبدو موته كحادث قدري

لسقوط سيارته عبر المنحدر.. أعرف أن هذا ينجيني من العقاب لكن صدقيني وددت لو تعرف الدنيا كلها أنني أخذت بثأري من ذاك الكلب!).

انهمرت دموعي كالسيل على صدره، فضمني إليه هامسًا: (هو اعترف لي ببراءتك.. أنا أجبرته أن يسجل هذا بصوته لتسمعيه أنتِ كي لا يبقى الماضي شوكة في ظهرنا)! خفقات قلبه العاصفة كانت تفضح ذاك البركان في صدره، والذي كنت أوقن أنه يخفيه كي لا يؤذيني.. وددت لو أهتف به أن يتكلم.. أن يصرخ.. أن يعبر عن كل ما يجيش في قلبه ويكتمه.. لكنني لم أفعل! كنت عاجزة حتى عن رفع رأسي إليه.. خائفة أن أفقد وطني الآمن بين ضلوعه؛ لكنه هو من رفع ذقني نحوه مردفًا بصوت مرتعش: (ارفعي رأسك ولا تخفضيه أبدًا.. ألم أخبركِ من قبل أنك كـ(مِسك الليل).. يفوح عبيره وسط الظلمة ولا يبالي).

يطلق عصمت آهة تعجب وقد بدا وكأنه صُدم بما حدث، فأضحك بعصبية وأنا أضع إحدى ساقيّ فوق الأخرى:

- هه؟ ما رأيك؟ تلومني بعدها لو صرت جاريته؟ لو رأيت العشق مجرد وصف هزيل لا يليق بشعوري به؟ لو رميت الدنيا كلها خلف ظهري فلم أعد أرى سواه؟ أنا التي كنت قبلَه أظن نفسي مجرد هامش على صفحة الحياة وجاء هو

ليُشعرني أنني كل الحياة! تلومني؟!

يهز عصمت رأسه نفيًا، وقد بدا تعبير غريب على ملامحه ليسألني باهتمام:

- ما الذي تغير بينكما؟ كيف وصلتما بعد كل هذا لما صار بينكما؟!

- يكفي هذا اليوم.

أقولها شاعرة أنني مستنزفة وأنا أقف مكاني؛ لكنه يهتف مبتسمًا بتردد لحوح:

- لا.. لا.. لا تشعلي فضولي هكذا وترحلي.. أخبريني فقط بخطوط عريضة.

أهز كتفيّ بمشاكسة وقد عدت لطبيعتي المتصنعة، لكنه يفجر قنبلته:

- كيف اكتشفتِ خداعه؟ وما علاقة هذا بـ(غزل)؟

لم يكد يذكرها حتى اشتعلت شراستي وأنا أكاد أنشب أظافري في وجهه:

- تعرفها؟ من أين تعرفها؟

- أنا أيضًا لي أسراري.

يقولها متخابثًا وهو يهز كتفيه، فينفجر وجهي بغضب أعجز عن كتمانه.. لولا شعوري بحاجتي إليه لصفعته على وجهه.. غزل! تلك اللعينة! كيف وصلت لـ(عصمت)؟

- ماذا أخبرتك؟ ماذا قالت لك عني؟

أهتف بها بحدة فيقترب مني قائلًا:

- أنا منحتك وعدي بالحماية هنا.. لا تخافي.. سأصدق ما تقولين ولن..

لكنني أبتعد عنه بنفور محاولة تمالك انفعالي، لأقاطع عبارته بابتسامة بدت شديدة التصنع مع طوفان الغضب على ملامحي:

- مفهوم.. مفهوم.. دعنا نكمل كلامنا فيما بعد.. أحتاج للاختلاء بنفسي قليلًا.

لم يُثقل عليّ ويستبقيني، فلم أعلم هل هو لطف منه بعد الماضي الذي تشاركناه.. أم هو ينتظر أن يستمع لما ستقوله (غزل) عني؟ اللعنة! لو صدقها عصمت فستكون نهايتي هنا!

***

النغمة الرابعة

(عمق الجرح لا يعني حدة النصل.. أحيانًا تقتلك مجرد النظرة لمن يمسكه)

غزل

لن أقف مكاني أنتظر المصير المحتوم! أقف عبر سور النافذة بخفة، أرى دلوًا كبيرًا يحوي سائل طلاء جوار الباب الموارب فأنحني لأحمله وأنظر لألمح ثلاثة منهم قادمين.

آخذ المبادرة لأفتح الباب بسرعة بقدمي وألقي بالدلو بما يحويه في وجوههم. المفاجأة تأتي لصالحي، فأستغل تخبطهم لأندفع راكضة في الاتجاه العكسي، أسمع صرخاتهم الغاضبة خلفي فأزيد من سرعة عدوي حتى أشعر أنني صرت وحدي.. لكنهم سيدركونني.. حتمًا سيفعلون!

الفكرة تراود ذهني بسرعة وأنا أنزع حذائي فأقذفه عبر النافذة القريبة ليسقط بعيدًا كأثر مضلل، ثم أتحرك لأختبئ داخل خزانة خشبية بالكاد استوعبت جسدي النحيل.. أكتم أنفاسي وأنا أسمعهم يقتربون وعبر الفُرجة الضيقة لباب الخزانة ألمحهم يقفزون من النافذة يطاردون أثري المضلل.

آثرت البقاء مكاني لدقائق حتى أستعيد أنفاسي الضائعة، يا الله! متى ستنتهي هذه الليلة؟ وكيف ستنتهي؟ هل سيمكنني الهروب حقًّا؟

تتعلق عيناي عبر النافذة بنخلة بعيدة.. بعيدة جدًّا.. يبدو لي سعفها كأنه يواسيني من خلف الجدار العالي، يناديني من

وراء الأفق، ويمد لي ذراعيه معانقًا فيفيض نهر الذكرى من جديد وأنا أتذكر رحلتي لمطروح مع غريب:

- واثقة أنتِ من مشاعرك يا ابنتي؟

قالتها لي عمتي صبيحة ذاك اليوم وهي تراني حائرة أمام خزانة ملابسي، فاختارت لي ثوبًا أزرق محتشمًا بأكمام طويلة له حزام عريض، تناولته منها راضية عن ذوقها في اختياره متحفظًا، فلم يغب عن ذهني اختلاف بيئة غريب المنغلقة هناك عن طبيعة الحياة المتحررة هنا.. ولما لاحظت عمتي ترددي في الإجابة عن السؤال أعادته، لأتنهد وأنا أجيبها مشيرة لوجهي في المرآة:

- ماذا ترين أنت؟ ألا تشعرين أن ملامحي أشرقت بحبه؟

قرأت في ملامحها صراعًا أعرفه وأعيشه معها منذ زمن بعيد.. بين قلبها الذي يتمنى لي السعادة التي حُرم هو منها، وبين عقلها الذي يخوّفها من تَبِعات هذا.. طالما كانت تقول لي (تابع العقل تحميه فطنته، ووحده تابع القلب مخذول).. لكنها ابتسمت وهي تحتضن وجهي براحتيها هامسة:

- طالما دعوتُ الله لك أن تدركي ما افتقدته أنا وألا يكون حظك مثل حظي.

وكاد خوفها ينتقل منها إليّ، لكنني طردته سريعًا فقد

اخترت بملء إرادتي أن أتبع قلبي.

العوامة تهتز بنا معلنة عن وقع خطوات على السقالة، ليصلنا صوت العم نوح يخبرنا أن غريب ينتظرنا بالخارج.

تركت لنوح مهمة نقل حقائبنا وهرعت نحو الخارج لأجد غريب يستقبلني بأكثر وجوهه سعادة.. اندفع نحوي ليحتضن كفي براحتيه وهو يتفحص ملامحي باشتياق..

- أين زهرتك؟

سؤاله ذكرني أني نسيت وضع زهرتي الحمراء كالعادة خلف أذني، لكنه بادرني وهو يتحرك ليقطف واحدة قريبة ثبتها بنفسه خلف أذني، شفتاه طبعتا أثرها على زهرتي مكانها بقبلة خفيفة فأسبلت جفني بخجل بينما يصلني صوته متراقصًا:

- لا أطيق صبرًا على السفر بكِ لبلدي.. كل ما هناك يشتاق التعرف إليكِ.. يهيأ إليّ أنني حدثت الجميع عنك حتى الطير والرمل والبحر والشجر.

- تظنني سأعجب عائلتك؟

- لا أظن أحدًا يراكِ إلا وينفتح قلبه لك.

قالها مطمئنًا وهو يربت على كفي برقة وقد بدا عالِمًا

بمخاوفي التي لم أنطقها، فانتقل يقينه إليّ وأنا أهديه أجمل ابتساماتي.

- العم نوح سيأتي معنا؟

سألني مندهشًا لأرد ببعض الخجل:

- هو لا يفارقنا أبدًا.. أشعر بالأمان في حضرته كأنه درعي أمام الدنيا.. يضايقك حضوره؟

- مممم.. تشعرين بالأمان في حضرته كأنه درعك أمام الدنيا.. هه؟

كررها وهو يقرص بها أذني بخفة، ومرحه المشاكس يمتزج بغيرة تَمَلُّكِية أحببتها منه هو بالذات، فتأوهت بدلال وشاكسته بدوري:

- هو في وظيفته حتى يأتي من يقنعني أنه في هذا الشأن أفضل منه.

- وأنا قبلت التحدي.

قالها مبتسمًا بعمق عاطفته وذراعه يضمني إليه، فرفعت إليه عينين مفعمتين بمزيج من أمل ورجاء.

جاءت عمتي لنبدأ رحلتنا.. أعجبني تواضعه الرقيق فلم يأنف من ركوب العم نوح جواره كما يفعل أغلب أبناء

طبقتنا؛ بل مضى يلاطفه ويرد على تساؤلاته الفضولية، وبدا لي أن شعور عمتي نحوه بالألفة يزداد وعيناها الطيبتان تمنحانه نظرات إعجاب تشبه نظراتي.. كانت قد أخبرتني أنها سألت جيراننا عنه فأثنوا عليه خيرًا ولا تجد ما يعيب خلقه أو مركزه.. ويبدو أنها كانت تزداد يقينًا بما سمعته.

وأغمضت عيني طوال الطريق أحاول التفكير في بئر السعادة الذي تفجرت ينابيعه فجأة داخل روحي، ورغمًا عني توجست خيفة من المستقبل: ما الذي يمكن أن يفعله بي الغد؟ فرحة كهذه ما الذي يفسدها؟

لكنني نفضت عني هواجسي وتركت قلبي يقودني هذه المرة!

واستقبلتنا اللافتة (مرحبًا بكم في مرسى مطروح) فخفق قلبي وأنا أنظر لعينيْ غريب عبر المرآة، غمزني بخفة وشفتاه ترسمان (أحبك) دون صوت فقرأها قلبي وتمنيت لو أردها له لكن مزيجًا من خجلي وخوفي منعني، وعرفت حينها أنني سأعشق مطروح للأبد!

- وصلنا.

قالها بمرح وهو يوقف السيارة أمام بيته الذي بدا لي بسيط التكوين بعيدًا عن تكلف الفلل والقصور في القاهرة..

ذو طابقين بشرفات عريضة نصف دائرية تخيلتني فيها معه تحت ضوء القمر، وسمعت صوت البحر من مكاني فالتفتت لأنظر للونه الفيروزي الجميل وقد بدا لي هاربًا من جنة أسطورية.

- بيتنا موقعه ممتاز.. صحيح أنه يضايقنا صيفًا بازدياد الزحام على (اللوكاندات) المجاورة؛ لكنه رائع طوال العام، وبالذات الآن مع حضوركم.

قالها غريب بلباقة ودودة محاولًا اجتذاب عمتي، وقد بدا لي أنه نجح في مقصده؛ فقد التفتت إليه باسمة وقد حملت عيناها سكينة انتقلت منها إليّ.

تقدم منا خادم بسيط الحال دخل بحقائبنا إلى الداخل ليقول غريب بحفاوة:

- سنقضي يومين هنا وبعدها تفضلا بقبول دعوة أخوالي لزيارتهم في (العلمين).. أخوالي من قبيلة (أولاد علي).. من أكبر القبائل هنا.. ورغم فخري بنسبهم وعاداتهم وتقاليدهم لكنني استقللت بحياتي هنا في المدينة مع أمي.

رمقته بنظرة فخر؛ لكنني شعرت بانتباهه فجأة، فالتفتت حيث ينظر، لأرتجف برهبة وأنا أميز المرأة التي اتشحت بكاملها بالسواد والتي خرجت من باب البيت متكئة على

عصاها.. أي قشعريرة سرَت في جسدي وعيناي ترتطمان بأحجار عينيها الصلبة!

جلبابها أسود، وشاحها أسود، تنتعل خفًّا أسود، وعلى ذقنها وشم لخط طويل على جانبيه نقطتان سوداوان، حتى تجاعيد وجهها بدت خائفة منها فانزوت رفيعة شاحبة على استحياء جوار عينيها وشفتيها؛ بينما بقيت بشرتها مشدودة كأنها تتحدى الزمن.. عيناها تتنازعان على المزيد من السواد خطّت به حدقتاها، ولا أدري لماذا شعرت رغم جمال ملامحها أنني أخاف نظرتها.. تحذرني.. تتوعدني.. أو لعلها.. تشفق عليّ! لم أفهم!

اندفع غريب ليقبل كفها ورأسها بحنان فارتعشت شفتاها بابتسامة وهي تتقدم منا لتصافح عمتي مرحبة بلكنتها البدوية:

- (يا مرحبًا وأهلين.. يا زين من جانا)

ثم صافحتني لتزداد ابتسامتها غرابة، وأنا أشعر بخفقات قلبها تكاد تكون مسموعة لنا كلنا كأنما سيقفز من صدرها إلينا!

دعانا (غريب) للدخول، فانشغلت بتفحص تفاصيل البيت البسيط، الصالة الواسعة التي حوت أرائك عريضة مغطاة

بفرش مخطط زاهي الألوان، البُسط الصوفية التي تناغمت ألوانها مع الفرش بذوق حيوي ساطع، النوافذ الكبيرة التي احتضنت أصص الزرع الأخضر بزهوره الملونة والتي أعادت لي الحنين لعوامتنا كأنني فارقتها من ألف عام.. وعلى مد البصر كان البحر الفيروزي يمتد كشريط بعيد مراوغ يعانق السماء آمنًا وصخوره العالية تبدو كحراس شداد تهدد من يحاول الاقتراب.

لم يخفَ عليّ شعور عمتي بالتوتر من نظرات أم غريب هي الأخرى؛ لكنه هو استطاع إدارة دفة الحوار لينغمس الجميع -حتى أنا- في حديث ودود مرح هزم قلقي مؤقتًا.

- أشعر أن والدتك لم تحبني.

قلتها له يومها وأنا أسير جواره على شاطئ البحر الذي خلا إلا منا في تلك الساعة كأنه خلق لنا وحدنا، فانعقد حاجباه وهو يتوقف مكانه يسألني:

- قالت شيئًا يضايقك؟

- لا.. هو مجرد إحساس.. بصراحة.. خائفة.

فلانت ملامحه وهو يأخذ نفسًا عميقًا ليهمس لي:

- أغمضي عينيك.

امتثلت لأمره، فشعرت بكفيه على خصري وتحفزت لما سيفعله، فهمس بنبرته الحانية بين أمر ورجاء:

- ثقي بي.

أومأت دون تردد وأنا أشعر بكفيه على خصري يوجهان حركتي، فبقيت على إغماضتي وأنا أستند بكفي على صدره بينما أشعر به يسير بي للخلف..

- ماذا تسمعين؟

أرهفت سمعي لأجيبه ولا أزال أتحرك:

- هدير البحر.

- وماذا؟

- زقزقة عصافير.

- وماذا أيضًا؟!

أرهفت سمعي أكثر وأكثر، ولا أفهم مغزى سؤاله.. حتى همست أخيرًا:

- قلبك! أسمع صوت دقاته.

- ماذا تظنينه يقول؟

تمنيت لحظتها لو أفتح عيني فأقرأ الجواب في عينيه؛

لكنني أحببت خصوصية هذه اللحظة بيننا وأنا مستسلمة للسير للخلف مغمضة العينين آمنة لدفء لمساته ومستأنسة بامتزاج أنفاسنا مع رائحة البحر.. وأجبت بأول ما خطر لي وشعرت به:

- يقول أنه لي.. وأنني له.. أنا (وطن الغريب).. وهو لأجلي (اعتنق الهوى وتعلم الغزل).

تزايدت خفقاته حد الجنون تحت أناملي لتطبع شفتاه قبلة ناعمة فوق جبيني مع همسه:

- إجابة نموذجية.

ضحكت كطفلة اجتازت اختبارها ونسيت ما كنت أقوله قبلها عن أمه، اصطدمت قدماي بصخرة خلفي فكدت أقع لكنني ما كدت أفتح عيني حتى حملني ليجلسني فوقها ويجلس جواري، ضمني إليه ليرفع وجهي نحوه هامسًا:

- لا أملك ضمانًا ألا تعرفي الخوف؛ لكنني أملك ذراعين تختبئين فيهما متى أردتِ الأمان، فلا يصيبك أذى إلا ويصيبني قبلك.. لا يمكنني أن أطمع ألا يغدر بنا الغد؛ لكنني سأهبك ما أملكه من الأمس واليوم.. لا أقدر أن أعدك ألا يجرحنا الواقع؛ لكنني أعدك أن أكون دومًا معك.. دومًا معك.. أنا أحبكِ.. أحبكِ حقًّا.. لست أدري كيف ولا متى غافلني قلبي

وفعلها.. لكنني أوقن أنك مهلكتي ومنجيتي.

دمعت عيناه ليتلقف قلبي صدق العاطفة بين حروفه، فاحتضنت كفه بين راحتيّ بكل ما أوتيت من قوة، ليشيح بوجهه للحظات كأنه هو الآخر عاجز عن استيعاب فيض مشاعره.. ثم التفت نحوي ليستعيد صوته مرحه الحنون:

- أمي تخاف عليّ فأنا وحيدها.. ولا أخفيكِ قولًا أنها كانت تريد تزويجي واحدة من بنات أخوالي، وكدت أطيعها، فلم يكن هناك دافع للرفض.. حتى التقيتك كـ(جنية بحر) سحرتني وجعلتني أؤمن ألا امرأة في الدنيا قادرة على ملء قلبي سواها.

- هذا يعني أنني لم أعجبها؟

- أمي تحبني.. وتحب كل ما أحبه.. امنحيها فقط بعض الوقت وستهيم بكِ حبًا مثلي.

رمقته بنظرة متشككة لكنه أجاد غرس اليقين في روحي وهو يشدد ضمته لي بينما يشير للشمس الغاربة هامسًا:

- طالما أحببت هذا المنظر لكنني كنت أشعر أنه ينقصه شيء..

ثم قبّل رأسي مردفًا بحب:

- الآن بكِ اكتمل.

قالها فابتسمت وأنا أتناول غصنًا جافًّا من الجوار انحنيت لأكتب به اسمينا على الرمال ثم رفعت إليه عينين مبتسمتين؛ لكنه قفز من على الصخرة ليبحث عن شيء ما، ثم وجد بغيته في قطعة معدنية حفر بها اسمي واسمه على الصخرة التي جلسنا فوقها.. (غزل وغريب) ليقول وهو يبسط كفي على صدره:

- ما يليق بنا لا يُكتَب على الرمال فتمحوه موجة؛ بل يُنقَش على الصخر فيبقى طوال العمر شاهدًا علينا.. سأسمي هذه (صخرة الوعد).. صخرتنا.. عساها لو فرقتنا الأيام -كما تخافين- تردك إليّ وتردني إليكِ.

كيف مرت بي الساعات بعدها؟ لا أذكر! إيماني به حملني فوق أعلى أمواج العشق فلم أعد أرى نفور أمه أو قلق عمتي أو خوفي أنا.. وشعرت أنني معه قادرة على غزو العالم لو أردنا!

لهذا أقبلت على أمه أتودد إليها لأجله.. تبادلت معها الحديث، ساعدتها في طهو الطعام الذي أصرت أن تُعده بنفسها رغم وجود خادمة.. ومنحتها هدية كنت قد أحضرتها لها من القاهرة، سوار ذهبي و(لوحة) رسمتها لمشهد النيل من شرفة عوامتنا.. وعَجِبْت أنها تجاهلت السوار تمامًا

رغم ارتفاع قيمته بينما ارتجف جسدها مع ترقرق الدموع في عينيها وهي ترى اللوحة، أناملها تحسست الورق فوق خطوط الشرفة بأشجار اللبلاب والزهور التي تنوعت ألوانها بين الأصفر والأبيض والأحمر، والنيل الذي تلألأ موجه تحت شمس ساطعة، والمركب الشراعي الذي بدا كأنه يطارد سراب الراحلين داعيًا إياهم أن يتمهلوا فلا يتركوه.. وسال خيط رفيع من الدموع على خدها زاد ارتباكي فهتفت منزعجة:

- آسفة.. هل ضايقتك بشيء؟

فرفعت عينيها نحوي بأغرب نظرة رأيتها وقد ظهر في عينيها كلام كثير.. لكنها فقط سألتني:

- أحببتِ ابني؟

ترددتُ بين إعلان عاطفتي توددًا إليها، أو إخفائها كي لا تتهمني بقلة الحياء؛ لكنها هي قرأتها في عيني على أي حال لألمح في نظرتها ألمًا لم أفهمه.. واستجمعت شجاعتي لأسألها بقوة لا تنقصني:

- ألستِ راضية عن هذه الزيجة؟

هنا شعرت بكف غريب الذي ظهر فجأة يشد على كفي لأفهم أنه قد حضر المشهد من أوله.. وبصوته يتأرجح بين حزم ورفق:

- لو لم تكن أمي راضية لما طلبت منك الحضور إلى هنا.. فلم أكن لأضعك أبدًا في موقف رفض وأنت التي يتمناها أي رجل.. أمي تعرف أنك الزوجة الوحيدة التي ستُرضيني.. وهي لا تبتغي في دنياها -بعد رضا ربها- إلا رضاي.. وكيف لا وهي التي عاشت عمرها كله لأجلي بعد وفاة أبي؟!

بدت لي كلماته كتعويذة روضت مشاعر المرأة التي كفكفت دمعها وهي تدعو لنا بابتسامة واهنة أن يسعدنا الله.

اليوم التالي كان أكثر تميزًا، وقد تهيأنا لزيارة أخواله؛ فقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها غريب بملابس البدو.. دار حول نفسه ليهتف بفخر رجولي وبلكنته البدوية:

- ما رأيك؟

كان قد ارتدى الثوب الأبيض البدوي وفوقه ما يسمونه بـ(الجبيرة) وهي محفظة من القماش لها حزام يعلق فوق الكتف الأيسر وتلف من تحت الإبط الأيمن..

- هذا نسميه (القبور)، جراب للمسدس معلق كما الجبيرة.

قالها لأبتسم بإعجاب وأنا أميز بقية تفاصيل ردائه، (صدرية) صوفية مطرزة بلا أكمام ولا أزرار، وسروال واسع يُرتدَى تحت الثوب، ونظرت لرأسه فإذا به يرتدي ما أسماه

(الشنة) وهي طاقية صوفية حمراء اللون تشبه الطربوش لكنها قصيرة وبلا أشرطة.

- كيف أبدو؟

سألني لأقهقه ضاحكة وأنا لا أصدق تبدّل هيئته، فابتسم وهو يقرص وجنتي قائلًا:

- انتظري حتى ترتدي هذا أنتِ الأخرى كي نضحك سويًا.

والتفتُّ لِمَا أعطاني إياه مندهشة من ثوب أسود لامع واسع شديد النعومة، قال لي إن اسمه (الشرش)، ومعه غطاء للرأس من قطعتين (الشمبر) و(الحطة).

غبت عن ناظريه قليلًا لأعود وقد ارتديت الثوب وغطيت شعري قائلة:

- ينقصه شيء؟

- صحيح.. شيء كهذا.

قالها وهو يلف حزامًا عريضًا من القماش على خصري مبتسمًا بقوله:

- يُستخدم لحفظ النقود والأشياء الصغيرة.. هكذا.. اكتمل (الساري البدوي).

دفعني برفق نحو مرآة قريبة فابتسمت وأنا أشعر أنني واحدة أخرى، جذبته ليقف جواري كأنني خشيت أن يفرقنا أي شيء ولو صورة مرآة..

اقتربت منا عمتي وقد نطقت ملامحها بفرحة لا تزال متشحة بخوفها كعادتها، ولمحت أمه تراقبنا من بعيد بتلك النظرة التي تحيرني؛ لكنها ابتسمت ابتسامة حقيقية وهي تقترب منا لتضم كل واحد منا بذراع فشعرت أنها صارت تبارك حبنا.

- هكذا نحن جاهزان لزيارة قبيلتنا..

قالها بلكنته البدوية التي لم يعد يخفيها كما كنا في القاهرة، فابتسمت وأنا أتأمله بفخر شاكرة لقلبي أنه ادخر خفقاته طوال عمري لرجل كهذا.

تنحنح ليتأكد من أن أمه لا تسمع، ليهمس لعمتي بما بدا كاستئذان مهذب:

- أخبرت عائلتي أننا سنتزوج قريبًا.. أعرف أنكِ طلبتِ تأجيل التفكير في الأمر؛ لكن تقاليدنا هنا ليست منفتحة كما في العاصمة.

تجهّم وجه عمتي وهي تنظر إليّ، فاعتذر وهو يشير لي بقوله:

- أرجوكِ لا تعتبري هذا توريطًا أو ما شابه.. أنا فقط لم أرد أن ينتقص أحدهم من قدرها ولو بنظرة.. فأنا أعلم بأهلي.

صمتت عمتي قليلًا تستوعب كلامه، ثم هزت رأسها باستسلام فشكرها وهو ينظر إليّ مردفًا بأمل شع من عينيه لعيني (عسانا نكون حقًّا متزوجين الزيارة القادمة).

وصلنا (العلمين) لنكمل بقية طريقنا بـ(الكارتة) التي جرها الحصان، ليستقبلنا خاله الأكبر (عواد) شيخ قبيلته.. ملامحه الصارمة لم تكتم حنانًا فطريًا وكرمًا فائضًا غمرنا به.. جذبني نمط حياتهم بعفويته.. بيوتهم التي بنوها من الطين الجاف، خيامهم الكبيرة، الفتيات في سني واللائي انهمكن في الطبخ على (ركية) النار وغزل (الحوايا) التي عرفت أنها أغطية ملونة من الصوف يغزلنها يدويًا من أصواف الأغنام.

نساء قبيلته كُنّ ينظرن إليّ بين استغراب وحسد وودّ.. فتجاهلت الأول والثاني واستسلمت لدفء الثالث.

يا الله! الآن وأنا أتذكر تلك الأيام أشعر وكأن كل يوم فيها يساوي عمرًا آخر.. كل تفاصيلها حلوة.. كحلاوة إحساسي بدنيا جديدة منحها إياي..

لا أزال أذكر وقتها ساعة ناداني من خارج خيمتي هاتفًا بحماسة:

- تعالي بسرعة.

استأذنت عمتي وخرجت إليه، ليحثني على السير خلفه وهو يكاد يركض معي نحو الجوار؛ حيث تَجَمّع الكثير من أفراد قبيلته حول شيء ما.. اقتربتُ أكثر لأميز ما يفعلونه، فاتسعت عيناي بصدمة!

كانت أول مرة أشاهد فيها ولادة طبيعية!

(غزال بري)!

تلاحقت أنفاسي وأنا أشهد ما رأيته وقتها.. (معجزة كونية) لحظة خروج حياة من حياة.. وروح من روح! ترنحتُ متأثرة بأنين الغزالة الأم فتخلى غريب عن حذره ليشد على كفي برفق وعيناه تسألان بقلق عن حالي؛ لكنني لم أكد أفتح شفتي لأرد حتى تعالت الصيحات الفرحة وهم يرفعون الغزال الوليد..

(نسميها غزل)

هتف بها (غريب) بسعادة وهو يخترق الحشود ليحمل الغزالة ويقربها مني فدمعت عيناي بفرحة مبهمة وأنا أحاول لمسها ثم طلبت منه أن يعيدها لأمها وأنا أشعر أنني صرت بهذه السرعة جزءًا من عالمه، أنني كهذا الغزال الصغير أولد

من جديد معه!

وانتهزنا خلوة صغيرة جمعتنا ساعة الغروب وقد جلسنا على الرمال الذهبية التي بدت لي -كحبه- بلا نهاية.. نظرت خلفي حيث البيوت الطينية وأبراج الحمام والخيام المنصوبة، ونظرت أمامي حيث الشمس التي منحتنا وعدها أن تعود مهما غابت، ونظرت جواري حيث هو، هو بعينيه العاشقتين وبدفء حضوره الذي يكفي وحده ليُشعرني أنه يضمني في عناق طويل آمن لن يجرحني فيه خوف ولا فقد، وابتسمت وقلتها لأول مرة (أحبك)؛ فشعرت أن اعترافي زلزل الأرض تحت قدمينا، وكأنني منحته أخيرًا فردوسه المفقود.. وامتد كفه ببطء شديد نحوي يمسد إبهامه معصمي بتلك الحركة الحميمية بيننا، قبل أن يعانق أناملي على الرمال التي بدت لي ساعتها مع السماء والشمس والنسيم المتراقص بيننا كشهود على عهد منحناه.. عهد بطول العمر!

- هنا في الخزانة!

أشهق بعنف والصوت الفظ يقتلعني من جمال ذكرياتي ويعيدني لواقعي، أرى أحدهم يفتح الباب فأصرخ خائفة وأنا أحاول التملص من بين ذراعيه، أقاومه بكل قوتي، أركل وأصفع وأخمش وجهه بأظافري؛ لكنه يدفعني ليصطدم

رأسي بجدار الخزانة وتتشوش الرؤية في عيني..

***

فايزة

- لا.. لا.. مستحيل.. لن أخرج من هنا.

أهتف بها رافضة وأنا أجلس على الفراش في غرفتي ليقول عصمت بلطف:

- ولمَ لا؟ يمكننا حضور عرض (لا ترافياتا) في دار الأوبرا الملكية.. لديّ صديق هناك يمكنه توفير (بنوار) لنا.

- لا.

- مسرحية (نجيب الريحاني) الجديدة إذن؟ يقولون إنها رائعة!

- لا.

- لم يبقَ سوى السينما.. نذهب للحفلة المسائية.

يقولها بإصرار فأهتف به بحدة راجية:

- لا يمكنني الخروج من هنا.. كلهم يسعون خلفي.

فيتنهد بحرارة وهو يجلس جواري ليربت على كتفي بقوله:

- أنا أتعهد لك بالحماية.. هنا أو في الخارج.. ثقي بي.

- وما يدريني أنك لن تخونني أنت الآخر؟! ربما تكون قد

استمعت لتخاريف (غزل) تلك عني؟

أصرخ به بعجز وأنا أقف مكاني، أكتف ساعديّ بحركة دفاعية، فيبدو الغضب على وجهه وهو يقف بدوره ليقول عاتبًا:

- كنت أظننا تجاوزنا مرحلة الثقة هذه منذ زمن!

أشيح بوجهي دون رد فأسمعه يردف:

- كنت فقط أريد الترويح عنكِ بعيدًا عن الجدران.. لكن لا بأس.. كما تحبين.

أراه يتحرك ليغادر، فأراقب ظهره بمزيج من حيرة وندم.. أناديه قبل أن يتجاوز عتبة الباب، فيقف مكانه دون أن ينظر إليّ.. أتوجه نحوه لأنظر لعينيه عبر غشاوة من دموعي:

- آسفة.. لم أقصد.. أنا أثق بك بالتأكيد.. لكن..

أمسح دموعي بظاهر كفي وأغتصب ضحكة مفتعلة قاطعة عبارتي؛ لكنه يبدو متفهمًا كالعادة لكل انفعالاتي فيقول بابتسامة مشفقة:

- كل ما أفعله هو لأجلك أنت في المقام الأول.

يخفق قلبي الغادر بحنين لذكرى جملة مماثلة تمامًا قالها لي (مراد) ذات يوم، فأفرك دبلته في إصبعي بقوة تكاد

تجرحني، هل يحبني عصمت؟ هل هذا هو السبب في قبوله مساعدتي؟ هل أخون مراد لو فكرت في التمادي معه أكثر؟

الخاطر الأخير يؤجج غضبي أكثر.. غضبي من نفسي ومن مراد ومن الدنيا كلها، لهذا أجدني بمنتهى العناد أتودد لعصمت بابتسامتي ذات الدلال:

- لهذا غيرت رأيي.. معك حق.. أنا أحتاج الخروج.. خذني حيث شئت.

لكن عينيه الذكيتين نبضتا بنظرة تعني (أنا أفهمك فلا تراوغي) رغم تحفظ قوله:

- بل اختاري أنتِ.

عاد إليّ خوفي وأنا أتمتم برهبة:

- دعنا من الأوبرا.. أعرف أن (مولانا) المعظم فاروق يحب حضور عروض تلك الفرقة.

يبدو متفهمًا لخوفي من ذكر (مولانا) فيبتسم بتسامح تاركًا لي القرار، أتنهد أخيرًا لأتمتم:

- ظلمة (السينما) تناسبني.. الظلام غلالة الستر وعطية القدر للهاربين.

لم يناقشني بل اكتفى بإيماءة من رأسه وهو يخبرني أنه

سينتظرني بالأسفل، بدلث ملابسي لأرتدي فستانًا أسود لامعًا ضيقًا يعانق منحنيات جسدي، ويبرز بشرتي الناعمة بلونها المغوي؛ فلا بياض شاحب ولا سمرة داكنة؛ بل هي الخمرية الحيوية التي تبعثر دقات القلب كما كان يصفها مراد.

مرادا مرادا من جديد مرادا! تبًا لكل هذه الذكريات التي لا تزال تكبلني بقيوده!

أطلق زفرة ساخطة مع زخات عطر كثيفة حلّقت حولي كغربان سوداء يشد كل منها طرفًا من ثوبي، أمشط شعري القصير، أراقب بتفحص تلك الشامة السوداء جوار شفتي والتي تمنحني المزيد من مظهر مغوٍ صار يرضيني.

أتوجه نحو عصمت الذي ينتظرني، ترمقني عيناه بنظرة متفحصة تزيد رضاي وأنا أتأبط ذراعه لنغادر، لكنني ما كدت أتجاوز الباب حتى تجمدت مكاني بخوف وقد هممت بأن أرجوه العودة، حدس داخلي يخبرني أن أمانيَّ ستتلاشى مع أول خطوة أخطوها للخارج، لكنه يربت على كفي وهو يشير بعينيه لسيارتين إحداهما خلف سيارته والأخرى أمامها ليقول مطمئنًا (معنا حراسة كافية).

أحاول قهر شعوري بالخوف وأنا أراه يفتح لي باب السيارة لأستقلها فيتخذ مجلسه جواري تاركًا للسائق مهمة القيادة،

تعبر بنا السيارة في «شارع الملك» ثم شارع «الملكة نازلي» في طريقها للسينما، فأحاول التشاغل بمراقبة وجوه الناس لعلي أنسى فيهم مأساتي؛ لكنني على العكس كنت أرى على كل وجه دمعة تشبه دمعتي ووجعًا يماثل وجعي.

نصل إلى السينما فأتأمل واجهتها حيث إعلان فيلم (أولاد الفقراء) لـ(يوسف وهبي) و(أمينة رزق).. أشعر بالخوف من زحام الجماهير حول شباك التذاكر لكن عصمت يشير لي مطمئنًا بالتذكرتين في يده قبل أن ندخل لنتحرك خلف الرجل الذي قادنا بـ(ببطاريته) لنتخذ مجلسنا، طالما أحببت تمثيل (يوسف وهبي)؛ لكنني كنت أخافه، شيء ما في ملامحه كان يرهبني رغم احترامي للقيم التي كان يقدمها في أعماله.. شعرت بالملل أول الفيلم وأنا أراه القصة التقليدية لمعاناة الفقراء وغدر الأقارب؛ لكن دقات قلبي بدأت في التصاعد وأنا أراقب خط سير الأحداث.. البطلة التي أصابها (السل) وأجمعَ الأطباء على استحالة شفائها، رجاؤها للبطل أن يرحمها ويخلصها من العذاب، وأخيرًا مشهده وهو يخنقها بيديه قبل أن يفر هاربًا!

يا الله! كأنني أعيش موت أمي من جديد! صوت نحيبي يخترق الصمت حولنا؛ فلا أشعر إلا باعتذارات عصمت وهو يجذبني ليخرجني من المكان (آسف جدًّا يا فايزة.. كان

يجب أن أعرف قصة الفيلم قبل أن ندخل.. تبًا.. لقد أفسدت مزاجك أكثر!).

كنت أشفق على شعوره بالذنب وهو يحاول قدر استطاعته تهدئتي، فأمسح دموعي وأنا أحاول تهدئة أنفاسي.. يفتح لنا السائق باب السيارة فنستقلها لتسير بنا قليلًا، لكن عصمت يبادرني بقوله:

- ما رأيك في التمشية قليلًا؟

أومئ له برأسي موافقة بشرود، فلا أنتبه إلا على صورة الأُسود المميزة لكوبري قصر النيل، أختلس نظرة لسيارتيْ الحراسة القريبتين خلفنا، أستمد منهما الأمان، ثم أسير جواره على الكوبري مختنقة بشرودي لأقول فجأة وكأنما ذكّرتني تماثيل الأسود:

- لا أحب الحيوانات.

- لماذا؟

- فوزي لم يكن يحبها.. يبدو أنه أورثني هذا! هل نرث الكره والحب من آبائنا كما نرث أموالهم وأوزارهم؟

أقولها بمرارة ساخرة فيُطرق بوجهه دون رد لأرمق صفحة النيل السوداء بنظرة قاتمة ناسبت قولي (ولا أحب النيل).

- وما السبب في هذا أيضًا؟

أهز كتفي دون جواب للحظات مستسلمة لسحر النسيم من حولي، خصلات شعري القصيرة تتقافز كنصال حادة على ملامحي كأنها تخدش بشرتي، لأتمتم بعدها بخفوت:

- كان شاهدًا على الخيانة.

- خيانة مراد؟

أحدجه بنظرة حادة للحظات ومزاجي الناري يشتعل للدرجة القصوى؛ لكنني أرضخ للوهن الذي نالني وأنا أعطي ظهري للنيل كأنني أهرب منه مستندة على السياج خلفي، مستسلمة لسيول الذكرى تجرفني في تيارها:

- عجبت لمن يسألون عن معنى السعادة.. يومًا ما كنت أستطيع لمسها.. شمها.. تذوقها.. وددت وقتها لو أخبرهم أن الجواب بسيط.. بسيط جدًّا.. معادلة شديدة السهولة.. أنا + هو = سعادة كاملة دون نقصان.. هكذا دون تعقيدات وفلسفة..

مراد لم يكن زوجي وحبيبي فحسب بل كان صديقي.. الوحيد الذي ائتمنته على أسرار ماضيّ كلها.. معه فقط تجرّأ (السنجاب) داخلي أن يغادر جحره.. معه لم أعد أكره ماضيًا ولا أملّ حاضرًا ولا أخاف غدًا؛ بل صرت أعشق عمري

كعشقي له، بعد زواجنا طلب منا فوزي نصار عدة مرات أن ننتقل للمُقام معه في الفيلّا، وخشيت أن يقبل مراد إرضاءً له؛ لما كان من مصالح مشتركة بينهما؛ لكن مراد لم يخيّب ظني.. رغم محاولاته التودد لفوزي نصار دومًا؛ إلا أنه في هذا الشأن بالذات كان صارمًا.. لم يخُض في ذكر الماضي معي منذ ما حدث أول زواجنا؛ لكن أفعاله كانت دومًا تخبرني أنه سيُبعدني عن كل ما يتعلق بدنس فوزي نصار حتى لو تلطخت قدماه هو به!

- لماذا رضي أن تتلطخ قدماه؟ أي مصالح مشتركة؟ ولماذا بقي هو على التودد له ما دام حصل على بغيته بالزواج منك؟

يسألني عصمت بحيرة فأطلق ضحكة عالية لفتت إلينا أنظار المارة التي تجاهلتها وأنا أغمض عيني، أعود بظهري للخلف أكثر وأكثر عبر السياج كأنني أرجو الغرق في النيل الأسود خلفي:

- كانت هذه هي التساؤلات المنطقية التي يجب أن تطرحها امرأة عاقلة.. لكنني وقتها ما كنت سوى امرأة عاشقة ثملة لا تزال يُسكرها خمر العشق، اكتفيت بمبررات مراد الواهية وقتها أن له عمله الخاص البعيد تمامًا عن فوزي نصار، وأن علاقته به لا تعدو مجرد (شعرة معاوية) يحافظ بها على

علاقته به كي لا ينالنا أذاه.. صدّقته كما صدقت قدَرًا جمعنا، ووثقت فيه ثقتي في نفسي... متى جاءت الصدمة؟ متى داهم الزلزال؟ متى أخرجت لي الدنيا لسانها وقرصت أذني مستهزئة بقولها (مغفلة! صدقتِ وهْم الحب بعدما غرّكِ نعيمه؟ ذوقي إذن جحيمه!).

لا أزال أذكر تلك الليلة الأخيرة بيننا قبل أن أكتشف خيانته، ليلة تشبه مثيلاتها من الليالي التي كان يشعرني فيها أنني ملكة بين ذراعيه، التي كنت أشعر من فرط حلاوتها أنها بطول عمري كله، والتي كنت أبتهل فيها أن أحمل طفلًا منه يكون لي معه الدنيا بما فيها..

استيقظت صبيحتها مستبشرة بحلم جميل رأيتني فيه أحمل توأمًا منه، ولدين يشبهانه تمامًا، ووقعت تحت تأثير الحلم طيلة النهار حتى غربت الشمس، فلم أطق صبرًا حتى عودة مراد وأردت لو ألتقيه وأخبره عن تفاصيل حلمي، وأتخذها فرصة لأحدثه بشأن زيارتنا لطبيب كي نرى سبب تأخر الحمل.. وكنت أعرف مكانه ليلتها في فيلّا فوزي نصار، فذهبت رغم علمي أنه لا يحبذ وجودي هناك إلا في أضيق الحدود.. وصلت البيت الذي احتضن أول خطوات عمري وخنق آخرها، وغالبت شعوري بالنفور منه.. رأيت الأضواء المبهرة في الحديقة فعلمت أن فوزي يعدّ واحدًا من حفلاته

التي تضم النخبة من الطبقة العليا، استقبلتني الخادمة لتخبرني أن الحفل ليلتها كان على شرف (السير سيمون).. لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه فقد اكتسب الرجل أهمية قصوى لدى فوزي نصار منذ شهور عديدة قبل زواجي من مراد باعتباره كان المستشار الخفي والصديق المقرب للسفير الإنجليزي في القاهرة، وسمعت مراد يحدّث فوزي عنه بعدها بضع مرات لكنني لم أكن أهتم بكل هذا.. بحثت عن مراد حولي وسط الضيوف شاعرة ببعض الخجل وهم يرمقونني بنظراتهم المستنكرة من ثوبي البسيط الذي أرتديه والذي لم يكن يناسب حفلًا فخمًا كهذا؛ لكنني رميت كل هذا خلف ظهري وأنا أبحث عن مراد.. لمحت فوزي من بعيد يشير لي بكأسه أن أقترب، فاستسلمت بطبيعتي الجبانة كالعادة، واقتربت منه ليعرفني بالرجل أمامه فإذا به (سيمون) نفسه! رفع الرجل كفي ليلثمه بنظرة رجولية تقييمية أَسَرَت قشعريرة في عروقي، وهُيئ إليّ أن قُبلته أخذت وقتًا أكثر مما ينبغي أو ربما هذا ما زرعه خوفي داخلي.

- فايزة ابنتي.

قالها فوزي نصار بالإنجليزية بنظرة ظفر أعرفها، وقد بدا لي أنه لمح في عيني الرجل ما لمحته أنا قبلها، فسحبت كفي

منه؛ لكنه تشبث به لثانية اعتصرت قلبي بخوف مبهم ثم حرره ليقول بالإنجليزية:

- الملكة ذات القلب الأحمر.

قالها وهو يتناول إحدى أوراق اللعب من على المائدة خلفه بنفس الشكل؛ فاتسعت ابتسامة فوزي الظافرة؛ بينما شهقت أنا بخوف وأنا أرى سيمون يحشر الورقة برقة خادعة تحت حمالة ثوبي؛ فكأنها أفعى لدغتني، لأتبين بصعوبة معنى كلماته بعدها عن كونه لن يخشى الخسارة هذه الليلة فـ(الملكة ذات القلب الأحمر) ستمنحه الحظ! ووجدتني أغالب طبيعتي الجبانة بعسر وأنا أتراجع للخلف أبحث بعيني عن مراد معتذرة بتمتمة مرتبكة؛ لكن فوزي رمقني بنظرة زاجرة غرستني مكاني كأنما ثبتت قدمي بمسامير.

صيحة خافتة مستنكرة يطلقها عصمت، وتجبرني أن أفتح عيني لأتنهد بحرارة:

- لا تلم ضعفي أمامه فأنا شببت عليه ووقتها كان جزءًا من تكويني.. بعد كل هذه السنوات لم أفهم وصفًا محددًا لحقيقة شعوري نحو فوزي.. قضيت أول سنوات عمري أتلهف لنظرة فخورة منه، لاهتمام يمنحه لي، فلم يفارقني شعوري معه أنني متسولة على أرصفته، وكبرت قليلًا ليمتزج شعوري هذا بالخوف من بطشه، وكلما كنت أكبر كان يكبر داخلي جبني

أمامه هو بالذات.. المرة الوحيدة التي هزمت فيها هذا الجبن كانت عندما قررت الهرب مع مراد قبل زواجنا، وحتى هذه لم أكن مستعدة لتقبل تَبِعاتها وحدي، تمامًا كما وقفت تلك الليلة أمام (سيمون) كعصفور مبتل يرتجف أنتظر مراد كي يأتي ويحملني بعيدًا عن كل هذا!

- لا تقولي إنه أتى في تلك اللحظة ليلمح ما فعله سيمون بك فيظن بكِ سوءًا.

يقولها عصمت باستياء، فأطلق ضحكة عالية ناقضت لمعة الدموع في عيني وأنا أجيبه ساخرة:

- لا! لا! صحيح أن حياتي تصلح كفيلم سينمائي من هؤلاء التي يظهر فيها البطل في التوقيت الخاطئ.. لكن هذا المشهد لم يكن في السيناريو.. مراد لم يرنا لأنه ببساطة كان مشغولًا! كان جالسًا على (البار) البعيد في زاوية البهو يعطينا ظهره، كدت أشهق بارتياح عندما وجدته؛ لكن عينيّ تجمدتا أمام تلك الفاتنة التي اصطدمت به في جلسته وهي تمر جواره.. كاد الموقف يمر طبيعيًا إلا على امرأة مهووسة بتفاصيله مثلي.. امرأة علّمها فوزي نصار منذ زمن بعيد كيف تقرأ حركات الجسد؛ فقد وجدته يحك أذنه بهذه الطريقة عندما يتوتر، فاحتدت نظراتي الصقرية أكثر لأرى أصابع المرأة الماهرة تدس له شيئًا ما في جيب بدلته ثم تعاود

سيرها كأنها لم تفعل شيئًا.. بقيت مصدومة في مكاني وأنا أراه بعد ثوان يتظاهر بإخراج الورقة من جيبه بعفوية، يقرأها ليعيدها مكانها بخفة، وأخيرًا يستدير نحوي ولا أعرف أي عزيمة امتلكتها في هذه اللحظة لأتظاهر بأنني لم ألاحظ شيئًا؛ خاصة وعيناه تنضحان بغضب هادر وهو يراني بين (سيمون) و(فوزي). قفز من مكانه بسرعة ليتوجه نحوي بخطوات راكضة ثم اشتد ذراعه على خصري بحركة متملكة وهو يجذبني نحوه هاتفًا بقلق (ما الأمر؟ لماذا أتيتِ؟)

- وهل تحتاج ابنتي سببًا لزيارتي؟

هتف بها فوزي بنبرة متحدية، لتشتد ملامح مراد أكثر؛ حتى ظننته سيتشاجر معه؛ لكنه كظم غيظه كما بدا وهو يبتعد بي معتذرًا لـ(سيمون) و(فوزي) بكلمات مبهمة ومعلنًا بنبرة حاسمة أننا لن نستطيع البقاء أطول.. ولمحتُ بطرف عيني نظرة ضيق من (سيمون).

- لماذا أتيتِ؟

كرر مراد سؤاله وهو يقود بي سيارته نحو بيتنا، فابتلعت غصة حلقي وأنا لا أزال مشتتة فيما رأيته؛ لكنني أخبرته عن شعوري بعد الحلم وعدم قدرتي على الصبر كي أخبره بما بدا لي كبشارة خير، وعن رغبتي في زيارة طبيب لأجل الحمل..

فأتى جوابه صادمًا (ليس بعد، لا يزال العمر في أوله؛ فلماذا نُشقي أنفسنا بمسئولية الأطفال من الآن؟)

ويبدو أنني لم أستطع هزيمة الارتياع الذي ذبح ملامحي وقتها فقد ظهر بعض الإشفاق على ملامحه وهو يوقف السيارة أمام بيتنا، أمسك كفي بشدة ليقبله فيما بدا كاعتذار ولم يكد يختلي بي في غرفة نومنا حتى احتضن وجهي براحتيه هامسًا: (ثقي بي حبيبتي، أنا أفكر فيما هو الأصلح لكلينا!)

هززت رأسي محتجزة طوفان الدموع في عيني، فعاد يسألني بحذر: (ضايقك شيء هناك؟)

ساعتها انتبه هو لورقة الكوتشينة التي كانت لا تزال تحت حمالة ثوبي، واحترقت عيناه بسؤاله الغاضب.. ولم أكد أنتبه بدوري لما أثار غضبه، حتى انتزعتها من مكانها لألقيها جانبًا بازدراء متمتمة (لم يحدث شيء!)

لكنه بدا وكأنه قرأ ما حدث على ملامحي ليحتقن وجهه للحظات أخافتني، وقد بدا أنه يبذل مجهودًا خارقًا ليتمالك غضبه.. أعطاني ظهره لدقيقة أخرى مرت عليّ كسنوات، قبل أن يلتفت لي بهمسه: (يومًا ما سأقطع يده التي امتدت عليكِ).

كم كان غضبه وغيرته حقيقيين للغاية؛ حتى أنني كدت أنسى هواجسي وأسأله بصراحة عن تفسير ما رأيته هناك؛ لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة وأنا أسترضيه باعتذاري: (كان خطئي من البداية أن ذهبت لفيلّا فوزي)؛ لكنه اقترب مني ليعانقني بقوة ناثرًا قبلاته الناعمة فوق ملامحي بهمسه (قريبًا ينتهي كل هذا.. قريبًا جدًّا).

همسه كان شديد الخفوت حتى أنني شككت أني سمعته، لم أسأله عما يعنيه فقد كنت مشغولة بأمر آخر؛ الورقة في جيب بدلته، تلك التي تفقدتها بعد نومه لأفتحها وأقرأ ما فيها (غدًا.. السادسة مساء.. العوامة.. لا تتأخر.. الأمر ضروري).

- تبًّا! كان يخونك مع تلك المرأة حقًّا؟؟

يقطع بها عصمت سيل ذكرياتي فأبتسم وأنا أرد بنبرة ذبيحة:

- تعرف أنني بعدما أدركت الحقيقة تمنيت لو كان الأمر هكذا؟ لو كان فقط يخونني مع أخرى؟ كنت أملك له من الحب في قلبي ما كان يرضيني أن أقتسمه مع أخرى أو حتى أتركه لها لو كان هذا سيُسعده! لا أعرف وصفًا لما كان يملأ قلبي نحوه سوى أنني حقًّا كنت أحبه أكثر من نفسي دون مبالغة.. لكن أن أعلم أنني كنت بهذا الرخص.. أنني لم

أكن سوى درجة سلم داس فوقها ليصعد ولن يتذكرها عندما يصير بالأعلى، فهي ستكون دومًا بالأسفل.. فهو ما لم أستطع المسامحة فيه!

- وماذا كانت الحقيقة إذن؟

يقولها عصمت بنظرة مشفقة، فأعاود إغماض عيني مستسلمة لما بقي من كابوس الذكرى:

- كنت أعرف عنوان عوامته.. لم أشأ أن أتتبعه خشية أن يكتشف صوت خطواتي فوق سقالتها؛ لهذا ذهبت قبل الموعد مستخدمة المفتاح الاحتياطي، قبعت في الغرفة الداخلية وتلك المرة أيضًا -للعجب- احتواني مخبئي المفضل تحت الفراش! انتظرت حتى سمعت صوت الخطوات القادمة.. كان مراد ثم تبعه أحد الرجال.. لم أتمكن من رؤيته بوضوح من مكمني، فقط لمحت حذاءه اللامع الأنيق بلونه الأسود، وبدت لي لهجته شديدة الصرامة واشية بنفوذه:

- (السرايا) مقلوبة! نحتاج لمعلومات بسرعة.. مولانا يتابع الأمر بنفسه.. أنت تعرف أن مصر مرتبطة بـ(بريطانيا) بمعاهدة لندن منذ عام ١٩٣٦ التي تنص على تحالفنا مع إنجلترا في حالة قيامها بالحرب، والآن نحن ننتظر قريبًا معركة وشيكة بين دول (الحلفاء): إنجلترا وفرنسا وأمريكا، وبين دول (المحور): ألمانيا وإيطاليا واليابان.. معركة لن

يكون لنا فيها ناقة ولا جمل؛ لكن لو وقعت على أرضنا فلن نستطيع التزام الحياد، وسنكون مجبورين ظاهريًّا على إظهار التحالف مع الإنجليز.

- أعرف.. كما أعرف أن مولانا وأغلبية قوى الشعب يضمرون تأييدهم لـ(ألمانيا) من منطلق (عدو عدوي صديقي)، المصريون يطمحون أن تهزم ألمانيا إنجلترا فيخرج الإنجليز من مصر.

- بالضبط.. ولا ينفي هذا توقعنا أن نستبدل احتلالًا بآخر.. نطرد الإنجليز فنصطدم بالألمان؛ لكننا نسعى خطوة خطوة لتقوية جيشنا الذي عَمِدَ الإنجليز لإضعافه طوال هذه السنوات لعلنا نتمكن من ردع أي احتلال في المستقبل من أي دولة.. ولهذا دسسناك وسط وكر (فوزي نصار)؛ حيث تستضيف مائدته كبار رجال الإنجليز الذين أعماهم داء المقامرة.

- أجل.. على المائدة الخضراء بعدما تسطو نشوة الفوز على العقول يسهل استدراج المعلومات.. ولا أستبعد أن يكون فوزي نفسه جاسوسًا للإنجليز.

- لماذا انصرفت مبكرًا بالأمس؟ كانت فرصتك لنعلم من (سيمون) أي معلومة بشأن الحرب القادمة!

- فايزة حضرت فجأة واضطررت للخروج بها.

- لماذا جاءت؟! هل هي متورطة معهم؟

- لا.. لا.. هي بعيدة عن كل شيء.

- مرادا لست بحاجة لأخبرك عن خطورة دورك هناك.. نحن دعمناك لتكسب ثقة فوزي نصار وسهّلنا مرور صفقة الأسلحة المرة السابقة لرجال (سيمون) عبر الصحراء بمساعدة أفراد قبيلتك في مطروح.. هذا هو ما جعل فوزي يوافق على زواجك من ابنته طامعًا في المزيد من مساعدة قبيلتك.. زواجك من فايزة ليس إلا خطوة لتقترب أكثر من أبيها.. أو بالأدق.. ضيوفه المهمين في ليالي السمر.. أنصحك ألا تتورط معها أكثر.. لو نسيت التزامك نحو الملك و(السراي)؛ فلا تنسَ ثأر أبيك لدى فوزي، فوزي الذي كان سببًا في موته.

كانت المعلومات تهوي على عقلي كالشظايا وعلى قلبي كالسياط.. ساعتها فهمت.. فهمت لماذا تقرّب مراد مني وأنا الحمقاء ظننتها صدفة.. لماذا رفض أن نهرب لنتزوج بعيدًا عن فوزي.. لماذا وافق فوزي بعدها على زواجنا وطبيعة المصالح المشتركة بينهما.. لماذا أصر مراد أن يبعدني عن فوزي مع توطيد علاقته هو به.. ولماذا رفض أمر حملي بطفل منه!

فوزي كان سببًا في موت والد مراد.. خاتمه ذو الفص الأسود المفقود!

طُعم؟! أنا كنت مجرد طُعم لاصطياد السمكة الفاسدة!

لست مجرد طُعم بل... قربان لمذبح الانتقام!

يطلق عصمت صفيرًا قصيرًا وملامحه المصدومة تغني عن أي كلام، فأبتسم وصوتي المتحشرج يشبه البكاء:

- أحسست ساعتها أنني متّ! نحن لا نموت فقط عندما تنقطع أنفاسنا، نحن نموت عندما تختنق أرواحنا داخل جسد أجوف، عندما تعجز الدموع عن منحنا الراحة، يعجز الصراخ عن منحنا السلوى، عندما يعجز الزمن عن منحنا العوض، فيبقى الألم.. فقط الألم، الألم الذي من فيضه تود لو تمنحه لغيرك لعلك فقط تزيح عن كاهلك بعضه.. لن أصدع رأسك بكلام كثير عن صدمة قلبي وقتها، فأظنك تتخيل المأساة، مأساة أن يبقى (السنجاب) يبحث طوال عمره عن جحر يؤويه، وعندما يأمن لأحدها يجده مليئًا بالأفاعي!

شعرت بأنني كرة تركلها أقدامهم القذرة دون اكتراث بمن سيمزقها أولًا.. بقيت مكاني تحت الفراش حتى بعدما اهتزت العوامة بخطواتهم الثقيلة المغادرة، وبقيت هكذا في الظلام وحدي لوقت لم أعلمه.. بكيت كما لم أبكِ من قبلُ حتى

شعرتُ أنني نزفت روحي نفسها فما عاد سوى الخواء داخلي؛ لكن صرخة داخلي انتفضت معلنة أنني لن أسمح لهم بالمزيد من التلاعب، أنني لن أعود ضعيفة؛ فهذا العالم لا يعترف سوى بالقوة.. أنني سأستغل كل درس علمه لي (فوزي نصار) كي أسحقهم جميعًا، وأنني سأثأر لكل خفقة عشق منحتها للخائن (مراد).. وأظنني نجحت.

يرمقني عصمت بنظرة مشفقة ثم ينظر في ساعته قائلًا:

- تأخر الوقت.. الجو صار باردًا.. دعينا نعود.

فأنظر لصفحة النيل الأسود خلفي بنظرة مودعة، ثم أتأبط ذراع عصمت لنغادر.. الشرود يبتلعني طوال الطريق حتى نعود، يودعني عصمت على باب غرفتي بقوله:

- لم تكن رحلة موفقة.. وددت لو نجحت في التسرية عنك.

- لا عليك.. لا أظن مثلي قد تستريح يومًا.

- سأبقى ساهرًا في غرفتي لو احتجتِ شيئًا.

أبتسم له بامتنان ثم أغلق الباب، أتوجه نحو مرآتي لأبدل ملابسي شاعرة أنني مستنزفة.. لكنني ما كدت أنظر حتى اصطدمت بالشخص الذي يشاركني الصورة.. مراد!

أتجمد مكاني وأنا عاجزة حتى عن الصراخ كي أطلب

النجدة من عصمت، فقط صوتي المتحشرج يجد بعض الحروف:

- كيف؟

يقترب أكثر فألتفت نحوه ببطء لتصرعني هذه النظرة العاشقة في عينيه.. نفس النظرة التي كانت تذيبني أيام عشقنا الأولى!

يقترب أكثر وأكثر فأرتجف شوقًا و.. رعبًا!

- مستحيل.. مستحيل.. أنت.. ميت!

أكررها كتعويذة ستحميني وأنا أعانق نفسي بقوة في وضع حمائي؛ لكنني ما كدت أشعر بلمسته الباردة على كتفيّ حتى دفعته بقوة، أجد صوتي أخيرًا فأصرخ باسم عصمت.. يحاول شبحه الإمساك بي لكنني أتملص من بين ذراعيه بكل ما أوتيت من قوة.. أحاول الوصول للباب لكن شبحه يحول بيني وبينه، فأنحني لأنزل تحت الفراش، أزحف لأبعد مدى ولا أزال أصرخ باسم عصمت..

أشعر باليد التي تمتد لي فأصفعها بقوة وأنا أظنها يد مراد لكن وجه عصمت يطل منحنيًا هاتفًا بقلق:

- لماذا تصرخين هكذا تحت الفراش؟

- مراد.. شبح مراد.. هنا.

يُطرق عصمت برأسه للحظات ثم يعاود مد يده لي قائلًا برفق:

- تعالي.. لا تخافي.

أتردد قليلًا ثم أغادر مخبئي، أرمق الغرفة التي خلت إلا من كلينا بدهشة انقلبت لرعب وأنا ألتفت نحو عصمت صارخة:

- شبحه ظهر لي! لم يبقَ سوى هذا! هل يريد الانتقام مني؟! هل سيكون هذا عقابي لأني.. قتلته؟!

***

النغمة الخامسة

(يُحكى أن لؤلؤة بكت عندما تهشمت محارتها.. لم تكن تعلم أن بعض الثمار تحتاج أن تنكسر قشرتها كي يبدو جمال باطنها)

غزل

- غريب! أين أنت؟

صرخت بها روحي دون صوت، فكأنما منحني اسمه القوة الكافية لأقاوم السقوط، أصابع الرجل الغليظة تنغرس في لحم ذراعي وقد غره إعيائي، فأتظاهر بالإغماء لأسمعه ينادي طالبًا المساعدة؛ لكنني أنتهز أول فرصة لأغافله بركلة مفاجئة بين ساقيه جعلت عينيه تجحظان بألم ومنحتني فرصة للتملص من بين ذراعيه والركض من جديد نحو أقرب غرفة قابلتها والتي أغلقها الآن بالمفتاح وأنا أكاد أفقد وعيي رعبًا..

الغرفة بلا نوافذ.. لا.. بل هناك.. لكنها شديدة الارتفاع لن أصل إليها حتى ولو ارتفعت فوق أحد المقاعد.

تبًا! الآن فقط يمكنني الاستسلام لليأس بضمير مستريح.. ها هي ذي خطواتهم الثقيلة بالخارج تكاد ترج الأرض تحت قدمي.. صفعاتهم على الباب تكاد تكسره فوقي.. أتقدم لأدفع المنضدة الثقيلة فأضعها خلف الباب لعلها تمنحني المزيد من الوقت قبل أن يتمكنوا من اقتحامه.. لكن ماذا أنتظر؟ أي معجزة ستنقذني من بين أيديهم؟

أبحث وسط الغرفة عن أي شيء قد يساعدني.. لكن فراغها

الأسود يسخر من أملي!

أجلس مكاني على الأرض.. طالما أحببت هذه الجلسة وأنا أقول لنفسي أنها تحميني من خطر السقوط.. فمالي الآن أشعر أنني أسقط؟! أسقط حتى وأنا جالسة..

لا تزال صرخاتهم وأصوات قبضاتهم الثقيلة على باب الغرفة تمنحني شارة النهاية فأتكور في جلستي، أحتضن ركبتي المرفوعتين، أنظر للنافذة العالية بأمل كسيح وقد بدأ ضوء الفجر يغازلها على استحياء معلنًا نهاية هذه الليلة.. وربما نهايتي أنا أيضًا..

دموعي تغرق وجهي فأمسحها بأنامل مرتجفة وأنا أحاول التشبث بما بقي من فيض ذكرياتي أقاوم به خوفي مما يحد..

تزوجت غريب! تحقق الحلم وانهارت كل الحواجز بيننا كأنما منحني القدر نصيب الفرح الذي ادخره لي فجأة، فكان أكرم مما تصورت.. تزوجته في القاهرة ووعدني بزفاف آخر وسط قبيلته في مطروح!

ما زالت ذكرى ليلة زفافنا طازجة برائحة الحب الذي ما عرفته في حياتي لرجل سواه.. بنكهة الوعد الذي منحني إياه أن نبقى طوال العمر معًا.. كم كنت جميلة ليلتها بثوب

الزفاف الذي أصرت عمتي أن نرسل في طلبه من (باريس)، طرحة الثوب التي طرزتها أم غريب بنفسها؛ بل وألبستني إياها باهتمام لكن نظرتها الغريبة نحوي لم تختفِ، خاتم ماسي لم يكن أفضل ما رأته عيني وسط طبقتي المخملية؛ لكن قلبي رآه أثمن ما امتلكته، حذائي ذو الكعب العالي الذي قارب بين طولينا والذي ثُقت لخلعه سريعًا عندما كنا وحدنا، فقد كان السبب الوحيد لأشكر قصر قامتي؛ هو أن لي مكانًا مميزًا على صدره، بين ضلوعه، عندما يعانقني فكأنما تُقبّل دقات قلبه كل رمش من رموشي.. وتلقي على جفنيّ أروع قصائد الغزل.

كم مر بنا من عمر معًا؟ ليس من العدل أن يحسب المرء أيامه السعيدة التي تركض فيها عقارب الساعات بشقاوة طفل هانئ لا يمل.. أيامٌ مضت بنا كأننا نحلق في سماء بلا غيوم، فقط حب.. وحب.. وحب!

لا أزال أذكر مشهدنا وهو يتملكني أول مرة ليرفع رايته فوق جسدي فأذوق معه لأول مرة لذة امتزاج روح بروح وجسد بجسد..

مشهدنا ونحن نراقب الغروب من شرفة عوامته وقد أسند ظهري لصدره وضمني كأنما يتفهم خوفي ليقسم لي أن حبنا بلا غروب.. فأرفع بُنصره الأيسر لشفتي أقبل دبلته المنقوش

على باطنها فوق اسمي: (جفنه علم الغزل).

مشهدنا وأنا أبسط كفي على موضع قلبه كأنني أستنطقه المزيد من البوح، ثم أستطيل على أطراف أصابعي.. أترك أثر شفتي على (شق ذقنه) الذي طالما بدا لي كمرفأ يستقبل سفينتي التي طال عهد سفرها وآن لها أن تستريح..

مشهدنا في شرفة بيته بمطروح، نراقب القمر الذي يشاكسنا وهو يختبئ بين غيومه يظهر تارة ويختفي تارة، فنضحك ملء أفواهنا بل ملء قلوبنا..

مشهدنا سويًّا وقد أجلسني أمامه على جواده الذي انطلق بنا فوق الرمال وقد فردت ذراعيّ كأنني طير محلق مغمضة عيني مستسلمة لشعوري بذراعه حول خصري فكأنني وهو كلُّ أهل الأرض!

مشهدنا على صخرتنا على الشاطئ (صخرة الوعد) -كما أسماها- ونحن نركض بينها وبين البحر الذي لاعبتنا أمواجه فلا نخشى غرقًا ولا نهاب تيهًا ما دمنا نعود في النهاية للصخرة آمنين.

ماذا حدث؟ لماذا استيقظت فجأة ذات يوم فلم أجده جواري؟ بحثت عنه في كل مكان لكن.. كأنه تبخر!

وعندما عدت لأبحث عنه في عوامته وجدت عوامتي أنا

تحترق!

ركضت إليها.. صرخت وأنا أجد نفسي فجأة وسط النار.. ناديت نوح.. عمتي.. فلم يجبني أحدا!

فقط وجدتها هي هناك.. فايزة! تنفث دخان سيجارتها في وجهي بتحدّ وتضحك.. هي من فعلتها! لماذا؟

لم أملك الوقت الكافي لسؤالها وقد شعرت بأني أختنق، فقدت وعيي لأجد نفسي هنا في هذا المكان الذي لا أعرف ماذا سيكون فيه مصيري!

- انتهى العبث!

يهتف بها أحدهم بتشفّ وقد نجحوا في كسر الباب ودفع المنضدة، أصرخ وأنا أتراجع نحو الحائط، أرجوهم أن يتركوني وشأني.. تسقط أوراق (فايزة) من مخبئها بثوبي فيتناولها أحدهم بظفر وهو يرمقني بنظرة مستهينة..

أصرخ وأصرخ وأنا أراهم يكبلونني، يُسقطونني فوق المنضدة ويشرفون بنظراتهم الشرسة على وجهي.. أيديهم تتسابق على ثوبي فأغمض عيني برعب وأنا أشعر بلسعة البرد تصعق بشرتي العارية..

أصرخ حتى يُبَح صوتي وتختنق الأنفاس في صدري..

انتهى الأمر!

لقد نالوا مني!

***

فايزة

- قوات (روميل) الألمانية تُسقط مرسى مطروح في يدها في انتصار ساحق لدول (المحور) على (الحلفاء)!

تشحب ملامحي وأنا أقرأ العنوان المثير على الجريدة الصباحية أمامي بتاريخ الثاني والعشرين من يونيو لعام ١٩٤٢؛ بينما أتناول الإفطار في الحديقة لكنني أغتصب ضحكة خافتة وأنا أطوي الصحيفة أكاد أمزقها لألقيها تحت قدمي، آخذ نفسًا عميقًا وأنا أحاول إقناع نفسي (وما شأني أنا؟ فليحترق الجميع!).

صورة شبح (مراد) الذي داهمني آخر مرة لا تزال تحرق عقلي بمزيج من رعب وغضب! الرعب الذي جعلني أعترف لـ(عصمت) بقتلي لمراد رغم نجاحي في كتمان الأمر طوال الفترة السابقة! الغريب أنه لم يبدُ مصدومًا باعترافي ليلتها! تلك اللعينة (غزل) لا ريب أنها أخبرته بأنني أنا من أحرقت العوامة.. لكن كيف وصل إليها؟ وما علاقته بها؟

- تقدم يا روميل.

- إلى الأمام يا روميل..

أزفر بسخط وأصوات التظاهرات تصلني من الخارج بوضوح، فأقف مكاني بانفعال لكنني أسمع صوت عصمت

خلفي:

- لا تخافي.. حركات شعبية عديدة خرجت تؤيد قوات (المحور) في حركة عكسية ضد الإنجليز.

- أغبياء! ما الفارق بين إنجلترا وألمانيا؟

- السرايا لا ترى الأمر هكذا.. مولانا المعظم (فاروق) مستاء بشدة من التدخل الإنجليزي السافر في شئون البلاد؛ بل إنهم أحاطوا بقصره منذ أربعة شهور تقريبًا وأجبره السفير البريطاني السير (مايلز لامبسون) على تشكيل حكومة برئاسة (النحاس باشا) زعيم الوفد الذي يلائم رغباتهم، وهددوه إن لم يفعلها بالتنازل عن العرش! والكلام يتناثر كثيرًا عن أن السرايا نفسها تؤيد التظاهرات الداعمة لقوات المحور -لكن سرًا- لعل ألمانيا تزيح إنجلترا من المشهد! الأخبار تقول إن روميل شن هجومه ولكن الدفاعات الإنجليزية داخل العلمين وما حولها صمدت أمامه، ومع نقص الإمدادات والإرهاق الذي حاق بهم، أظنه تأكد أنه لن يستطيع التقدم للإسكندرية.

أشيحُ بوجهي دون رد؛ لكنه يقترب مني ليقول بنبرة أكثر لينًا:

- سعيد لأنك خرجتِ اليوم من غرفتك وتناولتِ إفطارك

هنا.. افتقدت الحديث إليكِ.

- صحيح؟ ولماذا لم تحاول التحدث إليّ من ليلتها؟

بدا لي عتابي طفوليًا؛ لكنه ابتسم قائلًا:

- شعرت أن أعصابك (تعبانة) قليلًا.. فتركتك لعزلتك كما تحبين!

أطلق زفرة ساخطة وأنا أشعر بابتسامته باردة متباعدة؛ لكنني لا ألومه بعد اعترافي الصريح له بـ(قتل مراد).. أكتف ساعديّ مطرقة برأسي:

- لم أعد أعرف ماذا أريد.

- عجبًا! لم أعهدك بهذا الضعف!

وكأنما أيقظت عبارته شياطيني كلها لأصرخ به:

- لست ضعيفة.. إياك أن تكررها مرة أخرى.. أنا أقوى من الجميع.

يجلس على الكرسي أمامي دون أن يناقشني وهو يرمقني بنظرة فضولية كأنما يشاهد قردًا يتقافز على حلبة سيرك.. هذه النظرة التي أججت المزيد من غضبي وأنا أخبط على صدري بقبضتي المضمومة:

- أنا تَلاعبَ بهم كلهم.. أخذت ثأري من الجميع.. كفّتي التي ظنوها فارغة مقارنةً بكفّتهم في ميزان البطش عندما وضعت ثقلي عليها طاشت بهم كفتهم؛ بل وانكسر الميزان كله! عن أي ضعف تتحدث؟

- اجلسي واهدئي.. لست عدوك كي تحدثيني بهذه الطريقة.. أنا معك في نفس الفريق لو تذكرين..

أغمض عيني محاولة تمالك غضبي، أجلس مكاني ليصلني صوته متقطعًا شاردًا كأنما غاص في بحور ماضيه:

- صدقيني أنا أفهم كيف تشعرين.. كيف يمكن أن يشوهنا الغدر، يقتلعنا من جذورنا ليدعنا في العراء غرباء حتى عن أنفسنا، نبرز أشواكنا في وجوه الجميع بعدما نفدت زهور منحناها لسواهم فدهسوها تحت أقدامهم.. نضحك ضحكة ليس فيها من الضحك إلا انفراج الشفاه.. نرقص رقصة ليس فيها من الرقص إلا تلاعب الساقين.. نبكي دون دموع.. نصرخ دون صوت.. نركض بكل سرعتنا ولا نعرف غاية ولا هدفًا.. كأننا نخاف أن تدرك ظهورنا ضربة سوط آخر!

يزلزلني الحزن النابض في كلماته، فأفتح عيني ببطء كأنني أراه بنظرة أخرى.. أتذكر الورقة التي سقطت من جيبه ذات يوم (مظلة عشقنا مثقوبة، فكيف أقف وسط الريح أستهزئ بالمطر؟)، ترى ما قصته هو الآخر؟

وكأنه قرأ سؤالي في عيني، لتلتوي شفتاه بابتسامة واهنة وشبه وعد:

- يومًا ما قد أخبرك كما وعدتك.. والآن أخبريني بما حدث بعد تلك الليلة التي اكتشفتِ فيها حقيقة مراد؟ وما الذي أوصلكِ إلى هنا؟

آخذ نفسًا عميقًا لأتمالك غضبي، لا أريد المزيد من الغرق في طوفان الذكرى.. لكن.. ليكن!

ليلتها عدت لبيت مراد ليستقبلني بجزع متسائلًا أين كنت؛ لكنني كنت قد أعددت حجتي:

- عند جورج (الكوافير)! ما رأيك في القَصّة الجديدة؟

قلتها بدلال وأنا أتعلق بعنقه؛ لكنه بدا شديد القلق وهو يرمقني بنظرته المتفحصة:

- كنتِ تبكين؟

- جورج (ابن الإيه)! اقترح عليّ نوع كحل جديد ألهب عينيّ! سأخرب بيته لو فكر يبيع لي تلك الأشياء مرة أخرى! المهم.. قل لي.. عجبتك القَصة؟

مرحي العاطفي راوغه وأنا أكتشف لأول مرة في نفسي مهارة الخداع، تلك التي أصررت أن أستفيد من كل ذرة فيها؛

لكنه عندما أحاط وجهي براحتيه هامسًا:

- كيف طاوعتك نفسك على قص شعرك؟ كل خصلة طالت فيه كانت شاهدة على حبنا!

كدت أصرخ فيه أن هذا هو السبب.. بل كدت ألقي نفسي على صدره أرجوه أن يُكذّب ما سمعته بأذني.. أن يخبرني أن الدنيا لا تزال كما هي وأنه لم يذبحني بسكين بارد.. لكن (السنجاب) الذي غادر جحره وسنّ أنيابه لم يكن ليعود للضعف من جديد.. وبمنتهى الدلال وجدتني أهمس في أذنيه:

- ما المشكلة؟ تطول من جديد وتشهد على عهد جديد.

نمت بين ذراعيه تلك الليلة والجملة الأخيرة تتردد داخلي كصرخة معبد يطلب القربان.. (عهد جديد)!

استيقظت صباحًا وقد أدركت أن مفتاح انتقامي في يد (سيمون).. عرفت أن فوزي نصار قد أهداه عوامته على النيل، وأن الأول صار يستغلها في لقاء عشيقاته، فاخترت طريقي الأقصر.. والأقذر!

- خنتِ مراد؟

يسألني عصمت بمزيج من استياء وأسف فتتلاحق أنفاسي

وأنا ألفّ خصلة من شعري القصير على إصبعي:

- لم أكن حمقاء لأسلم نفسي من البداية ضحية سهلة، كنت أجيد لعب دور المراوغة، أرشّ السكر على قطعة الحلوى؛ لكنني أسحبها في الوقت المناسب قبل أن تمسها يد! الرجال لا يسقطون في فخ المرأة الجميلة.. بل الذكية.. وأنا استغللت كل قدراتي لأقترب من سيمون بعدما لاحظت انجذابه نحوي.. اقتراب حد الكفاية لكن ليس حد الخطر.. رميت له شباكًا سقط فيها بسهولة حتى صرّح لي ذات يوم أنه واقع في حبي!

- ومراد؟ لم يشعر بشيء؟!

- كان مشغولًا بالصفقة الجديدة!

- أي صفقة؟

- صفقة أسلحة أراد منه (سيمون) أن يسهّل تهريبها عبر الصحراء كما فعل من قبل مستغلًا خبرات قبيلته في هذا الأمر.. يبدو أن الصفقة كانت ضخمة هذه المرة كي تساعدهم في الحرب.

- ولماذا يهرّبون السلاح؟

- ليس أي سلاح.. عرفت من سيمون بينما انفلت لسانه

المخمور أنها أسلحة متطورة للغاية يريدون بها مفاجأة العدو! هنا قررت أنها ستكون فرصتي لحرق المعبد بمن فيه.. كل من استغلني.. كل من استضعفني سيدفع الثمن.. حتى لو هلكنا معًا في النهاية.. والبداية كانت مع فوزي.. تقربت منه أكثر زاعمة أنني أفتقد حياتي القديمة، وأنني ضقت ذرعًا بتحكمات مراد وغيرته اللامنطقية.. لمّحت له عن إعجاب سيمون بي، فالتمعت عيناه بـ(نظرة الفوز) التي أحفظها.. صار أكثر ثقة بي فألقيت ورقة رابحة وأنا أخبره -كأنها معلومة غير مفيدة- أنني أعرف عن الصفقة الجديدة.. وألقيت ورقة رابحة أخرى بسؤال عفوي: (فليحترق هؤلاء وهؤلاء، ماذا لو سرّب أحدهم أمر الصفقة للألمان؟ كم سيربح من خلف هذا؟) ثم ألقيت الورقة الأخيرة وأنا أوقن بعدها أنني سأكون (جوكر) اللعبة الوحيد: (بل لدي فكرة أفضل.. ماذا لو راقب أحدهم الصفقة حتى تصل لمكانها ثم هاجم المكان وظفر هو بالأسلحة وساوم عليها الطرفين الألمان والإنجليز، فيربح من هؤلاء وهؤلاء.. ستكون صفقة العمر لكن من يملك القوة والذكاء ليفعلها؟).. ساعتها أيقنت أنني (ابنة أبي) وقد كدت ألمح لعابه يسيل والنظرة إياها في عينيه تشتعل حتى تكاد تحرقني مكاني ليهمس بصوت خافت (أظنني أعرف من!).

- تبًا! أي جحيم ورطتِ نفسك به؟

يهز بها عصمت رأسه لكنني أضحك هاتفة بنبرة منتصرة:

- وصلت الصفقة، وساعد أفراد قبيلة مراد في توصيلها لأحد الكهوف العميقة في مطروح، لكن فوزي كان قد نجح في جمع عصابة صغيرة من المرتزقة ذوي الخبرة، استغلت عنصر المفاجأة وهاجمت المكان ليقضوا على من فيه ويهرّبوا السلاح لكهف آخر، جاعلين الأمر يبدو كأنه مجرد سطو مسلح مجهول الهوية.

- أين بالضبط؟

يسألني عصمت بلهفة -تثير شكوكي- لكنني أتجاهل سؤاله وأنا أردف:

- هنا كان دوري لألقي الستار على المسرحية.. كلمت سيمون عبر الهاتف وطلبت منه أن يلتقيني في العوامة، وكلمت فوزي وأخبرته أن سيمون مخمور في العوامة وأنها فرصتنا لنعلم خطوته القادمة وطلبت منه الحضور.. وفي نفس الوقت.. تركت ورقة لمراد: (تعرف أين أنا الآن؟ في العوامة مع سيمون.. أخونك كما خنتني.. تعال لترى بنفسك كما رأيتك بنفسي)!

يتقافز الحماس الطاغي على ملامح عصمت وعيناه تشتعلان بفضوله فيهتز جسدي بضحكة مكتومة:

- وهكذا وصلت أنا أولًا لأستقبل سيمون وأخبره أن كلًّا من فوزي ومراد يخونانه.. مراد يعمل لصالح السرايا والألمان، وفوزي يعمل لصالح نفسه وهو الذي سرق السلاح.. كانت خطتي أن يضرب بعضهم بعضًا فلا ينجو أحدا! لكن ما لم أحسب حسابه هو دناءة سيمون وأن شعلة النار التي لوحتُ بها كل مرة سقطت من يدي لتحرقني أنا!

- ماذا حدث؟

(معلومات جيدة.. تستحقين مفاجأة يا حلوتي!)

قالها سيمون بالإنجليزية وهو ينقض عليّ، حاولت التدلل وإغواءه بالخمر لأصرفه عني ككل مرة؛ لكنه أزاح الكأس بعيدًا ليتكسر بدُوِيّ هائل وهو يعتصر جسدي بين ذراعيه، صرخت وأنا أحاول دفعه لتمتزج صرختي بصرخة مراد الذي اقتحم العوامة في تلك اللحظة ليهجم على سيمون ويبدآن صراع قوة، فيما وقفت أراقبهما وصدري يعلو ويهبط بانفعال، ظننت أنني أثأر لنفسي وأنا أرى سيمون يستخرج مسدسه من جيبه، وحينها شعرت أنني.. أنني..

- أنك ماذا؟

صمت شارد يبتلعني لأردف بتشتت:

- كأنني انقسمت اثنتين.. واحدة أرادت افتداء مراد بجسدها حتى ولو كان خائنًا، والثانية أرادت أن تنطلق الرصاصة فينتهي كل شيء..

يشد عصمت فجأة على كتفيّ بقبضتيه بنظرة غامضة ظافرة لم أفهمها؛ لكنني أستطرد متلذذة بمذاق (الفوز):

- صرخاتي كانت تشتت انتباه مراد الذي بقيت عيناه معلقتين بي بينما استغل سيمون هذا ليضربه بكعب مسدسه على رأسه فسقط مراد بعدها فاقدًا وعيه.. وصل فوزي في تلك اللحظة ليُفاجأ بما يحدث فابتدره سيمون بلكمة أخرسته (مؤامرتك انكشفت! أقسم لك أن تنتهي متعفنًا في السجن!)

ترنح فوزي للحظة وهو لا يفهم ما يحدث؛ لكنه استعاد توازنه بمهارة تليق به، واتسعت عيناي بصدمة مع المفاجأة وأنا أرى رأس سيمون تزينه رصاصة في منتصفه! رصاصة (الفوز) التي أطلقها (الجوكر) الرمادي!

التصق ظهري بالحائط وأنا أشيح بوجهي نحو النيل الأسود الذي بدت لي مياهه ككتاب أسود ينتظر سطري الأخير..

فيما وصلني صوت فوزي يدمدم بجنون:

- هكذا نتخلص من الاثنين معًا.. زوج مغدور يفاجأ بأحدهم يحاول الاعتداء على زوجته فيقتل كلاهما الآخر!

صوب مسدسه نحو مراد فاقد الوعي فصرخت برعب وأنا أتحرك لأقف حائلًا بينهما.. صرخ بي فوزي أن أبتعد؛ لكنني تشبثت بقبضتيّ في كفه الممسك بالسلاح:

- لن تنتهي اللعبة هكذا.. لن تكون أنت الفائز في النهاية.

صرخت بها بعجز لكنه ضحك بعصبية وهو يحاول تحرير كفه مني:

- بل أنا.. دومًا أنا.. سيموتان معًا وتشهدين معي أمام الجميع بما سأقوله لكِ.. كلاهما قتل الآخر لأجلك.

- لا.. لا.. لن أطيعك هذه المرة.. لن أسمح لك.. أنا التي ستفوز.. وأنت ستخسر كل شيء.

- بأي جنون تتفوهين؟

- الجنون هو ما جعلتني أعيش فيه عمري كله.. أنا أكرهك.. كل هذا من تدبيري أنا.. أنا التي أوعزت لك بفكرة سرقة السلاح ثم وشيت بك لدى سيمون، أنا من خدعتكم جميعًا! ولن أهدأ حتى تهلكوا كلكم!

- فاجرة!

صفعته هوت على وجنتي لكنني تشبثت بكفه الممسك للمسدس أكثر صارخة:

- أجل! فاجرة باعها أبوها أول مرة ثمنًا للباشوية، وثاني مرة باسم الزواج مقابل صفقة سلاح، ولن يمانع في الثالثة والرابعة ما دامت تُرضي أطماعه!

- اخرسي!

كان قد نجح في تحرير يده الممسكة بالمسدس، فهوى بقبضته على رأسي بضربة زلزلتني.. قبضته تشتد على شعري بقوة كادت تقتلعه من مكانه وقد بدا لي كشيطان وهو يهمس بعينين مشتعلتين كجمرتين من نار:

- لم أشعر يومًا أنكِ ابنتي! لم أركِ أبدًا إلا ظل دمية باردة كأمك.. لم تستحقي مني سوى معاملتي الأولى لكِ كجارية.. وعندما وجدت لكِ نفعًا تتجرئين لتفعلي بي هذا! مثلك لا تستحق العيش.. آن الأوان أن تموتي كأمك.

- المجرم كان يريد قتلك! ظننت أنني رأيت أسوأ وجوهه تلك الليلة التي قامر فيها بشرفك؛ لكنه يصر أن يدهشني بالمزيد من حقارته!

يهتف بها عصمت بازدراء فاحَ في نظراته، فترتجف شفتاي:

- عمتي كانت تقول إن البشر كلهم وجوه رمادية تتدرج أفعالها بين الأبيض والأسود.. فلا أبيض خالص ولا أسود

خالص.. لكنني معه هو عرفت كيف يكون الأسود حالكًا دون شائبة.. كيف يمكن أن يحرق المرء أشجار فطرته حد التفحم دون أمل في عودة!

يربت على كفي بتعاطف، بينما تشتعل عيناه بالمزيد من الفضول، فأعود لذكرى تلك الليلة الكارثية:

- صرخت بألم فاق الحد وهو يدفعني بقوة ليرتطم رأسي بالحائط ويتشوش المزيد من إدراكي.. رأيته يختفي في إحدى الغرف ليعود وبيده صفيحة معدنية وضعها جانبًا، فهمت محتواها عندما همس صوته الشيطاني كالفحيح:

- الآن لا أحتاج شهادتك.. النيران ستلتهمكم جميعًا ولن يبقى سوى حكايتي أنا! أنا من سيكتب النهاية!

يطول صمتي بعدها ليسألني عصمت بلهفة:

- وماذا بعد؟

فتزوغ نظراتي وأنا أعض شفتي مع هزة كتفي:

- لا أعرف..

- ماذا تعنين بأنكِ لا تعرفين؟

يهتف بها باستنكار وهو يقف مكانه فأقف بدوري هاتفة:

- لا أعرف.. لا أعرف..

أقولها لأفاجئ نفسي قبل أن أفاجئه وأنا أجدني أركض نحو غرفتي كي أحتمي ببابها المغلق وأنا عاجزة عن المزيد من البوح؛ لكنه يلحق بي ليعتصر كتفي بقبضتيه هاتفًا بحدة:

- لن تهربي هذه المرة أيضًا.. كفى.. ستخبرينني بما حدث تلك الليلة..

- اتركني.. اتركني..

أحاول التملص من بين ذراعيه لكنني لا أستطيع فأصرخ بخوف:

- لا أعرف.. لا أعرف..

- من الذي حرق عوامة فوزي نصار؟

- لا أعرف.. لا أعرف..

- بل تعرفين.. مَن فعلها؟ من؟

صرخاتي تقف حائلًا بيننا لكنه يدفعني ليلصقني بالجدار خلفي هاتفًا:

- أنتِ؟

- أنا؟!

أتمتم بها بشرود وعيناي تزوغان في الفراغ حولي:

- أنا! غزل تقول إنها أنا.. هي رأتني هناك.. أنا لا أذكر سوى أنني كنت شبه فاقدة للوعي.. جذبت طرف السجادة التي يقف عليها فوزي لأراه يسقط أمامي.. اهتزت العوامة بثقل خطوات قادمة.. فقدت وعيي بعدها لأفيق فأجد العوامة تحترق وأنا خارجها.. هل أنا من فعلتها حقًّا؟!

يكز عصمت على أسنانه بغضب، فأضحك ضحكة مكتومة وأنا أردف:

- ليتني أكون من فعلها! أحب تصديق هذا! أنا انتقمت منهم كلهم! قتلت كل من آذاني! (السنجاب) صار يفخر بحدة قوارضه!

يشيح بوجهه دون رد، فأردف ساخرة بشماتة:

- دع غزل تسترح إذن.. أنتم تريدون تصديق أنني الفاعلة.. نجحث في النفي طوال هذا الوقت؛ لكنني الآن أريد الاعتراف بهذا ولو لم أفعله! لكن حتى لو نلت عقابي فغزل لن تهنأ بعيش.. ستبقى تتعذب طوال عمرها! هي السبب.. هي السبب.. لولاها لما حدث كل هذا!

لكنه يعود ليرمقني بنظرة طويلة كأنه يحسم أمرًا جللًا قبل أن يحررني من ذراعيه.. يقودني نحو غرفته فتتسع عيناي

بخوف وأنا لا أعرف ما ينويه.. يدخلني الغرفة ليغلق بابها خلفنا فيخفق قلبي بجنون وأنا أتأهب لما سيفعله..

يتحرك نحو الجرامافون القريب فينبعث اللحن الذي يرجفني مكاني..

(جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل..)

- أوقف هذه الأغنية.. لا أحبها..

أصرخ بها وأنا أسد أذنيّ بكفيّ؛ لكنه يجذبني نحو حامل الرسم الخشبي في زاوية الغرفة بينما يسألني:

- افتقدتِ قطتك؟

- ليست لديّ قطة! أخبرتك أنني لا أحب الحيوانات.

فتضيق عيناه وهو يتفحص ملامحي كأنه لا يصدقني، يشير نحو حامل الرسم قائلًا بنبرة آمرة:

- اجلسي.. وارسمي ما تحبينه.

- لا أجيد الرسم.. ولا أحبه.

- صحيح.. من رسم هذا إذن؟

تتسع عيناي بصدمة مع لوحة لشرفة لعوامة مألوفة وأمامها مشهد النيل، فيزداد ارتجاف جسدي ولا تزال الغنوة

تقصفني بوابل من الذكريات المنسية التي تطفو للسطح..

(يا حبيبي أكلما ضمنا للهوى مكان

أشعلوا النار حولنا فغدونا لها دخان..)

- النار.. مراد.. العوامة..

أتمتم بها بين صرخاتي الباكية وأنا أسد أذنيّ بكفيّ، ليكرر عصمت سؤاله بنبرة حادة:

- من حرق العوامة؟

- لا أعرف.. لا أذكر.. لا تصدق غزل.. هي تكرهني كما أكرهها.

يتحرك مبتعدًا ليحضر ملفًا ورقيًا يضعه أمام عينيّ.. وهو يشير للصورة عليه، صورتي، بدا لي كملف رسمي وقد كتب على مقدمته..

(وزارة الصحة العمومية المصرية

مصحة الأمراض العقلية بالعباسية)

قبل أن يتحرك بي نحو المرآة القريبة، يتناول (باروكة) من الشعر المستعار الطويل ليضعها بحسم فوق رأسي، زهرة حمراء خلف أذني، وببطء يمسح الشامة الصناعية جوار

شفتيّ ليقول بحسم:

- انظري جيدًا..

أتملص من بين ذراعيه رافضة النظر للمرآة؛ لكنه يثبّتني مكاني بقوة ليجبرني على النظر هاتفًا بنبرة قوية:

- غزل هي فايزة.. لا وجود لغزل إلا في خيالك!

صرخاتي تتوالى وأنا أغمض عينيّ متجنبة النظر للمرآة؛ لكنه يهتف بي بنفس النبرة:

- افتحي عينيكِ.. وانظري جيدًا.

- لا.. لا.. لماذا تفعلون بي هذا؟ أنت وعدتني بالحماية! أنت وعدتني أن تصدقني! أنت..

تنقطع صرخاتي وأنا أرى باب الغرفة يُفتح ليدخل منه شبح مراد، منذ متى تطرق الأشباح الأبواب؟

أشهق شهقة عنيفة وأنا أختبئ بجسدي خلف عصمت صارخة:

- مراد! شبح مراد!

يقترب مني الشبح بخطوات مندفعة وعيناه تفيضان بنفس العاطفة القديمة.. يجذبني من ذراعي ليمسد إبهامه معصمي

بحركتنا المعهودة فأجد (أخرى) داخلي تهتف بلهفة مشتاقة:

- عدت يا غريب!

- ابتعد.. ابتعد.. أنت ميت..

أدفعه بها بقوة ثم أنحني على ركبتيّ لأنزل تحت الفراش؛ لكنه يمنعني في اللحظة الأخيرة، يرفعني ليجبرني على الاستقامة بين ذراعيه، يتشبث بي ليغرسني على صدره هامسًا في أذني بخفوت يدوي في روحي كقصف الرعد:

- لا مزيد من الاختباء تحت الفراش.. أنا معك.. حبيبتي.. فايزة.. من علمني جفنها الغزل!

أصرخ وأصرخ وأنا أرفع عيني إليه، أتفحص (طابع الحسن) في ذقنه، سواد ليل سهرتُه طويلًا في عينيه.. دبلتي في بنصره الأيسر وقد نُقِش على باطنها (جفنه علم الغزل)، فأرى (غزل) داخلي تهمس باسم (غريب)؛ لكنني أميّز في يده الأخرى خاتمه الذي ورثه من أبيه وقد سقط فصه، وهذه النظرة المميزة في عينيه مع تقوس حاجبيه كأنما يتصارع ملاك وشيطان، فتصرخ (فايزة) داخلي باسم (مراد).. أنقل بصري بينه وبين عصمت بذهول، ثم أطلق صرخة أخيرة طويلة أفقد بعدها وعيي فلا أعود أميز من أنا.. فايزة.. أم غزل.. كلتانا واحدة؟! هل هذا ما يريدون مني تصديقه؟!

النغمة السادسة

(ربما هي نفس الصورة..

الفارق: من أي زاوية ينظر القلب؟)

عصمت

لا أظن أن حالة ما قد استرعت انتباهي كما فعلت (فايزة فوزي نصار).. ليس فقط الاهتمام الفائق الذي توليه (السرايا) إياها -حَدّ أن ضابطًا من الحرس الملكي استدعاني خصيصًا ذاك اليوم في الخامس عشر من أبريل لعامنا هذا كي يطلب مني علاجها- لكن طبيعة الحالة نفسها وصعوبة تشخيصها.. وبالتالي صعوبة العلاج!

المريضة لا تعاني أعراض (فصام) تقليدية، أو مجرد هلاوس و(بارانويا) الاضطهاد التي تجعلها تظن أنها ملاحقة من الكثيرين؛ لكن ما أثار دهشتي في الحالة هو فقدان الذاكرة (الانتقائي) الذي يصاحب الأعراض، والذي جعلها تنقسم لشخصيتين (غزل) و(فايزة)! كلتاهما صادقة لا تكذب؛ لكن ترى جانبًا ناقصًا من الحقيقة وتتجاهل الآخر!

كانت ليلة الخامس عشر من أبريل لعامنا هذا، ليلة فارقة في تاريخ حالة (فايزة).. تلك الليلة التي قضتها تحاول الهروب عبر أروقة المشفى بشراسة؛ حتى تَمَكّن الممرضون والعمال من إمساكها والسيطرة عليها.. حقنوها بحقنة مهدئة لأنها كانت تصرخ دون انقطاع، وكان هذا أول لقاء لي معها. رفضت التحدث إليّ بعد إفاقتها وقد ظلت تكرر بهلع (لقد نالوا مني).. ثم خلدت للصمت التام وظلت عليه لأيام..

هنا كان دوري لأبني جسرًا من الثقة بيننا.. لم يكن الأمر سهلًا؛ لكنني تبعت حدسي ودخلت عبر مدخل (الصديق) لا (الطبيب).. استخدمت كل خبرتي لأتودد إليها وأعرض عليها الحماية هنا؛ فقد كانت تشكو ملاحقة الجميع لها.. كذلك أفادتني الصلاحيات الامتيازية التي منحتني إياها السرايا بشأنها كي أوفر لها الأجواء المناسبة لتعود لها ذاكرتها كليلة لعب القمار وليلة خروجنا معًا للسينما.

بدأت هي الحديث معي كـ(غزل) وحكت لي قصتها شديدة الرومنسية مع (غريب)؛ لكنها مع استجابتها للعلاج الدوائي بدأت غزل تختفي رويدًا رويدًا ليظهر الوجه الآخر لـ(فايزة)!

آه بالمناسبة.. فايزة لم تكن مريضة عادية.. بل متهمة بحرق العوامة ٧٧ عوامة فوزي نصار؛ أبيها.. الحادث الذي راح ضحيته السير (سيمون) وفوزي نفسه.. بينما أصيب مراد بإصابات طفيفة، وبقيت ضحية أخرى في المشفى لا تزال إصاباتها خطيرة.

لهذا كنت منوطًا بدراسة حالة فايزة ومعرفة ما إذا كانت تدّعي الجنون للهروب من العقاب، أم أنها حقًّا غير متزنة؟ لكن الأهم من هذا وذاك لدى (السرايا) هو مكان صفقة الأسلحة التي نجح فوزي في سرقتها قبل موته وأخفاها في أحد كهوف منطقة (العلمين) بمطروح وقد صارت فايزة

هي الخيط الوحيد المتاح الآن للعثور عليها! ربما هذا يفسر الحفاوة الرهيبة والامتيازات الخاصة التي منحتني إياها (السرايا) كي يتم تعافيها بسرعة.. خاصة والحرب الآن على أشدها هناك، ولا يزال الملك والشعب يطمعان في هزيمة الألمان للإنجليز وحلفائهم.

- ادخل.

كنت أجلس على مكتبي في (مصلحة الصحة العقلية) بمستشفى (العباسية) عندما سمعت الطرقات، وقد كدت أجزم بهوية الطارق الذي لا يغير ميعاد زيارته؛ بل إنه يكاد يكون نزيلًا معنا من فرط حرصه على زياراته اليومية الطويلة رغم عدم حصوله على مبتغاه.. لهذا ارتفع صوتي الواثق:

- تفضل يا مراد.

لا أنكر أنني أشعر بالإشفاق عليه رغم القصة التي حكتها لي فايزة والتي تجعله السبب الرئيسي فيما وصل إليه حالها.. أول الأمر كنت أمنعه من زيارتها؛ لكنه كان يداهم المشفى مع بعض أفراد قبيلته يطرقون الأبواب ويطلبون إخراجها إليهم.. بعد مرتين من فعلها كاد مدير المصحة يطلب له (البوليس)؛ لكنني وعدته بتدبر الأمر؛ فقد كنت على دراية بغضب القَبليين وحمائيتهم نحو أهلهم؛ خاصة أن ثقافة

المرض النفسي لا تزال فقيرة في مجتمعنا فلا يفهمون عن الشخص المضطرب عقليًا سوى أنه مجنون لا يستحق إلا النبذ؛ لهذا تحدثت إلى مراد بهدوء لأقنعه أنني معه في نفس الجانب، وأنني لا أريد سوى مصلحتها؛ فما وجدت منه غير عقل متفتح وقلب عاشق.

يدخل الرجل الذي طالت لحيته بإهمال وهزل جسده بحزن لا ألومه فيه، ليتخذ مجلسه أمامي وهو يسألني بلهفة لا تقل يومًا عن يوم:

- كيف هي اليوم؟

- ترفض الاستيقاظ كأنها تهرب للنوم.. لكن لا بأس.. كنت أتوقع هذا بعد صدمتي لها بالأمس.

- ولماذا تعمدتَ فعل هذا إذن؟

يهتف بها بلسان لائم فأشبك كفي أمام وجهي لأقول بصدق:

- هناك حكمة تَعَلّمتها في لندن.. (أحيانًا يكون تفجير الجدار أسهل من تسلقه).. وهذا ما حاولت فعله بالأمس.. طوال الأيام السابقة وأنا أحاول فقط الدوران خلف أسوار ذكرياتها، أتظاهر بتصديقها، أستخرج منها كل ما يمكنها البوح به دون ضغوط، لكنها قالت جملة واحدة أثناء الحوار جعلتني

أدرك أنه الموعد المناسب لصدمة مواجهتها بـ(شخصيتيْها) الاثنتيْن.

- أي جملة؟

- عندما كانت تتحدث عن ليلة الحريق، ذكرت أنها عندما صوّب سيمون مسدسه نحوك شعرت بنفسها تنقسم اثنتين متناقضتين، واحدة تريد افتداءك وواحدة ترى هذا عقابك على خيانتك.

- لم أَخُن.

يتحشرج بها صوته المقتضب بين غضب وندم، ووجهه يتلون بانفعالات شتى؛ فأهز رأسي بما يعني استعدادي للتصديق وأسأله باهتمام:

- أخبرني أولًا.. متى قابلت فايزة بالضبط؟

- منتصف العام الماضي.. وقتها كان فوزي نصار مسافرًا لإنجلترا وتركها مع عمتها التي اختارت الإقامة في عوامته.

أهز رأسي بتفهم لأشرح له الحالة محاولًا التبسيط:

- النفس البشرية معقدة للغاية.. نحن لا نتفاعل مع الحدث الواحد بنفس الكيفية.. بعض الأشخاص يعانون من هشاشة نفسية تجعلهم عُرضة للمرض النفسي أكثر من سواهم مع

تعرضهم لنفس الظروف.. هل أخبرتك فايزة عن طفولتها؟

- لم تكن تخفي عني شيئًا.

تدمع عيناه بجوابه الغارق بشعوره بالذنب فأتنحنح لأرد:

- طفلة شهدت موت أمها بتلك الطريقة.. كتمت مشاعرها طوال هذه السنوات.. وجدت راحتها في خلوتها تحت الفراش معتزلة البشَر وشاعرة بأنها مجرد كائن مهمش غير ذي أهمية.. وعندما كادت تتنفس شعورها بحنان أبيها كان مجرد استدراج منه ليدفعها للهاوية.

أحاول اختيار لفظ متحفظ يحمي كلينا من الحرج؛ بينما أستطرد محاولًا تجميع خيوط فايزة المتشابكة:

- كل هذا اضطرت لتتحمله وحدها.. حتى انفتح باب القفص فجأة مؤقتًا بسفر فوزي للخارج وانتقالها للعيش بعيدًا عن البيت الذي شهد انكساراتها.. كان هذا عندما التقت بك بعد سكناها في العوامة.. من هنا بدأت تولد (غزل) في ذاكرتها.. لديك تصور لماذا اختارت هي هذا الاسم؟

- أنا كنت أناديها به بعدما شعرت بحبها لأغنيةٍ ما كنا نسمعها.

لا يزال صوته المتحشرج يفضح لوعة حقيقية في صدره

فأهمهم بتفهم:

- توقعت هذا.. (جفنه علم الغزل).. صحيح؟

يسبل جفنيه على ألمه فأتجاوز الأمر لأردف:

- ولدت غزل حيث وُلد حبكما.. لهذا لم تحكِ لي (غزل) أي شيء عن فوزي أو عن ماضيها مع أمها.. غزل لا تذكر أي شيء عنك سوى كونك (غريب) الملاك الذي أحبته وأحبها.. واختفى فجأة.. بالمناسبة.. لماذا تسميك (غريب)؟

- اسمي مركب (مراد غريب).. لكنها كانت تحب مناداتي بـ(غريب) أكثر.. كانت تقول إنه الذي يليق بي.

- أجل.. تذكرت.. (غريب) من الغربة والغرابة.. لقد ذكرت لي شيئًا كهذا.. يبدو أن هذا كان شيئًا حميميًا خاصًا بكما؛ لهذا تسرب لـ(غزل) واحتفظت به دون (فايزة) التي بقيت تدعوك في حكايتها (مراد).

- أنت تتحدث وكأنهما اثنتان فعلًا!

يهتف بها بانفعال لا ألومه فيه، لأبسط راحتيّ في وجهه مهدئًا بقولي:

- أنا أحاول معك فك خيوط التشابك.. نفهم معًا ما الذي أوصلها لهذا الحال!

يطلق زفرة مشتعلة وهو يدفن وجهه بين راحتيه فأستطرد:

- غزل ترى غريب بطريقتها البسيطة.. العاشق الذي بادلها الحب.. حتى ملامحه تصفها ببساطة عفوية؛ سمرة البشرة، بياض الأسنان، شق ذقنك؛ بينما فايزة تصفك بطريقة مختلفة تناسب ذكاءها وتحفزها.. الصراع القاسي على ملامحك.. تقوس حاجبيك.. و..

أصمت لحظة كأنما بزغ الخاطر في ذهني فجأة:

- تذكرتُ شيئًا مهمًا.. فايزة دومًا -دون غزل- تذكر ما يخص أباك.. خاتمك الذي سقط فصه والذي ورثته عنه.. فن النحت الذي تَعلمته منه.. لأن فايزة تعرف حقيقة رغبتك في الانتقام لأبيك.. بينما غزل تتجاهل هذا كله.. مكتفية بحديثها عن قبيلتك وأمك التي ترفض زواجكما.. فايزة لا تذكر أين رأتك أول مرة، وغزل لا تعرف أين اختفيت.. الأولى تريد نسيان العاطفة الصادقة والثانية تريد نسيان الخيانة..

- لست خائنًا.. لست خائنًا..

يصرخ بها مراد بانفعال وهو يقف مكانه هائجًا، فأقف بدوري لأهتف مهدئًا رغم صرامة نبرتي:

- أنا لست هنا للحكم عليك.. أنا أحاول فهم حالة فايزة

ولماذا وصلت لهذا الحد، والأهم كيف يمكن علاجها.. فاهدأ وإلا ارحل؛ فلن يلومك أحد لو قررت أن تهجر زوجة مجنونة.

- زوجتي ليست مجنونة.. وأنا لن أتركها.. لن أتركها أبدًا.

يهتف بها بحدة مندفعًا وقبضتاه تشتدان على ياقة قميصي.. ورغم استيائي مما يفعله؛ لكن ابتسامة خفية كانت تكبر في صدري، هذا -بالضبط- ما أحتاجه لأعبر بفايزة لبر الأمان.. لهذا أزحت كفيه بهدوء عن صدري لأقول بحسم:

- عظيم.. يمكنك الجلوس إذن لنكمل كلامنا.

يمسح وجهه بكفيه وقد بدا لي أنه يبذل مجهودًا خارقًا للسيطرة على نفسه ثم يتمتم باعتذار خافت وهو يتهاوى جالسًا على كرسيه فأجلس بدوري قائلًا بينما أسمعه يتمتم بنبرة مذنبة:

- كان ينبغي أن ألاحظ أنها تغيرت.. قصت شعرها فجأة.. صارت تدخن.. رسمت تلك الشامة اللعينة على شفتيها.. حتى طراز ثيابها تَغير من ملونة منفوشة لضيقة قاتمة.. كنت أظن كل هذا مجرد اختلاف ذوق بسيط.. حتى اختفت قطتها.. كنا قد أحضرناها لبيتي مع قطي (سيزار).. لكنني اكتشفت غياب القطة فجأة.. سألتها فأخبرتني ببساطة أنها (سربتها).. ساعتها شعرت أن شيئًا ما خاطئًا يحدث معها..

هي كانت تحب القطط وفوزي كان يمنعها من تربيتها.. لهذا كانت سعيدة أول ما التقينا أنها تَمَكنت من اقتناء واحدة؛ لكنها كانت تعلم أنها ستفرط فيها فور ما يعود أبوها.. كانت شديدة التعلق بها واعتبرتها فألها الحسن في علاقتنا.. يا الله! كيف لم أنتبه وقتها؟! كيف لم أفعل؟ ليتها أخبرتني بما عرفته! كنت سأخبرها بالحقيقة.

- هي وجدت فيك أرضها الصلبة.. وفجأة تزلزلت تحتها.. تلومها على السقوط؟!

يهز رأسه بين نفي وألم فأنظر في ساعتي وقد تَبين لي قُرب موعدي المهم فأقول بحسم:

- عظيم.. أظننا الآن فهمنا لماذا وصلت لهذا الحال.. (غزل) هي الوجه العاطفي البسيط بينما (فايزة) هي الوجه العقلاني المشوه.. لهذا تكره كل واحدة منهما الأخرى.. غزل تلوم فايزة لأنها تراها منتقمة قاسية جبارة؛ بينما فايزة تلوم غزل لأنها تراها ضعيفة جبانة وقعت في فخ الحب بحماقة ولم تستطع يومًا حماية نفسها.. أظن أن الصراع بين الشخصيتين كان موجودًا في نفسها من البداية.. ربما بعد حادثة موت أمها الذي رسم داخلها اثنتين: واحدة تتوق للحب وواحدة خائفة منه.. لكن الصراع بَقِيَ كامنًا حتى سمعت ما جعلها توقن أنك تخدعها.. وبلغ ذروته ليلة حادث

العوامة عندما كاد الرجل يقتلك وكل منهما تريد النهاية التي ترضيها.. مواجهة الأمس كانت ضرورية كي تعترف بحقيقة وجودك.. فـ(غزل) تراك مختفيًا؛ لأن هذا يمحو عار خديعتك بينما (فايزة) تراك ميتًا.. لأن هذا يُرضي شعورها القديم بالانتهاك ويناسب إحساسها أنها انتقمت من الجميع.

- هل هي من حرقت العوامة حقًّا؟

- لا أعرف.. ولا أظنها هي نفسها تعرف.. الأمر مرتبط بـ..

أقطع عبارتي بخاطر ما انتابني، فيرمقني مراد بنظرة متسائلة؛ لكنني أقف مكاني قائلًا بنبرة معتذرة:

- يجب أن أنصرف الآن.. موعد مهم.. نكمل حديثنا فيما بعد.

لم أشأ إخباره أن الموعد مهم أكثر مما ينبغي.. وأنه بشأنها هي كي لا أزيد قلقه.. فقط ربتت على كتفه بمؤازرة؛ لكنه شد بقبضته على كفي وشفتاه ترتجفان بسؤاله شديد الخفوت:

- هل اعترفت لك أنها فعلتها حقًّا؟ هل.. هل.. خانتني؟

كنت أعرف أنه هو السؤال الذي يُحرق أحشاءه طوال الأيام الماضية، ويبدو أن تعاطفي مع فايزة جعلني أميل لتعذيبه قليلًا فسألته ببرود:

- ماذا تظن أنت؟

عيناي ترصدان كل حركاته باهتمام، ارتعاشة جسده مع حمرة وجهه المنفعل، ثم حركة إبهامه الذي يمسد دبلتها في بنصره، وأخيرًا يهمس بيقين رغم شرود نظراته:

- غزل.. لا تخون.

- وفايزة؟

أسأله متلاعبًا فيهتف من بين أسنانه:

- كلتاهما واحدة.. لم تخن ولن تخون.. عندما تركت لي تلك الورقة السخيفة ليلة الحادث لم أشك أنها مجرد هراء.. حتى عندما رأيتها بين ذراعيه في العوامة كنت أثق أنها مجبورة..

أبتسم ابتسامة واسعة وأنا أستعيد ما أخبرتني هي به، أظنه يستحق أن أطمئنه؛ لهذا أومئ برأسي أمنحه ما يريد ثم أتنهد قائلًا:

- ليتها وثقت بك.. كما تثق بها.

- لم يفت الوقت بعد.. هي ستكون بخير.

الرجاء الخافت في نبرته لم يخفف صرامتها الواثقة فأمنحه إيماءة أخرى قبل أن أحدد له موعدًا بالغد لنستكمل كلامنا..

يغادر بخطوات مهزومة فأرمقه بنظرة آسفة قبل أن أتحرك لأدرك موعدي بالفيوم.. وبالتحديد.. في (الأوبرج). ماذا سأفعل هناك؟ في ظاهرها دعوة شديدة الكرم من حاشية مولانا لرحلة صيد مع فخامته.. لكنني أعلم ما تضمره النوايا.. تبًا لكِ يا فايزة! أنتِ حقًا كما وصفتِ نفسك.. سنجابٌ أحمق حفر لنفسه جحرًا ليجده مليئًا بالأفاعي!

كان (الأوبرج) هو قصر الملك الذي شيّده كاستراحة لجلالته على ضفاف بحيرة (قارون) بالفيوم؛ حيث يقضي فترة استجمامه بعيدًا عن مشاكل الحكم.. عندما توقفت بي سيارتي أمامه لأميز الطراز الإيطالي الريفي الذي طلب الملك أن يكون (الأوبرج) عليه؛ تذكرت النكتة الرائجة حاليًا وسط العامة عن الحالة السياسية الهزلية للبلد.. (شعب مصر ألماني، وملك مصر طلياني، وحكومة مصر إنجليزية!).

أجل.. كانت الفكاهة الحقيقية أن الإنجليز وحلفاءهم يحاربون الألمان والطليان على أرضنا نحن؛ حيث لا ناقة لنا ولا جمل.. فيدعم الشعب المسكين الألمان بغضًا في الإنجليز؛ بينما لا يخفى ولاء الملك وحبه الشديد لإيطاليا.. فيما تحكم إنجلترا قبضتها على الحكومة التي تكاد تتحدث باسمها وترعى مصالحها؛ وكيف لا وقد حاصر الإنجليز قصر الملك حتى أجبروه قهرًا أن يعين هذه الحكومة بالذات؟!

أتقدم أكثر نحو القصر المهيب الذي يحكون أنه يتكون من أكثر من خمسين غرفة، أعدّل وضع طربوشي وأهندم بدلتي باهتمام، فيوقفني أول حارس من فرقة الحرس الملكي ليسأل عن هويتي بتشكك.. أجيبه بفتور وأنا أتمنى لو أجد عذرًا لأعود من حيث أتيت لكن (شماشرجي) الملك يستقبلني بحفاوة مرحبة وهو يدخل معي ليستقر بنا المجلس في الصالون الفخم للقاعة الكبيرة.. يضع الرجل أحد ساقيه فوق الأخرى ليعطي جلسته الهيبة المطلوبة.. حمرة وجهه الممتلئ تنافس لون طربوشه، عيناه شديدتا الضيق دفنتهما وجنتاه المكتظتان؛ حتى أنني تشككت في قدرته على رؤيتي.. أنفه العريض يستريح خاملًا وسط كل هذه الدهون أعلى شفتين يأكلهما شاربه العريض أكلًا! كانت بدلته بالغة الفخامة بلونها الأسود اللامع ضمت جسده البدين ببعض العسر؛ كأنها تشارك الجميع رهبتها من المزيد من الاقتراب من رجلٍ بوضعه، فقد كان هو المسئول عن توصيل الرسائل من الملك والعامة أو العكس كما كان هو (أذن) الملك التي تنقل له ما يدور خلف رأسه، وقد بدا لي كبالون كبير منتفخ وهو يغمغم بود مصطنع:

- المرة السابقة استدعاك أحد ضباط الحرس الملكي بشأن قضية تلك المرأة؛ لكن (مولانا) يريد معرفة التفاصيل عن قرب قبل تدخّل الشرطة.. جلالته شديد الفضول بخصوص

قصتها المثيرة.

أعدل وضع نظارتي على أذني وأنا أستعيد تلك الفقرة في (قسم أبوقراط) الذي أقسمت عليه في مهنتي:

(سوف أحتفظ بكل ما أراه وأسمعه من أسرار الناس التي ينبغي ألا أكشف ما لا يجب ذكره مما تصل إليه معرفتي في حدود مهنتي أو خارجها أو في مخالطتي اليومية مع الناس؛ بل أكتمه سرًّا).. فينتصر ضميري المهني وأنا أراوغ:

- أتمنى ألا يعني كلامك كشف أسرار مريضتي.

يرمقني الرجل بنظرة متفحصة ليلاعب الخاتم الفخم في يمناه قائلًا:

- نحن اخترناك لمهارتك التي يتحاكون عنها بعد عودتك من الدراسة في لندن وحصولك على دبلوم متخصص هناك.. لكن هذا لا يعني أنك الخيار الوحيد.. كما تعلم.. لهذا نريد فقط التأكد أننا اخترنا الرجل الصحيح.

- الرجل الصحيح لن يُفشي أسرار مريضة كما أظن.

- تملك الجرأة لتعصي مولانا في قصره؟

تتصاعد نبرة التهديد في صوته لأرد:

- حاشاي! لكن أوامر مولانا لا ينبغي أن تتعارض وشرف

مهنتي..

أقولها بثبات فيهيأ إليّ أن الرجل ينظر لشيء ما جواري، اختلست نظرة بجانب عيني حيث رمى بصره؛ لألمح الستار الحريري الذي يفصلنا عن الداخل يهتز بحركة بطيئة، وسرت قشعريرة باردة في جسدي وقد راودني خاطر ما أنه قد يكون مولانا نفسه يستمع للحديث فجف حلقي ببعض الرهبة؛ لكن الرجل ابتسم وقد بدا أن جوابي قد أرضى مَن يراقبنا أيًا كان.. ليقول مداهنًا:

- هل هي حقًّا مريضة؟

أومئ برأسي لأقول بوضوح:

- الشيء الوحيد الذي يمكنني التصريح به، هو أن فايزة حقًّا مريضة ولا تدّعي ذلك للهرب من تهمة حرق العوامة.

أقولها وأنا أتذكر لماذا تعمدت دعوتها لفيلم (أولاد الفقراء) بالذات، وقد كنت أعلم عن ذاك المشهد الذي ذكرها بوفاة أمها.. كان اختباري لأعلم إن كانت تكذب بشأن ماضيها أم لا.. أو للدقة؛ كان آخر اختباراتي، فقد كنت أثق قبله في حدسي أنها لا تكذب مهما بدت حالتها غريبة.

- أتمنى أن تدرك خطورة شهادتك، فأحد ضحايا الحريق هو السير (سيمون)، والسفارة الإنجليزية لا تتهاون في شأن

كهذا خاصة في حالة الحرب التي تمر بها البلاد الآن.

أرمقه بنظرة طويلة ثم أقرر تقصير الطريق على كلينا فأقول بوضوح:

- دعنا من حادث العوامة.. أنا أعرف أن أكثر ما يهمكم الآن هو مكان الكهف الذي أخفى فيه (فايز) صفقة الأسلحة.

- هل تذكرت هي مكانه؟

تلتمع بها عيناه بخطورة وقد عاد بصره يتعلق بما خلف الستار، فأتمالك جأشي لأرد:

- ليس بعد.. لكنني وضعت قدمي على أول الطريق.

- الحرب دائرة الآن في العلمين على أشدها بين الطرفين، أي نقطة تفوّق لصالح أحدهما ستحسم الصراع، نأمل أن سيمون لم يجد الوقت ليبلغ أعوانه من الإنجليز عما حدث، سيبقون يظنونه مجرد سطو مسلح، نحن فقط نعلم أن هناك كنزًا مفقودًا، كنزًا لا نريد أن يستفيد منه إلا من يستحق.. نحن في النهاية لا نريد إلا مصلحة البلد.

أهز رأسي مع كل كلمة (نحن) يكررها في حديثه كأنه يذكرني بمن هو ومن خلفه، أكتم ابتسامتي وأنا أراهن على خطوته التالية عندما ضيّق عينيه حتى صارتا كخطّيْن

أسودين تحت جفنيه مع استطراده:

- ابذل قصارى جهدك.. يجب أن تتذكر هي سريعًا.. افعل ما يمكنك فعله.. مولانا يجزل العطايا للعباقرة أمثالك.

لا تزال تبهرني وقاحة مثل هؤلاء في التراقص الفج بين الترهيب والترغيب؛ لكنني أكظم غيظي راضيًا بهذه النتيجة التي وصلت إليها.. على الأقل كان الرجل صادقًا في دعوته لرحلة الصيد.. فلم يمضِ وقت طويل حتى أقبل الخدم بثياب مناسبة مع عدة الصيد قبل أن يتحركوا بنا نحو الشاطئ حيث المراكب الشراعية التي حملتنا داخل البحيرة.. كنا مجموعة مما يزيد عن خمسين فردًا لم أكن أعرف منهم أحدًا؛ لكن (شماشرجي) الملك بقي يلازمني بتودد ملحوظ متصنعًا العفوية ونحن نمارس الصيد؛ كأنه يلقي لي جسرًا من المودة بعد شحنات حوارنا السابق.. ومن بعيد كنت أرى المركب الخاص بـ(مولانا) يتقدمنا على مسافة مناسبة؛ لكنه استدار فجأة وهُيئ إليّ أنني ألمح طيف ابتسامة حادة على وجه جلالته.. إعجاب اختلط بتحذير جعلني أدرك خطورة موقفي مع فايزة.. ورغمًا عني انتابني خاطر ساخر جعلني أكتم ضحكة متهكمة:

(ما الذي يريدون مني قوله لجلالته؟! أن فايزة القاسية تحب مراد الخائن وغزل البريئة تحب غريب الوفي، وأن كلًّا

من غزل وفايزة تكره الأخرى؛ لكن في الحقيقة، غزل هي فايزة ومراد هو غريب؟! لو سمع مولانا هذا الكلام فسأكون في عينيه أفضل من أي (دكر بط) هنا في البحيرة، وستزين رصاصة بندقيته رأسي أنا!)

النغمة السابعة

(شمس الحب قاهرة تجيد غزو ألف ليل)

مراد غريب

لا أدري لماذا تخليت عن سيارتي أمام المشفى طوعًا وفضلت التمشية قليلًا قبل العودة لعوامتي، ربما هو شعوري أنني لم أعد قادرًا على القيادة.. بداية بسيارتي وانتهاء بكل شيء! وربما هي رغبتي أن تبقى سيارتي هناك جوار فايزة طالما عجزت أنا عن فعلها.. فلتبقَ سيارتي -كما بقي قلبي- حيث بقيت هي، لعلي يومًا ما أعود بثلاثتهم!

أتمشى في الشارع العريض أراقب الوجوه التي اختلفت ملامحها لعلي أنسى في زحامها لوعتي؛ لكن وجه فايزة كان دومًا معي.. ملتصقًا بحدقتيّ، وصوتها فقط يصدح في أذني، عاتبًا مرة، ومشتاقًا مرة، وعاشقًا كل مرة!

أستقل (الترام) راغبًا في المزيد من مطاردة الزحام لعله -بالتيه في طياته- يرحمني من أنياب خواطري.. أُضطر للوقوف متشبثًا بقبضتي في عارضة الترام المعدنية، أوجه بصري الشارد لزجاج النافذة وأنا أفكر: ليس أقسى على القلب من الندم بعد فوات الأوان كصرخة حارة على قبر ميت! لماذا لم أخبر فايزة بالحقيقة؟ تراني خفت أن تخذلني؟ أما كان هذا أفضل من أن تشعر هي أنني خذلتها؟

- آه! خاتمك جرحني يا (أفندي)!

تهتف بها المرأة الواقفة جواري بألم ساخط، وقد أبطأ الترام سيره فجأة فاحتك ظاهر كفي بذراعها.. أتمتم باعتذار شارد ولا أكاد أميز سوى حمرة ذراعها المجروح، ولا أعرف لماذا سمعتها بصوت فايزة، بحشرجة صوتها المذبوح وهي تصرخ في وجهي كما صارت تفعل مؤخرًا! خاتم (أبي).. بعض من إرثه الذي تركه لي، لا أزال أذكر عندما خلعَته عنه أمي يوم وفاته، النساء كنّ يصرخن حولها بدموعهن؛ لكنها وحدها بقيت متماسكة، رابطة الجأش، ترفع كفي الصغير بيننا وهي تهمس لي (يومًا ما ستكبر ويناسبك مقاس الخاتم فلا تخلعه أبدًا)، وبقيت بعدها أعد الليالي وأنا أراقب أصابعي.. متى ستكبر كي يناسبها المقاس؟ هل سأصير حينها رجلًا رائعًا كأبي؟ هل سيكون راضيًا وأنا أرتدي خاتمه أمارس النحت كما علمني على الطين أو الخشب؟ هل سأحب القاهرة مثله فتخطفني دوامات نيلها أم سأبقى أتشبث بجلباب أخوالي من البدو حيث الرمال التي لا تخون؟

(الفأس ينسى لكن الشجرة لا تنسى) لا أذكر متى قرأت تلك العبارة في كتاب ما؛ لكن معناها كان راسخًا في ذهني منذ زمن بعيد وقد أقسمت داخلي أن أكون الشجرة التي لا تنسى ثأرها أبدًا حتى لو نسي (الفأس) جريمته.. والفأس كان فوزي.. فوزي نصارا

متى عرفت أن فوزي كان (فأس) الحكاية؟ كانت أمي تصمت بتحفظ دومًا عندما أسألها كيف مات أبي، فقط تلتمع عيناها بالدموع وتغمرني في حضنها كأنها تخاف عليّ الجواب.. لكنني عرفته وأنا في الثانية عشرة من عمري، كنت ألعب في الصحراء مع أبناء أخوالي الذين انتقلنا للعيش معهم بعد وفاة أبي، لعبنا (النبلة) وكنا نصوب الحصى الصغير على طرح النخل، ثم اقترحت أنا أن نلعب (الكارت)، وقد صنعت أوراق لعب تشبه (الكوتشينة) رسمتها بنفسي، جمعتهم حولي ومضينا نلعب كما علمني أبي، لأفاجأ بخالي الأصغر يصرخ بي بغضب:

- ماذا تفعل يا (ابن السفيه)؟ تريد أن تموت مجنونًا كأبيك؟

انتزعني بها من وسطهم ليصفعني صفعة قوية أدمت وجهي؛ لكن خالي الأكبر خلصني من يديه هاتفًا بحزم:

- دع الولد.. هو يلعب.

- (أول الرقص حنجلة)! ما عاد صغيرًا.. ألا ترى كيف يقلد أباه؟ نتركه ليعيش سفيهًا كأبيه؟

- حاشاه! مراد ولدنا ونحن نربيه كما تربينا.

- إذن لا أراه يلعب الورق هذا وإلا تبرأنا منه كأعمامه!

غادر خالي الأصغر وقتها لكن كلماته لم تغادرني.. هل تبرأ منا أعمامي؟! لهذا لم يزرنا منهم أحد منذ مات أبي؟ لماذا يعيرني الصبية بأنني (ابن السفيه)؟ كيف مات أبي؟ ولماذا اختفى فترة قصيرة قبل موته؟

طرحت كل الأسئلة على أمي فلم تجبني؛ لكن خالي الأكبر (عواد) جذبني من كفي ذات ليلة بَهْمَاء بلا قمر، وابتعد بي عن عمار أكواخنا وخيامنا ليستقر جواري تحت نخلة عوجاء، نخلة بدت وحيدة مثلي وسط حبيبات الرمل المتشابهة في كثافتها ونعومتها ليخبرني الرجل بالحقيقة.. أبي لم تعجبه حياة البدو، سافر بأمي ليزيد من رواج تجارته في العاصمة.. سحرته (نداهة) القاهرة فقابلها بقلب غافل وعقل ساذج.. هناك تَعَرّف على أحدهم وجرّه للمقامرة، مرة تلو مرة، صار أبي مهووسًا باللعب وسرت في عروقه نشوة الكسب السريع، وما زالت (النداهة) تجذبه بنداءاتها؛ فلم يُفق إلا وقد خسر ماله كله.. ليس ماله فحسب؛ بل ومال أعمامي الذين ائتمنوه على تجارتهم وقد كانت هذه هي الخيانة العظمى التي لم يسامحوه فيها؛ فتبرأوا منه ومن نسله.. لم يحتمل أبي صدمة الخسارات المتتالية، فقَد عقله وأوردوه مستشفى (العباسية) ليجدوه ذات يوم وقد مات! مزق غطاء فراشه وصنع منه حبلًا ثم لف أحد طرفي الحبل حول عنقه والآخر في مقبض باب الحجرة المغلق من الخارج وظل راكعًا وراء

الباب يجذب نفسه ليضيق الحبل على عنقه شيئًا فشيئًا حتى فاضت روحه لبارئها.

كنت أسمع خالي (عواد) وأمسح دموعًا أخبروني أنها لا تليق بالرجال.. أرى المشاهد التي حكاها بعين خيالي كأنها فيلم يعاد عرضه مرة تلو مرة دون انقطاع، يظنون أن أبي مات ولم يترك لنا إرثًا سوى عوامته في القاهرة؛ لكنني كنت أدرك أن أبي ترك في صدري أكبر من ذلك، ترك حبًّا وحنانًا وفنًّا و... خاتمًا سقط فصه! خاتمًا سيناسب مقاسي يومًا ما.. ساعتها أتخلص من لعنة (ابن السفيه) التي طاردتني عندما أجد الفرصة للثأر من شيطان أغواه حتى أفقده حياته.. شيطان كانت عوامته تُجاور عوامة أبي.. كأنها فقط بقيت لتذكرني بـ(الفأس) الذي اجتث شجرتي.. فوزي نصار!

حفرت حفرة في زاوية غرفتي ظنًّا مني أنه يمكنني الهرب عبرها كي أنتقم ممن أغواه، الحفرة التي كنت أراقبها تكبر يومًا بعد يوم؛ لكنها لم تستوعب جسدي أبدًا! كنت أكبر وتكبر معي لعنة (ابن السفيه).. تلاحقني العيون بتحفز، تترصد أي خطأ يُثبت أنني سأضل طريقي مثل أبي، فكنت أجاهد لأُثبت لهم العكس.. توسلتُ لأمي أن أكمل تعليمي في المدينة فوافق خالي (عواد) وسمح لنا بالبقاء في مرسى مطروح، وعندما اشتد عودي صار خالي يثق بي لتولي شأن تجارته

في المدينة والتي ازداد رواجها؛ حتى عرض عليه أحدهم الشراكة في القاهرة.. ساعتها شعرت أنها فرصتي لأحوم حول (الفأس) الملوث بدم أبي، فلا أهدأ حتى أصهره أمام عيني ليذوب محترقًا بخطاياه.

صفّارة (الكمساري) تقطع ذكرياتي فأنتبه لوصولي لمحطتي.. أغادر الترام وأنا أشعر أن خطواتي تزن أثقالًا.. أصل لعوامتي فتحين مني نظرة لعوامة (فوزي نصار) المجاورة وقد بدت بعدما احترقت تلك الليلة كشبح أسود يبسط أطرافه على ما حوله.. أبتلع غصة حلقي وأنا أتحسس دبلة فايزة في يدي.. يا الله! كم افتقدتها! يزعمون أنها فقدت عقلها! حقًّا؟ لماذا أشعر أنني أنا من فقد برحيلها عقله؟ عقله فقط؟ بل وروحه ومذاق عمره!

خطواتي تتثاقل فوق سقالة العوامة كأنني أتحسس بقايا أناملها هاهنا على السياج، أو أطارد سراب خطواتها الرقيقة مثلها.. آخذ نفسًا عميقًا لعلي أملأ أنفي برائحة الزهر الأحمر الذي كانت تضعه دومًا خلف أذنها، والذي زرعته أنا خصيصًا لأجلها هنا بعد زواجنا.. هذه العوامة هي ما بقي لي من ذكريات من أحبهم؛ لهذا أردت أن أضيف لها شيئًا يخصها هي وحدها.. فلم أجد أجمل من زهورها الحمراء.

أدخل العوامة متجهًا للمطبخ حيث ألمح أمي تمسك (وابور

الجاز)، يبدو أنه مسدود وها هي ذي تحاول تسليكه بوضع سن الإبرة في ثقبه مرة تلو مرة.. بدت لي كأنها في صراع معه يشبه صراعها مع حزنها طوال عمرها، حتى يخرج الدخان مندفعًا بشدة.. تمد يدها بورقة مشتعلة فيتأجج اللهب.. تنتصر فردوس -أمي- كما تفعل دومًا.. كيف لقلب مثلها أن يهزمه الحزن وهو يدخر بين ضلوعه كل هذه القوة؟

- وصلت؟

تقولها بصوتها الحنون الذي اكتسب نبرة عاتبة مؤخرًا، فيبدو سؤالها محملًا بالكثير من المعاني كأنها قرأت أفكاري، تضع قِدر الطعام على النار وهي تغمغم بنبرة ذات مغزى:

- يجب أن تسلّكه كل فترة كي لا تتراكم الترسبات فتسدّه.. و(ابن بطني يفهم رطني)! ها؟

أطرق برأسي دون رد وأنا أفهم ما تعنيه، فتقترب لتربت على كتفي بسؤالها:

- كيف هي (وليفتك)؟

أرمي نفسي في حضنها وأنا أتمنى لو عدت طفلًا صغيرًا يعترف بحزنه وأسفه بين ذراعيها، فتجبر كسره بقبلة وعناق ودعوة للسماء.. منذ تزوجت فايزة وأمي تصر أن تلقبها ب

(وليفتي)! كأنها تذكرني بمكانها في قلبي بعيدًا عن ماضينا مع أبيها.

- لم أكن راضية عن هذه الزيجة من البداية.. عقلي كان يخبرني أنها ليست من (توبنا) وقلبي كان يخاف عليك وعليها.. عليك من أن يجرفك أبوها في تياره كما فعل بأبيك.. وعليها من أن تجرفها أنت في تيار انتقامك من أبيها.. لكنني عندما رأيتكما معًا أيقنت أنك وجدت شيئًا ناقصًا منك فيها.. فيها هي وحدها.. وليس أسهل على قلب أم من أن تدرك أن ابنها صار أخيرًا راضيًا بامرأة تمنحه كمال روحه! (أهل السماح مِلاح) يا ولدي.. لا تتركها أبدًا.

- وكأنني أحتاج لوصية!

أتمتم بها مستنكرًا بمرارة وأنا أبتعد مشيحًا بوجهي فتتنهد بحرارة وهي ترفع كفيها بدعائها:

- قادر.. كريم.. يجبر الكسر.. ويدبر الأمر.

أغادرها شاعرًا أنني أتهاوى في بئر حزني أكثر.. أتوجه نحو (الجرامافون) لأشغل أغنيتنا لعلي ألتمس منها بعض الدفء.. أبتسم بشجن وأنا أسمع مواء (سيزار) والقطة الجديدة التي اشتريتها شبيهة لـ(لوسي) وتحمل نفس الاسم.. أرفعهما وأنا أهمس لهما (كونا دومًا معًا.. لا يفرقكما شيء) وكأنني ألتمس

من قولي بشارة بخاتمة مماثلة مع فايزة.. يتملصان من بين ذراعي سعيًا خلف رائحة الطعام الذي تعده أمي في المطبخ فأتوجه نحو شرفة عوامتي أرمق الشمس الغاربة بوجوم..

تظن فايزة أنني التقيتها أول مرة هنا في العوامة عندما تسللت (لوسي) خلف رائحة السمك؛ لكن الحقيقة أنني رأيتها قبل ذلك بعدة أعوام.. عندما وصلت هنا للقاهرة كان أول من بحثتُ عنه.. (فوزي نصار).. وددت لو كان مقيمًا هنا في عوامته جوار عوامة أبي؛ لكنه كان يقيم في فيلّته بالزمالك.. بقيت أيامًا أحوم حولها وأنا لا أعرف ماذا أنتظر ولا من أنتظر، حتى لمحتها هي تغادر أوتوبيس المدرسة، كان أول ما تعلقت به عيناي منها هو لون مريلتها الأسود، حرملتها البيضاء، حقيبتها التي تحتضنها أمام صدرها، ضفيرتاها الطويلتان تنتهيان بشرائط بيضاء، حذاؤها الأسود النظيف، وأخيرًا عيناها، عيناها قصة وحدهما! كل سواد ينذر بظلمة عدا سواد عينيها يشبه ألف قمرا بعد سنوات ستخبرني أنها تكره عينيها بسبب -ما تراه هي- حوَلًا طفيفًا فيهما؛ فأتعجب، كيف وهما منذ أول مرة وقع عليها بصري كانتا أجمل ما رأيتُ من عيون النساء! لن أكذب فأدعي أنني أحببتها من أول نظرة، كيف وقد كنت أراها بعين (حقدي) ابنة الشيطان الذي أغوى أبي ودفعه لحافة الهاوية! خاصة وقد رأيته هو (فوزي نصار) نفسه ساعتها يستقبلها أمام

البيت، يبسط ذراعه بهيمنة مسيطرة على كتفيها ليحدثها بكلام لم أسمعه لكنني تخيلته.. لماذا تحتفظ هي بأبيها بينما حرمتُ أنا من أبي؟ لماذا يهنأ هو بحياته بينما فقد أبي كل شيء؟ قضيت ليلتي تلك مسهدًا وقد اختلطت صورة فوزي بصورتها، موّه الحقد كليهما فصارت ملامحهما بعيني واحدة! وعندما نمت رأيت (فوزي) في كابوسي يدفع أبي ليسقطه في بئر عميق، مددت كفي لأبي لكنه ظل يصرخ، وخلفي كان الناس يعيرونني بندائهم (ابن السفيه)، وأمامي كانت عيناها هي.. فايزة بمريلتها السوداء -كقلب أبيها- تكتف ساعديها وتنتظرني!

استيقظت من كابوسي على ربتة من كف خالي عواد وكان قد أتى لزيارتي في العوامة، حوقل وهو يناولني شربة ماء ودون مقدمات نهرني بغضب مكتوم:

- ذهبت لبيت ذاك الرجل؟ ألم أنصحك مرارًا ألا تقربه؟ كنت أعرف أنك ستفعلها! ماذا تظن نفسك فاعلًا؟ تظن هذا ثأر أبيك؟ هو لم يُرغم أباك على شيء.. أبوك تبعه مختارًا وليس مجبورًا.

- لكنه من أغواه.

- اسمع يا ولدي.. ما رأيتُ أضل ممن يبيع يومه لأجل أمسه.. دع الماضي يسكن القبر مع من سكنه وانتبه للغد كي

لا يلحق بهما.

أطرقت برأسي دون رد لكن خالي بسط كفه المفرود بيننا قائلًا بحسم:

- عِدني ألا تسعى لذاك الرجل مرة أخرى.

ترددت ساعتها قليلًا أمام (الكف الكريم) الذي طالما أغدق على العطايا؛ لكنني حسمت أمري ومددت له كفي بدوري أمنحه عهدًا صممت على الوفاء به.. فليذهب فوزي للجحيم.. هو وكل ما يخصه!

كم مر بعدها؟ عام.. اثنان.. ثلاثة؟ لا أذكر.. فقد مضت بي الأيام متشابهات في عملي المقسم بين مطروح والقاهرة.. كبرت تجارتنا وتيسر حالنا أكثر وأكثر، كنت أختار مقامي دومًا في القاهرة في عوامة أبي.. تعرفتُ على (الريس أبو زكي) وزوجته وقد كان الرجل يذكر أبي ويحبه فتوطدت علاقتي به، كذلك تعرفت على (عبد العظيم باشا) و(مدموازيل إيريني) وبعض جيراني في العوامات المجاورة، كانوا يعرفون عن أصلي البدوي وموت أبي؛ لكن لا أحد كان يعرف علاقته بفوزي نصار ولا كيف انتهت حياته.. ربما هذا ما ساعدني أن أنسى الماضي أو أظن أنني نسيته، ومن حسن حظي أن فوزي لم يكن يزور عوامته المجاورة لي -على الأقل لم ألمحه في زياراتي القصيرة للقاهرة-

فنجحت أن أفي بوعدي لخالي.. حتى رأيت فايزة لثاني مرة!

كانت ليلة حارة من ليالي أغسطس، خرجت فيها لشرفة عوامتي أتنسم بعض الهواء اللطيف، ليقشعر جسدي وأنا أرى عوامة فوزي مضاءة صاخبة كأنها وسط هذا الليل شعلة من نار.. أنغام عالية تنبعث منها واشية بنشوة أصحابها وغارسة في صدري شعورًا بالقهر.. هل ذهب أبي هناك يومًا؟ هل يمارسون لعب الأوراق كما كان يفعل؟ هل من بينهم من سيفقد عقله مثله بعد خسارة ماله فيترك خلفه ابنًا محطمًا؟

فلأذهب لهناك، أحطم كل شيء فوق رؤوسهم، أفسد (البارتيتة) هذه فأنقذ الصالح وأقطع الطريق على الباغي!

كانت هذه أفكاري التي أمسكت لجامها بقوة قبل أن تنجرف بي وقد تذكرت وعدي لخالي.. لهذا كظمت غيظي كارهًا وأنا أعود للداخل، و.. لمحتها!

هي فايزة.. رأيتها عبر النافذة وقد بسط فوزي ذراعه القذر عليها أيضًا كأنها عادته معها، كبرت هي فصارت أجمل وأجمل مما رأيتها أول مرة.. كأن حسن النساء كله قد أمطرته السماء وبذرته الأرض على محياها!

عيناها بقيتا كما رأيتهما أول مرة واسعتين كبحر بلا شطآن، واعدتين كغيث كريم على وادٍ قفر، وحزينتين كليل

ضل قمره وسط ظلماته!

كانت ترتدي ثوبًا أظهر مفاتنها بوضوح كأنها تعرض جسدها، فقلت لنفسي (وما أنتظر من ابنة رجل كفوزي؟) لكن ضحكتها كانت قصيرة كسيرة مفتعلة.. ومن مثلي يمكنه تمييز ضحكة كهذه؟ مع نظرة زائغة كأنها تبحث عن شيء ضاع منها للأبد ولن يعود!

وهكذا كان حقدي يحاول (شيطنتها) فتنتصر عيناها لـ(ملائكيتها) في كل مرة كنت أراها فيها بعدها.. وما ظننت أنني سألتقيها؛ لكن الباب الذي أوصده وعدي لخالي.. عادت (السرايا) تفتحه!

- مراد غريب.. صحيح؟

لا أزال أذكر أول لقاء لي بذاك الضابط من الحرس الملكي في نادي الخيل، حيث كنت أقضي بعض أوقاتي عندما أزور القاهرة.. أومأت له برأسي فعرّفني بنفسه ليرتعد جسدي برهبة خفية من مركزه ثم سار بي نحو الركن الخلفي من النادي حيث وفّر لنا رجاله عزلة مناسبة، وفوجئت به يعرف كل شيء عني، بل وكيف مات أبي بعدما فقد أمواله كلها وعلاقة هذا بفوزي نصار.

- عفوًا.. وما علاقة هذا بـ(السرايا)؟!

سألته بتحفز ليرد بوضوح:

- فوزي يرتبط بصداقات عديدة مع نخبة من رجال الإنجليز، تجمعهم (بارتيتة) اللعب، هناك تتباسط الألسنة المغلقة وتنكشف الخبايا.. كفة الميزان الآن متوازنة بين الألمان والإنجليز؛ لكن معلومة واحدة مهمة قد ترجّح إحدى الكفتين وتطيش بالأخرى؛ لهذا نريد منك أن تكون عيننا هناك.

- ولماذا أنا؟ يمكن لأي أحد أن يفعلها!

- أولًا لأننا نضمن إخلاصك في صدق نيتك بالإيقاع بفوزي مع أول فرصة، فهو عدو لكلينا.. وثانيًا لأنك تملك العوامة المجاورة لعوامته حيث صارت تقيم ابنته وحدها بعد سفره لإنجلترا الذي نشك كثيرًا في أسبابه.

- وما علاقتي بابنته؟

- هذا هو مربط الفرس.. فوزي داهية شديد الحذر.. لا يمكننا زرع أحدهم داخل بيته دون أن يشك فيه.. لكن لو وثق بك حدّ أنك صرت زوج ابنته فستصير أسراره كلها في جيبك.. يعني.. جيبنا!

- زواج؟

همست بها مصدومًا باستنكار ليقول الرجل بين ترهيب وترغيب:

- لا تفكر في الرفض! هي خدمة جليلة لـ(السرايا) لن ننساها لك.. زواج مؤقت حتى نحصل على بغيتنا.. هي فرصتنا الآن بينما سافر (فوزي) وترك ابنته مع عمتها هنا في عوامتها جوارك.. عمتها ضعيفة الشخصية ولا تفرض أوامرها على الفتاة التي نريدها أن تكون قد تعلقت بك قبل عودة (فوزي)، وساعتها تطلب يدها منه كي يبدو الأمر طبيعيًا ولا يثير شكوكه.. ولا أحتاج لأن أخبرك بسرية الأمر.

قضيت ليلتها مؤرقًا ولا أعرف ماذا أفعل.. جزء بداخلي كان يحتقر خداعي لفتاة مهما انحط شأن أبيها، وجزء آخر كان يقنعني أنني مجبور ولا حيلة لي، وبينهما طيف هزيل شاحب من الماضي يخبرني أنها فرصتي ليصير حقًّا مقاس (الخاتم) مناسبًا لي! ويبدو أن الأخير حسم الصراع فقد ارتديت خاتم أبي بعدها، وقد قررت أن أنفّذ ما يريدون مني فعله وما صرت أريده مثلهم.

خالي؟ رفض بشدة أول الأمر هاتفًا باستنكار (حد الله بيننا وبين ظلم الحريم)؛ لكنني أخبرته أن الأمر ليس باختياري، وأن عدم موافقتي تعني تحديًا صريحًا لرجل (السرايا)، وهي تهمة تساوي الإلقاء خلف حدود الشمس؛ فاحمرّ وجهه

بعجز مقهور؛ لكنني منحته وعدي أنني لن أؤذي (الفتاة)، وأنني سأراعي الله فيها ما استطعت متى تزوجتها وحتى أطلقها.

أجل.. لم تكن فايزة وقتها في عيني أكثر من (مهمة ثقيلة) أؤديها كارهًا حتى تنتهي.. ولزمت عوامتي منتظرًا فرصة تجمعنا، فرصة منحتني إياها (لوسي) عندما انجذبت لرائحة السمك فيما كانت تظن فايزة أنه لقاؤنا الأول.. ووجدتني أنظر إليها من قرب؛ لألمح في عينيها نفس النظرة التي رأيتها منذ زمن (نظرة زائغة لمن فَقَد شيئًا للأبد ولن يعود)؛ لكنها أهانتني يومها وهي تعاملني بغطرسة قبل أن ترسل لي (ثمن السمك) مع عم (نوح) فيما ناسب تخيلي لـ(ابنة فوزي نصار).. لهذا تخففت من وزر شعوري بالذنب نوعًا ما.

كم أجبرت نفسي على عدم التأثر لكن سحرها الغريب كان يبسط سلطانه على روحي في كل مرة التقيتها فيها بعدها في أول نزهة لنا على مركب الريس (أبو زكي)، وكم بدت لي بسيطة وحيدة راضية بعزلتها بعيدة تمامًا عن صورتها بثوبها الفاضح الذي كانت ترتديه تلك الليلة و(فوزي) يبسط ذراعه على كتفيها! كانت تتكلم عن نفسها بنهم عفويّ كأنها المرة الأولى التي تجد فيها من يهتم أن يسمعها، فبدت لي مختلفة تمامًا عن صورتها القديمة في عيني.. كل ما فيها كان سلسًا

سهلًا بسيطًا كالأنفاس عندما تدخل الصدر وتغادره، لكنه فخم مهيب مقدس كسرّ الروح الذي لم يفطن إليه أحد!

وبينما كانت تحكي تعثرت وكادت تسقط، لولا أن تشبثت بها بين ذراعي، وحينها شعرت أن شيئًا ما يهمس داخلي أنني لن أتركها تسقط أبدًا!

أحببتها؟ لا أعرف متى بالضبط شعرت بهذا! أنا اضطررت للسفر لأمي بعدها إذ مرت بوعكة بسيطة وقد كانت فرصتي للابتعاد عن صخب مشاعري؛ لكنني عدت لأجد فايزة في عوامة (إيريني) ترتدي أجمل ثوب رأيتها فيه، وحولنا انسابت أنغام غنوتنا (جفنه علم الغزل) وكأنها تشكل حبلًا سميكًا غير مرئي يشد أحدنا لصاحبه؛ لكنها بدأت في التباعد بعدها لسبب لم أفهمه حتى أخبرتني فيما بعد أن عمتها كانت تخوفها من التقرب إليّ فقد كانت كلتاهما تعلم أن ما تعيشانه مجرد هدنة مؤقتة حتى عودة (فوزي)؛ لكنني التقيتها بعدها في نادي الخيل، شعرت بغيرتها صارخة عندما تقربت إحداهن مني وكادت هي تهرب؛ لكنني أدركتها في الوقت المناسب، صرّحت لها بمشاعري ولمحت في عينيها مشاعر مشابهة.. فعرضت عليها الزواج.

هل كنت كاذبًا؟ تمنيت ساعتها لو كنت كذلك! لو كان ما أشعر به من حب نحوها مجرد (حالة مؤقتة)؛ لكنني وجدت

قلبي يركض نحوها كجواد مزق لجامه لتوه وأضحى يجرب لأول مرة في حياته حرية الركض، ووجدتني أسحبها لعالمي.. دعوتها وعمتها لزيارة قبيلتي في مطروح، هناك حيث حفرت اسمينا على ما أسميتها (صخرة الوعد)، كنت أشعر أنني لا أنفذ مخططًا بل أسير بكامل إرادتي لأدمغ عالمي كله بصورتها، وهناك أهدتني هي أول (أحبك) على رمال الوادي فشعرت أنني ملكت الدنيا وما فيها.

عدنا للقاهرة وازدادت علاقتنا تماسكًا؛ لكنها كانت تخاف عودة (فوزي)، صارت أكثر حميمية في البوح وهي تروي لي المزيد من تفاصيل طفولتها ومراهقتها، فوجدت نفسي أشبّهها بـ(مسك الليل)، تلك الشجرة التي لا تبالي بالظلمة ويفوح عبيرها ليلًا، يومًا بعد يوم كانت علاقتنا تتوطد وكل منا صار الأقرب لصاحبه كأنه صورته في مرآة.. تُراني أكون كاذبًا لو زعمت أنني في تلك الفترة نسيت أنها (ابنة فوزي)، لم تعد في عيني سوى (ابنة قلبي) أنا! الفتاة ذات (المريلة السوداء) التي رأيتها أول مرة منذ سنوات غير أنني قصصت وجه (فوزي) من الصورة!

أنا الآخر صرت أكثر حميمية في البوح لها، وذات ليلة عندما دعوتها لعوامتي، وجدتني مشتاقًا لأريها تماثيلي التي نحتتها..

- (تهبل) يا مراد.. من علمك؟!

همستْ بها يومها في انبهار وعيناها تلتمعان بشغف أشعل صدري، فوجدتني أحكي لها عن نفسي، عن لعنة (ابن السفيه) التي لاحقتني، عن أبي، علاقتي به وحرماني منه.. أبوح لها بماضيّ وذكرياتي معه ورغبتي في الانتقام ممن تسبب في موته؛ لكنني لم أذكر لها من هو.

- ليتني كنت معك طوال هذا العمر.. أمسح حزن الأمس وأرسم لك فرحة الغد.

همست بها ببراءة أذابتني وهي تضم رأسي لصدرها.. كيف يمكن أن يُختزَل العالم في عناق؟ أن يختزل العمر في ساعة؟ أن يختزل العشق في جسد بهذه الضآلة وقلب بهذه السعة؟ فقط معها هي وجدت كل هذا ممكنًا!

تنقطع ذكرياتي وأنا أشعر بالنسيم حولي يحمل لي رائحة (مسك الليل) كأنه يتآمر على مع اشتياقي..! أتحرك نحو آخر تمثال نحتته هنا..

- سأصنع لكِ واحدًا.. ليس فقط كي أستحضر ملامحك الجميلة كل وقت.. لكن لأن وجهًا كهذا يستحق أن يخلده فن عاشق.

أتذكر يوم قلتها لها وها أنذا وفيت بوعدي.. ليتها معي هنا

لتراه.. لترى صورتها بعيني كما هي بقلبي.

أناملي تتحسس وجه التمثال الذي حمل ملامحها بشجن وطوفان الذكرى يبتلعني من جديد..

جنة قصيرة عشناها معًا حتى عاد (فوزي) من إنجلترا لتذكرني عودته بما ينبغي عليّ فعله.. تَقدمتُ لخطبتها منه وبداخلي رهبة خفية أن يتذكر اسم أبي؛ لكن المضحك المبكي أنه لم يفعل! يبدو أن ضحاياه كانوا كثيرين حد أن (الفأس) لم يتذكر كم شجرة نالها أذى نصله!

رفضني أول الأمر، ووجدت فايزة تفاجئني ذات ليلة بهروبها من بيتها إليّ.. وقتها تمنيت أن أستبقيها لنفسي، أن أصرخ في وجه العالم أنها امرأتي أنا ولن يبسط أحدهم أي سلطان عليها سواي؛ لكنني كنت مقيدًا بثقل التزامي نحو (السرايا)، ووجدتني أضرب عصفورين بحجر واحد وأنا أخبرهم برفض (فوزي) لي، فسهلوا لي إلقاء (الطعم) الخادع الذي انجذب له فوزي، صفقة سلاح لصالح (سيمون) ومن معه نجحنا في تمريرها عبر الصحراء بمساعدة خالي وقبيلتي.. ساعتها نظر لي (فوزي) بعين جديدة.. البوابة التي ستفتح له كنوز الإنجليز المهرّبة من وإلى الخارج!

تزوجت فايزة.. كانت أسعد ليلة في عمري وأنا أشعر أنني نجوت بها من جحيم (فوزي نصار)، اشتريت لها بيتًا أبعد ما

يكون عن فيلّته؛ بل وعن عوامتي كأنني أهرب بها من كل شيء.. حتى من الماضي!

لكنني عندما اختليت بها ليلة زفافنا فوجئت بها ترتعد خائفة بين ذراعيّ، قدّمت لي شرابًا لكنها كسرت الكأس بسرعة قبل أن يصل إلى شفتيّ، ولما أبديت دهشتي أخبرتني بما أفجع قلبي.. (الفأس) لم يكسر شجرتي فحسب.. كسر شجرتها كذلك!

كيف أصف شعوري ليلتها وسوط الحقيقة يجلد ظهر رجولتي؟ لن أنكر صراعًا قاسيًا ألهب ضلوعي وأنا أراها وقتها بعينين متناقضتين، إحداهما تُبصرها كـ(ابنة فوزي) الفاسدة مثله، والأخرى كـ(ابنة قلبي) الضحية مثلي!

صراع لم يحسمه سوى زيارتي لذاك الوغد الذي آذاها، لا أذكر أنني كنت عنيفًا في حياتي كتلك الساعة وأنا أكيل له لكماتي حتى انتزعت منه الحقيقة.. وثأرت لعِرضي غير نادم على قتله..

قتله! لم أتصور يومًا في حياتي أن أرتكب فعلًا متطرفًا كالقتل! لكنني لم أشعر بنفسي وأنا أتخيل ما عاشت تقاسيه فايزة بسبب ذاك المجرم!

وددت لو فعلت المثل بـ(فوزي)؛ لكنني واسيت نفسي أنني

أعد له نهاية أقسى من الموت!

عدت إليها حاملًا دليل براءتها، فشعرت وكأنها ولدت من جديد بعدما انهار آخر سد كان يفصل بيننا.. لن أنسى نظرتها حينها وهي تمرغ وجهي في صدري، تزرع نفسها بين ضلوعي، تطبع شفتيها على موضع قلبي كأن كل قبلة ضمادة.. ضمادة تمتص حقد الماضي وتذكّرني أنها صارت جزءًا مني بل صارت (كلّي)!

- كان رغمًا عني.. أقسم لك.. بحق أغلى ما بيننا -وكل ما بيننا غالٍ- أنه لم يمسني أحد بعده، لم أفرط في شرفي لا قبلها ولا بعدها.. كانت المرة الوحيدة التي وقفت فيها في وجه فوزي نصار.. لأجل هذا!

كلماتها المرتجفة كانت تناقض قوة يقينها -ويقيني معها- ببراءتها!

كنت أتمنى لو تقترب نهاية (فوزي) ويقترب معها شعوري بالخلاص لي ولها؛ لكن صلته بـ(سيمون) كانت تثير اهتمام السرايا أكثر؛ خاصة مع صفقة السلاح الأخيرة بعد اشتعال الحرب، والأنباء التي كانت تتناثر عن قرب وصولها لمصر عبر الصحراء وبالتحديد عند العلمين.

تلك الصفقة التي عرفت بعدها أن فوزي قد تسلل من خلف

ظهر سيمون وقام بالسطو عليها خلسة ليخفيها في مكان مجهول.. يزعمون ألا أحد صار يعرف مكانه سواها هي.. فايزة!

- أنت واقف هكذا منذ ساعة.. ألا تستريح يا ولدي؟! الطعام جاهز.

تقطع بها أمي شرودي فأنتبه لليل الذي أرخى سدله على السماء، ألتفت إليها بابتسامة شاحبة لتربت على رأسي وهي تدعو لي، ثم تشير لـ(مرسم) فايزة الخشبي الذي حمل لوحتها لمشهد شرفة العوامة والنيل، تلك اللوحة التي أهدتها لأمي في أول لقاء لها بها..

- عندما أهدتني إياها (وليفتك) شعرتُ أنها ردت لي جزءًا من عمري.. في هذه العوامة قضيت أجمل أيامي مع أبيك.. وتمنيت أن تقضي أنت أجمل أيامك فيها معها.. وليس أجمل من هدية تلم شمل الأمس والغد.

بحنين صار يلدغني ألتفت حيث تشير فأشعر بجسدي كله يخزني اشتياقًا.. هل تعود لي يومًا؟ هل تصدقني؟ هل تسمعني؟ بل هل تسمح أن تراني وقد صرت بعينيها مجرد (رجل ميت)؟ قتلني (عقلها) بعدما عجز (قلبها) أن يفعل!

هزة العوامة تُنذر بخطوات على السقالة، فأتوجه للخارج

مستكشفًا الطارق..

- خطوة عزيزة.

تهتف بها أمي مرحّبة بينما أرمق الزائريْن بنظرة أهلكها الشجن رغم ابتسامة فرضها حضورهما..

- كيف حال فايزة؟

تبادرني بها (إيريني) بحنان أموميّ غلّف مصافحتها الرقيقة فيما ينعقد حاجبا (عبد العظيم) باشا وهو يصافحني بدوره متسائلًا بقلق:

- ما زالوا يمنعون زيارتها؟

أومئ برأسي إيجابًا، ثم أخفضه في خزي؛ لكن إيريني تشد على كفيّ بقبضتيها هاتفة بإشفاق:

- لا تقسُ على نفسك.. يومًا ما ستعرف الحقيقة كما عرفناها.. ستدرك أنك لم تخدعها.

ومن يقنع قلبي بالصبر حتى يحين ذاك اليوم؟

صوت صفارة الإنذار يُرجفنا جميعًا بالرهبة المعهودة منذ بدأت غارات الحرب، فأتحرك بسرعة لأطفئ جميع الأنوار..

- العوامات لم تعد آمنة.. البيوت أكثر اطمئنانًا مع المخابئ

تحتها.

يقولها (الباشا) بقلق فأتنهد بحرارة وأنا أوافقه على حديثه.. بينما أسمعه يردف:

- الأربعاء الماضي الموافق أول يوليو أسموه هنا في القاهرة (أربعاء الرماد)؛ حيث بدأت السفارة البريطانية وقيادة الجيش البريطاني في إحراق كميات ضخمة من الملفات وأصبح الهواء ثقيلًا بالدخان، بل وتطايرت ندف الأوراق المحروقة فوق منطقة قصر العيني مثل تطاير ندف الجليد الأسود.. تصور أن باعة الحمص واللب يصنعون قراطيس صغيرة من أوراق نصف محروقة كانت يومًا ما تحوي معلومات بالغة السرية.. حالة شديدة من المبالغة في ردود الفعل؛ حتى أن الأوامر صدرت للضباط الإنجليز بحمل المسدسات وقطع الطريق في وسط القاهرة من الساعة الثامنة مساء وحتى السابعة صباحًا دون أي تفسير أو اهتمام بطمأنة المواطنين المصريين.

مارد عملاق داخلي يكاد يعتصر ضلوعي.. مارد اسمه الخوف.. خوفي على أمي.. على قبيلتي وأهلي.. وعلى (فايزة).. ألا لعنة الله على هذه حرب!! تدور على أرضنا قسرًا فتحصد أرواحنا ولا شأن لنا بأطرافها.

- كلمني عن فايزة.. هل سمحوا لك برؤيتها؟

تنكأ إيريني الجرح من جديد، فيتحشرج صوتي بجوابي:

- عندما رأتني ظلت تصرخ حتى أغشي عليها.. بعدها منعوني من مقابلتها.

بكاء إيريني يشق الظلمة بيننا؛ فيما أسمع صوت حوقلة أمي ودعواتها الخافتة، ليصلني صوت الباشا الآسف:

- مسكينة! عندما قابلتها أول مرة على مركب (الريس زكي) وعرفت رقم عوامتها لأدرك أنها ابنة (فوزي نصار) بسمعته المعروفة، تعجبتُ أن ينبت الصخر القاسي نبتة رائعة كهذه.. البائسة كانت تتحاشى دومًا الكلام في السياسة، ليورطها نسبها في تلك الحفرة التي زلت فيها قدمها.

صوت القصف يدوي من بعيد مُلقيًا الخوف في قلوبنا، فأدير دبلتها في إصبعي وأنا أحاول مقاومة شعوري الجارف أن أضرب بكل شيء عرض الحائط، أحطم كل ما ومن يقف بيني وبينها فلا أتركها إلا أسيرة ذراعيّ، جارة قلبي، آه لو تعلم أنها لم تكن تحتاج الكثير لتنتقم مني! يكفيني شعوري أنها أعطتني ظهرها.. أنها بعدما سكنتني عمرًا لفظتني شاعرة بغربتها.. بل بغربتنا معًا!

تدوي الصفارات من جديد مُنذرة بانتهاء الغارة فأتحرك لأضيء الأنوار من جديد، غير غافلٍ عن ظلمة بقلبي لن

ينيرها إلا رفيقة القلب وحبيبة الروح.

***

النغمة الثامنة

(إذا أردت الانتصار في جميع معاركك فأطلِ النظر في مرآتك، واعلم أنك ساعتها تنظر لأشد أعدائك بأسًا.. فإن هزمته صارت هزيمتك لغيره أسهل!)

في غرفتها بمستشفى (العباسية) تقف أمام مرآتها، هل يتوه المرء عن صورة مرآته؟ نعم.. كثيرًا.. عندما يُجبِرك الغدر أن تغمض إحدى عينيك لتبقى الأخرى قاصرة تتسول كمال الصورة.. عندما يجبرك العجز أن تغلق إحدى فتحتيْ أنفك فتبقى الأخرى مشتاقة لعبق الماضي.. عندما يجبرك الوجع أن تسد إحدى أذنيك فتبقى الأخرى متلهفة لسماع اسمك من شخص يقسم أنه يعرفك.. وعندما تجبرك بقايا مقاومتك أن تتجاهل هذا كله فترضى بنصف صورة.. بنصف عطر.. بنصف صوت.. بنصف شخص كان يومًا ما «أنت»!

طال شعرها قليلًا فلم يعد قصيرًا كشعر (فايزة)؛ لكنه لم يصل بعد لطول شعر (غزل)، ولا يزال يفتقد زهرتها الحمراء.. أثر باهت من شامتها السوداء المرسوم جوار شفتيها يتراقص كذلك على حد الـ(بيْن بيْن).. صارت تتقبل أن ترتدي ثوب المرضى هنا بلونه الباهت الكئيب؛ برغم أن عصمت سمح لها بارتداء ما يحلو لها من ثيابها.. ثِقَل دبلة (مراد) في إصبعها لا يزال يؤلمها.. لا تزال الرؤى مشوشة.. ضبابية.. ملطخة بسواد الذكريات.. ومختنقة برائحة الدخان.. حتى أنها تسأل نفسها.. هل نجت من الحريق حقًّا؟

حقيقة واحدة صارت تصدقها بعد المواجهة الأخيرة.. مراد لا يزال حيًّا.. لم تقتله (فايزة) انتقامًا.. لكن (غزل) فقدته

للأبد!

وهي؟ هي من هي؟ هي المزيج المجنون من كلتيهما!

أوراق (الكوتشينة) متناثرة على الفراش أمامها.. فلا تميز منها سوى ملكة بقلب أحمر كسير.. وفارس بقلب أسود كاذب.. وملك بقلب أسود جشع.. و(جوكر)؟؟ لا.. لم يعد هناك (جوكر).. لم يعد هناك من يستحق اللقب وقد خرج الكل مهزومًا خاسرًا!

طرقات الباب تصفع إدراكها فتنكمش على نفسها بخوف؛ لكن ملامح عصمت المطمئنة تهدهدها فتسترخي متراجعة للخلف تستند على ظهر وسادتها.

نظرة شمولية للمشهد تمنح عصمت الاستنتاج الصحيح وهو يجلس جوارها على الفراش.. كان على حق عندما اختار أن يصدمها في تلك الليلة بمصارحتها بالحقيقة ومواجهتها بمراد.. وها هي ذي صارت تتقبل أن غزل هي فايزة.. كلتاهما داخلها.. بقي فقط أن يجعل كلتاهما تصالح الأخرى.. فليس أسوأ من أن يعيش المرء وداخله نقيضان يتصارعان!

العامة يظنون أن الطبيب النفسي يملك دومًا العصا السحرية التي يشير بها لموضع العطب فينال الشفاء، ولا يعلمون أن الطبيب في كل حالة يتحسس طريقه كأعمى

يتبين الطريق لأول مرة.. خاصة مع حالة معقدة كهذه تحتاج منه كل ذرة اهتمام كي يصل للزر المطلوب.. يضغطه فيضيء كل هذه العتمة داخلها!

- كيف حالك اليوم؟

إيماءة خافتة منها اكتفت بها كجواب!

- تحبين أن نخرج للحديقة؟

هزة رأس بالنفي..

- تقرئين (الجورنال)؟ تسمعين (مزيكا)؟

هزة نافية أخرى دون أن تفتح عينيها فيفاجئها بسؤاله:

- هل تثقين بي؟

يرتجف جفناها عدة مرات كرفرفة سرب من فراشات ينتظر الفرصة كي يحلق مبتعدًا.. تفتح عينيها لتمنحه الجواب منطوقًا هذه المرة:

- نعم.

يتنهد بارتياح شاعرًا أنه نال أعظم انتصاراته.. طوال الأيام السابقة وهو يترقب شفاء من نوع آخر غير استجابتها الدوائية.. على الأقل هو الآن يقف على أرض ثابتة معها..

ولعل هذا ما شجعه للانتقال للخطوة التالية:

- أخبريني إذن بماذا تفكرين.. ماذا حدث بينك وبين عمتك بالأمس؟

كان قد سمح لها بالزيارات على نطاق محدود، بدأها بـ(مراد) لكن فايزة كانت ترفض رؤيته، تعتريها نوبة من صراخ كلما تبينت ملامحه وإن كانت قد اعترفت بوجوده؛ لكنها لا تزال تنفر منه.. لهذا انتقل منه لـ(عمتها) ظنًّا منه أنها قد تستجيب..

أناملها تتحرك نحو وعي لورقة (الكوتشينة) التي تمثل الملكة ذات القلب الأحمر.. تتحسسها بشرود يحتضن جوابها:

- طيّبة هي عمتي! تعرف أنها هي السبب في أن أقابل مراد؟ أجل.. هي لم تكن تحب (فوزي) كثيرًا وقد كنت أعرف طوال عمري أن علاقتهما متباعدة.. لكنه عندما اضطر للسفر للندن وتركي هنا وحدي جعلني في رعايتها.. ولأنها لم تكن تحب (الفيلّا) اقترحت أن نقيم في العوامة.. هناك.. حيث قابلت (مراد) لأول مرة.

يبتسم برضا وهو يراها تصالح بعض ذكرياتها.. توحد الطريقين بين (غزل) و(فايزة).. لم تقل (غريب) بل قالت (مراد).. تَقدم ممتازا!

- كانت تحذرني منه أول الأمر؛ لأنها كانت تخاف عليّ أن يغدر بي كما غدر بها زوجها.. كل الذكور في حياتها كانوا أشباه رجال.. أبوها كان النبتة المثالية لبذرة مثل (فوزي).. زوجها طلقها عندما تَبَين له عجزها عن الإنجاب متناسيًا قصة حب طويلة جمعت يومًا بينهما.. وأخوها بطبيعة الحال لم يكن أفضل من كليهما.. طالما كانت تخبرني أن الحب كالبحر الكبير.. يغرنا لُطف شطآنه فتنجذب خطواتنا لهدير موجه الناعم.. حتى إذا أَمِنّا غرقنا!

- هل لامتكِ بالأمس لأنك لم تستمعي لنصيحتها من البداية؟

- لم يقلها لسانها لكن فاضت بها عيناها.. كنت أظنني (ابنة أبي) التي لن يخدعها رجل ولن تضللها عاطفة.. لكن الحقيقة أنني كنت مجرد طفلة ضعيفة تراقب المرئيات من تحت الفراش وعندما امتدت لها يد لتخرجها من تحته.. تجرأت وأمسكتها لتغادر.. لكن الضربة الغادرة على رأسها أسقطتها بعيدًا عن كل شيء.. حتى عن أمان عزلتها تحت الفراش!

- ماذا لو لم تكن (غزل) بهذا الضعف الذي ظننتِه؟ ماذا لو أنها غيّرت مراد حقًا؟ ماذا لو أن حبها نَزَع من قلبه انتقامه؟ لماذا لا يكون أحبكِ بصدق؟

- وهل يكذب العاشق؟ أنا صارحته بكل شيء.. كنت أمامه

كتابًا مفتوحًا.. حتى تفاصيلي المخزية سكبتها أمامه دون تحفظ.. وهو؟ هو أبى إلا أن يكون طعنة الظهر وخبطة الرأس وزلزلة القدم!

- اسمعي منه.. ربما..

- لا! ما الذي سأسمعه؟ المزيد من الأكاذيب؟ مصلحة جديدة يريدها مني؟ بالأمس كان يسعى خلف انتقامه من (فوزي).. واليوم كلهم يسعون لمعرفة مكان صفقة السلاح.. ليتني أذكرها لينتهي كل هذا العبث.. ليتركوني وشأني!

تقاطعه بها صارخة فيدرك أنه أخطأ الهدف ليحيد نحو مرمى آخر:

- ما الذي يرضيكِ إذن؟

تنفرج شفتاها كأنها على وشك الرد، لكنها تصمت وهي تفتح كفيها بعجز، تراقب أوراق (الكوتشينة) على الفراش، تتمتم بعد لحظات:

- أنا عشت دور (الضحية) فلم أسترح.. وعشت دور (الجاني) فلم أسترح كذلك! كلاهما مزقتني نصاله.. فهل لمثلي راحة؟!

- تسمعين عن ألم المخاض؟ الوجع الذي يفتت الجسد

ذرة ذرة، ثم يأتي الخلاص في صرخة أخيرة ممتزجًا بسحر الميلاد! اخلعي عباءة الضحية وأسقطي سيف الجاني.. اتركي قدميكِ حرّتين تحملانك لأرض جديدة تحتضن خطواتك وتفتح لك ذراعين بطول العمر وسعة السماء.

تهز رأسها بالمزيد من الضياع فيغرس كلماته في روحها:

- كلنا مذنبون.. تنجبنا أخطاؤنا، ترضعنا آلامنا، وتربينا مخاوفنا فنكبر ونحن نحمل اسمها داخلنا قسرًا، وعلى طول الطريق نجد أن ما فقدناه أهم كثيرًا مما ملكناه.. هو الذي يقود بنا عربة القطار ويختار محطة التوقف.

ترفع إليه عينيها كأنها تزن كلامه.. تبحث عن ضالتها المنشودة بين عطاياه.. لتفاجئه حركتها وذراعها يطيح بأوراق (الكوتشينة) كلها، تتطاير حولهما ثم تسقط على الأرض!

فيدرك بحدسه أنه وقت الحقيقة التي جاء ليخبرها إياها.. في مهنته سر النجاح أن يبصر «اللامرئيات».. يسمع ما جف على الألسنة وبخلت به ثرثرة البوح!

- لديّ خبران.. أحدهما جيد.. والآخر سيئ..

يرتعد جسدها بقلق فتُكتّف ساعديها مع نظرتها المترقبة تنتظر تتمّة حديثه:

- من اليوم لم تعودي متهمة بحرق العوامة.. عرفنا من فعلها واعترف بفعلته.

تشهق بانفعال وعيناها الزائغتان تتأرجحان مع شفتيها تبعثران الكلمات (لم أكن أنا؟ إذن من فعلها؟)

يرمقها بنظرة متفحصة كأنه يتأكد أنها حقًّا لا تتذكر، ثم يطرق برأسه:

- هذا هو الخبر السيئ.. الضحية الأخيرة للحريق.. كان فاقدًا لوعيه طوال هذه الأيام بفعل إصاباته، وعندما أفاق اعترف بما فعله ليلتها وأكد براءتك.. لكنه الآن يحتضر ويطلب رؤيتك.

يختض جسدها ببكاء بلا دموع.. تسأله وتتمنى لو كان الجواب الوحيد الممكن خاطئًا:

- من؟

وللأسف كان الجواب صحيحًا:

- عم نوح.

***

ثمة أشخاص يبدون لنا بلا عمر.. بلا ملامح.. بلا هيئة..

عمرهم هو مذاق أيامنا.. ملامحهم هي خلفية صورة مرآتنا.. هيئتهم ذائبة في هالة تفاصيلنا.. لا نذكر متى ولا كيف عرفناهم فهم كانوا دومًا هناك.. ننساهم أحيانًا لكنهم يبقون عالقين في ذكرياتنا كطوق نجاة نوقن أنه سيكون موجودًا إذا داهمنا الغرق.. كفوفنا قصيرة عاجزة لو فكرنا في رد فضلهم.. فهم دومًا في خانة المعطي بل هم العطاء والعطايا.. هؤلاء كيف نوفيهم الحق وقد أثقلوا عنقنا بديون لن يكفيها عمر كي تُرَدّ!

ونوح كان أحدهم!

تتقدم فايزة من فراشه في المشفى وقد تغطى جسده كله بالضمادات.. فقط عيناه تبدوان لها كما كانت تراهما طوال عمرها.. كهفان امتزج فيهما (العطر) بـ(الدخان).. فأي رائحة!!

خطواتها المرتجفة تنذر بسقوطها في أي وقت.. تكاد تنادي عصمت ليكون جوارها.. بل.. يخونها قلبها فتتمنى عناقًا من مراد في هذه اللحظة تنسى فيها خيانته لدقيقة واحدة.. دقيقة واحدة تمدها بالقوة في موقف كهذا.. لكن نوح يمد لها كفه فتسيل دموعها على وجنتيها كأنه يخبرها دون صوت (منذ متى تحتاجين أحدهم ليمنحك الأمان في حضوري؟)

- أشعر أنه درعي أمام الدنيا كلها!

تتذكر يوم قالتها لمراد فينقبض قلبها أكثر وهي تهرع نحو نوح، تلقي نفسها في كنفه فيربت على ظهرها ببطء حانٍ..

- أخيرًا جئتِ يا (ابنة الغالية)!

صوته الواهن يكشف الحجب عن ذكريات الماضي، يزيح كل ستائر الكتمان، كانت المرة الأولى التي يتجرأ فيها أن يناديها بهذا اللقب.. (ابنة الغالية).. أما آن لكل باب مغلق أن يُفتَح؟

- أنا أعرف.. أعرف كل شيء.. رأيتك ليلة ماتت أمي وسمعت كلامكما ساعتها.

تقولها بسرعة كأنما تخشى أن يغلبها جُبْنها من جديد، فتتسع العينان الغائرتان بدهشة قبل أن يغمضهما صاحبهما بهمسه:

- آآه! كنت تعرفين؟ ماذا عساكِ تعرفين؟ ماذا تعلمين عن رجل أفنى عمره ليفي بوعده للمرأة الوحيدة التي أحبها؟ يزعمون أنها ماتت ووحده قلبه بقي يراها حية بل؛ بقي يراها الحياة نفسها.. حبها بقي جمرة يطبق عليها كفي ولا يقوى على تركها.. تمامًا كما بقي ذنبها وزرًا ثقيلًا على كتفي لن يزيحه عني سوى موت رحيم يلحقني بها.. ذنبٌ عشت العمر أستغفر منه ربي وهو الأعلم بخبايا القلوب.. عساه

يرحم ضعفي يوم خانتني قوتي.. وعدتها أن أعيش لأجلك كما عشت لأجلها.. أن أمنحك الحياة التي عجزت أن أمنحها لها.. لهذا فعلتها غير نادم.. أجل.. أنا من أحرقت العوامة ليلتها.

يزداد ارتجافها بين ذراعيه وهي تتفحص ملامحه.. تعانق فيهما أمانها كما اعتادت طوال عمرها.. تسمع منه:

- تَبِعتُكِ عندما وصلتِ ليلتها هناك لكنني لم أكن أعرف ماذا تفعلين مع (سيمون).. بقيت في كوخي خارج العوامة يأكلني القلق حتى سمعت صوت صرخاتك، ركضت نحو العوامة لكنني رأيت مراد يندفع للداخل بينما لمحتُ سيارة (فوزي) تتوقف قريبًا، داهنته كعهدي وأنا أندفع نحوه أسأله عما يحدث بالداخل؛ لكنه دفعني بسباب ساخط ولهجة مهددة:

- ادخل بيتك وأغلق بابك.. وإياك أن تتدخل.

تظاهرت بطاعته وأنا أعود أدراجي وما كدت ألمحه عبر فرجة بابي الموارب يختفي في العوامة حتى تسللت أراقب ما يحدث من خارج النافذة.. سمعت صوت الرصاص ورأيت مراد ساقطًا بينما سيمون غارق في دمه.. ورأيتك تتصارعين مع فوزي بينما يأمركِ بأن تطيعيه.. عرفت ما فعله بكِ وما سبب محاولتك للانتحار تلك الليلة التي أنقذتك فيها منذ

سنوات.. كنت أعرف عن دناءته وخبثه؛ لكنه انحدر للدرك الأسفل عندما وجدته يدفعك ليسقطكِ أرضًا مصرّحًا بنيته في حرق العوامة.. لمحت في يده تلك الصفيحة المعدنية التي عرفت محتواها.. وشعرت أن شريط العمر كله يمر أمام عيني في لحظات.. كان يريد أن يسرقك مني كما سرق أمك منذ عمر طويل.. كأنه أراد أن يكون قاتل قلبي مرتين!

ترفع إليه فايزة عينين مصطبغتين بمزيج من أسى وامتنان.. صوته على ضعفه يدوي في أذنيها كأقوى ما يكون:

- اقتحمتُ العوامة وهاجمت ظهره مستغلًا المفاجأة لصالحي، جردته من سلاحي ليلتفت نحوي غاضبًا غير مصدق أنني قد فعلتها؛ لكنني وجهت له لكماتي واحدة تلو الأخرى كأن وحش الحقد الذي عاش مقيدًا بصدري طوال هذه السنوات قد تحرر فجأة من عقاله لينهش فيه بمخالبه.. سقط مغشيًا عليه لأجدني فجأة في المنتصف بينكم جميعًا وأنتم بلا حراك.. فوزي لم يكن ليتركك لشأنك.. المجرم لم يكن يتورع عن حرق ابنته نفسها كي يداري على جريمته.. ساعتها اتخذت قراري.. موت (فوزي) يساوي حياتك أنتِ! أخرجتك و(مراد) من العوامة، جررت جسديكما حتى أبعدتكما بما يكفي كي أضمن نجاتكما، ثم عدت

لأذيق (فوزي) ما جنته يداه.. أشعلت الجحيم الذي أراده لكن وهو بداخله.. لم أستطع منع نفسي من الوقوف حتى بعدما اشتعلت النيران، أشهد بعيني قِصَاصًا تأخر لسنوات.. كم ظلَم الكثيرين! كم انتهك أعراضًا! كم استحل حرمات! أراقب جسده المسجى أرضًا وأنا أرى على وجهه خطاياه كلها.. بصقت على وجهه وركلت جسده كأني أفرغ فيه غلي للمرة الأخيرة.. وما كدت أتحرك لأغادر العوامة حتى شعرت بالقبضة التي عرقلت حركة قدمي؛ فإذا هي قبضة (فوزي) الذي كان قد استرد وعيه وإن بقي جسده غير قادر على الحركة، حاولت ركله من جديد وتخليص قدمي منه لكنه أسقطني أرضًا ليرتمي فوقي بجسده المتهالك، جسدي يتمرغ فوق جسده فيعلو أحدنا وينخفض الآخر، تدحرجنا بضع مرات حتى عثر هو على سلاحه، تقاتلنا على السلاح الذي حاول تصويبه نحوي؛ لكنني سددت له لكمة أخيرة أودعتها ما بقي من جهدي ليفقد وعيه من جديد على صدري هذه المرة مطبقًا على ما بقي من أنفاسي، الدخان الكثيف غشي عيني وأنفي، لكنني سمعت صوت سارينة (البوليس) تعلن عن وصول النجدة، وكان القدَر رحيمًا فلم أفقد وعيي كاملًا إلا بعدما اطمأننت أنك ومراد ستكونان بخير.

جالسة فوق الفراش لكن جسدها كما لو أنه انفصل عائدًا لتلك الليلة.. تشم رائحة الدخان والخشب المحترق.. ترى

الدم الذي امتزج بنسيج السجادة حيث سقطت هي أرضًا.. من فوقها يشرف عليها فوزي كمارد مجنون يهم بانتزاع روحها.. الصورة التي بقيت في عقلها ناقصة طوال هذه الأيام الآن تكتمل! مات فوزي.. احترق بذنوبه.. تمزقت ورقة (الجوكر) وسقطت بلا قيمة تحت أرجل اللاعبين.. لم يكن له من اسمه نصيب كما عاش عمره يزعم.. هل هو العدل؟ ماذا عنها هي؟ هل ستكون لها قسمتها من الفوز؟ مات فوزي! جزء منها ينتفض بقسوة يود لو كانت هي قاتلته! وجزء آخر ينزوي ممتنًا بخيبة أن عَصَمها القدر من وصمة الإثم!

فعلها نوح! هل تبالغ لو زعمت أنها تشعر أنه أبوها الحقيقي!

هو الذي رعا وحمى.. آنس وحشة وهدّأ روعًا.. أقالَ عثرة وأسند ظهرًا.. منح كما لم يمنح أحد.. وبقي حين خان الجميع..

الدمع المتحجر ينصهر الآن على خديها وهي تنكبّ على كفه المضمد تقبله مجهشة ببكائها:

- كيف أشكرك؟

- ما بيننا لا يعرف (الشكر).. هو نذر أقسم القلب أن يفي به.

- نادم على ما ضاع من عمرك؟

- حاشاي! وهل هناك أشرف من الحب أعيش له وأموت عليه؟

أناملها المرتجفة تتشبث بكفه كأنها تحميه من مصير محتوم:

- لا ترحل.. ابق معي كما كنا طوال هذا العمر.

- ليت الأمر بيدي.. لكن.. أسألكِ بالله أن تجعلي لموتي قيمة..

ترمقه بنظرة متسائلة ليجيب:

- لم أترك ولدًا ولا إرثًا.. فكوني أنتِ أثري الباقي.. لا تضيعي بعدي.. لا تجعلي الوهن يسرق عمرك.. عودي لنفسك..

تعض شفتها بعجز ضائع فيردف بصوت تلاحقت أنفاسه:

- مرادا عرفت بما حدث بينكما.

تشيح بوجهها فيصلها صوته المفعم بعاطفته:

- تعلّمي من قصتي.. لو كانت الأمور تؤخذ بظاهرها فما أنا إلا (قاتل أمك).. صحيح؟ هو يحبك حقًّا فأنا أعلم بالعشق في العيون كيف يكون.. اسمعيه يا ابنتي.. أعطيه فرصة.. انثري بذور الحب ولو سَخِرَ منك قفرُ الوادي.. يومًا ما سيعود طير مهاجر وتنبت نخلة باسقة وينفجر نبع عذب.. واعلمي

ألا أحد قادر على أن يسندنا ما دام المرء عاجزًا عن أن يقيم ظهره وحده.. لا يليق بكِ السقوط مهما تعثرتِ.. قومي.. سيري.. اركضي.. حلقي.

تأوهاتها الباكية تمتزج بصرخاتها وهي تسمع صوته يخفت حد الهمس، نظراته تحيد عنها كأنه صار يخاطب أخرى.. (أخرى) تعرفها جيدًا:

- لا تخافي عليها.. ستكون بخير.. أنا وفيت بوعدي.. عشت لها كما عشت لكِ.. راضية عني وقد اقترب اللقاء؟

- لا.. لا..

تصرخ بها هادرة وهي تزداد تشبثًا بكفه.. أنفاسها الثائرة تناقض أنفاسه المتثاقلة.. والتي همدت لتوّها تاركة خلفها فراغًا رهيبًا في صمت الغرفة.. وفي روحها هي!

تهتف باسمه تباعًا فلا يستجيب وهو الذي كان يكفيه منها مجرد نداء!

تبسط راحتها أمام أنفه فيروعها برد كليهما.. تكتف ساعديها وهي تشعر ببرد قارص يجتاحها من الداخل.. ودون وعي تجد نفسها تسقط على ركبتيْها لتزحف تحت الفراش.. تلهث وهي تغمض عينيها.. تتكور على نفسها ضامة ركبتيها لصدرها.. لن يخرجها أحد من هنا! ستبقى هكذا لن تغادر أبدًا!

وفي مكانه أمام باب الغرفة الموارب كان عصمت يراقب الموقف بلهفة بائسة.. كان يعلم وهو يأتي بها إلى هنا أن مصيرها سيؤول لأحد الأمرين.. إما أن تنتكس حالتها ويضيع تعب الشهور السابقة هدرًا.. أو على العكس.. يكون هذا دافعًا لها كي تقاوم يأسها وتنهض كعنقاء من وسط رماد ألمها.. وهو اختار المغامرة مستجيبًا لحدسه!

يزفر بترقب وهو يراها في وضعها تحت الفراش رافعة راية سقوطها..

يتقدم لينحني نحوها.. يمد لها كفه وهو ينظر لوجهها.. وجهها الذي حمل تعبيرًا جديدًا لم يعرفه من قبل.. ظلت لدقيقة كاملة تنظر لكفه الممدود حتى ظنها سترفض مغادرة مكانها.. لكنها تفاجئه وهي تزحف للناحية الأخرى من الفراش، تقف وحدها دون مساعدة بتصميم شع عبر محياها.. يقف بدوره وهو يتفحصها باهتمام.. يراها تتحرك لتتقدم من جثة العزيز الراحل.. تغلق جفنيه بنفسها ثم تمسح دموعها بنفسها، تلتفت إليه متمتمة:

- لن أستسلم.. سأكون أفضل.. ليس عدلًا أن يضيع عمره لأجلي فأضيع بعده.

يبتسم عصمت بفخر وهو يهز لها رأسه.. الآن يكاد يقسم أن

من تقف أمامه ليست فايزة ولا غزل.. بل هي أخرى تعلمت بالطريقة الأقسى كيف تنبت الزهور على القبور معلنة رسالتها الأبدية (من رَحِمِ الألم يولد الأمل.. وعلى أرصفة الخذلان لا تزال حقائب الوعد المغلقة تنتظر لهفة من يفتحها بفرحة.. وعلى الغصون الجافة أعشاش خالية تنتظر عودة طيورٍ هاجرت ولا ريب ستعود!)

***

النغمة التاسعة

(بعض السقوط نهاية.. وبعض السقوط بداية.. والعبرة دومًا بأي أرض تتلقفك)

- تناولتِ دواءكِ؟

يبدو سؤال عصمت غير ذي معنى وهو يدخل عليها غرفتها التي خُصصت لها في (العباسية)، فتبتسم فايزة بتهكم:

- ألم يخبرك الممرّض؟ أنتم تُحصون أنفاسي.. بالكاد تتركونني أدخل الحمام وحدي.

يبتسم دون رد محاولًا دراسة ردود أفعالها الجديدة؛ خاصة بعد صدمة وفاة نوح التي خشي أن تنتكس بعدها حالتها؛ لكنها تبدو وكأنها تحارب نفسها يومًا بعد يوم كي لا تعود لهوة مرضها السحيقة، وكأنها حقًّا تنفّذ وعدها له أن تعود لنفسها كي لا تضيع تضحيته هباء..

لهذا يشعر بالرضا وهو يراها تشير بذراعيها حولها مردفة:

- اهتمام فائق حقًّا منذ دخلت إلى هنا.. معاملة مميزة جدًّا تخصني وحدي.. غرفة خاصة.. خروج للسينما والتمشية.. حرية مطلقة في ارتداء فساتيني.. (بارتيتة) حقيقية كتلك الليلة التي اجتمعت فيها هنا مع.. مع.. ماذا كانت أسماؤهم؟

يضحك بالمزيد من الرضا عن تنامي إدراكها للوضع حولها، مبشرًا بتقدم حالتها مجيبًا:

- (شكرية هانم).. و(م. و) الممثل.. و.. دسوقي باشا.

- هم مرضى هنا؟!

- نعم.. شكرية هانم مريضة بالبارانويا.. زوجها صاحب دولة سابق كما تقول؛ لكنه لم يعد للسلطة أبدًا.. توفي في حادث قطار.. ومن يومها وهي ترفض موته.. تزعم أن أعداءه أخفوه كي لا يعود لمنصبه لكنه على قيد الحياة، يَعِدها بالعودة ليجعلها تسحق بنفسها رؤوس كل من آذوهما.. أما (م. و) فلا ريب أنك تعرفين أنه مجرد (كومبارس) في إحدى الفرق المسرحية، أسرف في (بلبعة) الأقراص وشرب الحشيش، عثروا عليه ذات يوم وجواره جثة مهشمة الرأس جوارها (طُرْبة) حشيش كاملة، ليلقى القبض عليه بتهمة القتل؛ لكنه بقي يردد أنه ممثل مشهور وأن الجثة ليست إلا مشهدًا في فيلم يتم تصويره.. والحشيش غير حقيقي.. فأرسلوه هنا لنفصل في كونه مختلًا حقًّا أم يدّعي الجنون..

- وهل ينقذ ذلك أحدهم من العقوبة؟

- نعم.. لو ثبت جنونه فليس على المريض حرج.. تعرفين ذاك الذي أطلق النار على (سعد باشا زغلول)؟ ثبت أنه مختل عقليًا.. صحيح أن إعلان هذا أغضب حزب الوفد ساعتها؛ لكن الطب قال كلمته النزيهة..

- ودسوقي باشا؟

يبتسم بالمزيد من الرضا ليهز كتفيه بقوله:

- لقد خرج بالأمس من هنا.

- حقًّا؟!

- أولاده أتوا به إلى هنا بعدما تزوج امرأة أخرى على زوجته.. رفعوا عليه قضية حجر واتهموه بالجنون مع الكثير من شهود الزور، مستغلين بعض التصرفات غير المنطقية التي أتى بها مؤخرًا.. لكنني أعطيت تقريري أن الرجل سليم عقليًا تمامًا.. فخرج.

- ظننت أن من يدخل هنا لا يخرج أبدًا.

تقولها بقنوط وأناملها تتحسس طرف ثوب المشفى بلونه الشيحي الباهت، فيقول مشجعًا:

- رأيت الكثيرين يخرجون.. آه بالمناسبة.. ألم تتذكري مكان الكهف؟

يهيأ إليه أن عينيها تلتمعان بنظرة غامضة.. لكنها تهز رأسها نافية وهي تغير الموضوع:

- ما زلت لا أذكر بعض الأحداث.. قل لي.. هل سأبقى آخذ الدواء طوال عمري؟

- سأكون صريحًا معك.. أنتِ لم تخوضي حياة سهلة

إطلاقًا.. ثمة فجوة عميقة كانت دومًا هناك داخلك.. فجوة اتسعت لتبتلعك مع أول صدمة.. الدواء مجرد عامل مساعد لكن العلاج الحقيقي ينبغي أن يولد من داخلك.. أن توقني أنك لست بضعف (غزل) ولا قسوة (فايزة).. بل المزيج المتجانس بينهما.. القوة التي تحمي ولا تبطش.. الرقة التي تحنو ولا تُستباح.. مزيجٌ أنت فقط من يمكنك ضبط مقاديره.

ترتجف ابتسامتها مع خيط رفيع من الدموع وهي تتذكر مشهدها الأخير مع نوح.. تخفي وجهها بين راحتيها:

- موته هو الشيء الوحيد الذي أتمنى أن يكون من ضلالاتي.

ورغم رضاه عن اعترافها أن ما كانت تعيشه هو (ضلالات) وأثر ذلك الذي يفهمه على تقدم حالتها؛ لكنه خشي عليها المزيد من الشعور بالذنب؛ لهذا أزاح أناملها عن وجهها بقوله الحاسم:

- هو منحك ما بقي من عمره لتعيشي به ما بقي من عمرك.. ما رأيت في حياتي أمرًا نسبيًا كالموت.. كم من حي يعيش ميتًا بين الناس.. وكم من ميت ينبض بالحياة في قلوبهم.. نوح لا يزال حيًا ما دمت بخير.. حيًا في تسامحك لو شابَه تسامحه.. في حبك لو شابَه حبه.. في عطائك لو شابه عطاءه.. صحيح؟

تهز رأسها بما يشبه الاقتناع فيتنحنح ليردف:

- هذا يشجعني للمزيد.. أعرف أنك لا تزالين ترفضين رؤية مراد.. لكن.. هل تقبلين فقط رسالته؟

غضب حقيقي يبسط رداءه على ملامحها متشحًا بخوف غامض كأنها تخشى أن تعود للهوّة السوداء من جديد..

- أي رسالة؟

يشير بيده نحو الممرض الذي غاب قليلًا ليعود وبين ذراعيه هذا الجهاز الذي وضعه على المائدة الخشبية في زاوية الغرفة.. تزيغ عينا فايزة وهي تتذكر أول مرة رأت فيها هذا الجهاز لتسجيل وملء الأسطوانات.. ما أقسى أن يتحول الامتنان لازدراء.. أن يتحول العرفان لإنكار.. وأن تتحول أثمن هدايا العمر لخرقة بالية لا تليق بأن تُعلق في خزانته!

- لماذا جاء به؟ ليعيّرني بما فعله لأجلي؟ أخبره إذن أنه لم يفعله لأجل خاطري؛ بل ليُحكم أداء الدور الذي طلبوا منه تمثيله!

تقولها وهي تتذكر ليلة جاء مراد بالأسطوانة التي تثبت براءتها بعد زواجهما.. بقِصاص نالته بعد طول يأس.. وبحلاوة شعورها أنه أخيرًا.. أخيرًا ظهر في الحياة من يأخذ

ثأرها!

- لم يكن يحتاج لفعل متطرف كهذا كي يخدعك.. كان يكفيه ببساطة أن يعلن أنه يصدقك وكفى.. صحيح؟

سؤاله المتعقل يصطدم بجدار لوعتها فيرتد خائبًا.. تُشيح بوجهها ليصلها صوته وقد وقف متأهبًا للمغادرة:

- اسمعي فقط ما أراد قوله لك.. ما دمت ترفضين رؤيته.

تراقب ظهره المنصرف بعينين شاردتين.. الرفض يتصارع مع اللهفة على ملامحها فينتصر الأول للحظات تجعلها تقبض كفها على صدرها كأنها تطمئن قلبها؛ لكنها تستجيب للهفتها أخيرًا!

خطواتها تحملها نحو الجهاز الذي تتحسسه أناملها بوجل.. الإبرة الرفيعة للجهاز تبدو لها كساحر أنيق يوشك أن يرفع قبعته.. قديمًا كان يبهرها بانطلاق عصفور أبيض من تحتها.. والآن نفدت عصافيره البيضاء! نفدت.. نفدت حقًّا؟!

بعض الوهن القديم يكاد يجذبها لتختبئ تحت الفراش الذي مال إليه بصرها؛ لكنها تتذكر وعدها لنوح فتأخذ نفسًا عميقًا محاولة تمالك ارتجافتها.. تشغل الأسطوانة..

«حبيبتي فايزة.. (مِسك الليل) كما تحبين أن أناديكِ..

و(ابنة قلبي) كما أحب أن أناديك أنا.. أفتقدك! أقولها كاذبًا فكيف تفتقدك عينان صورتك محفورة على حدقتيهما؟ وكيف يفتقدك قلب تتراقص على ذكراكِ دقاته؟ وكيف تفتقدك روح هجرت جسدي إليكِ؟ الحقيقة أنني أفتقد نفسي في حضرتك.. رحلتِ فتركتِ لي خلفكِ جسدًا فارغًا يشبهني في كل شيء؛ لكنه غريب عني في غيابك.. لا أصدق أنني بعد كل هذا أجد نفسي مضطرًا أن أثبت لكِ أنني أحببتك حقًّا! لو لم تشعري أنتِ بها واضحة كشمس الظهيرة فأي دليل أطمع فيه؟ ربما كان ذنبي أني أخفيت عنك بعض الحقيقة.. لكن ما يعنيكِ وما يعنيني من الماضي أن لم نتفق أن كلانا وُلد من جديد يوم عرف صاحبه.. أعرف أن بعض الخذلان لا تمحو مرارته حلوى الاعتذار.. يبقى علقمه غصة في الروح وندبة على جبين القلب.. لكن ألا يشفع لي خوف عزيز على رجل مثلي.. خوف جعلني أرتجف كطفل صغير أمام برد خسارتك.. لو أردتِ ألا تسامحيني فلن ألومك.. لكن لا تزيدي النصل سمًّا وتشكّي في حبي لكِ.. ما بيننا لم يكن كذبة.. أي شيء في حياتي قد يكون وهمًا إلا حقيقة انتمائك إليّ وانتمائي إليكِ.. يومًا ما سأخبركِ عن قصة الفتاة ذات المريلة السوداء والحرملة البيضاء والضفيرتين المتلاعبتين على خصرها.. فتاة كُتب قدري على جبينها منذ تلاقت عينانا.. وحفظ قلبي وصيته من حينها ألا يفتح الباب لأخرى

بعدها فبقي عليها موصدًا للأبد.. على باب قلبي شمسٌ تشرق كل يوم تناديكِ أن تعودي، يأتي الليل فتغرب هي وتبقين أنتِ.. تبقين شمسًا لا يليق بها غروب!)

لهفة.. اشتياق.. إنكار.. ألم.. وحب! حب عظيم يغلف هذا كله ويجعل قلبها ينتفض داخلها كطير بلله المطر مع وعده أن يحكي لها عن أول مرة رآها فيها! حنين غادر يعصف بها ويكاد يجعلها توقف الأسطوانة؛ لكن صوته لا يزال يحمل لها المزيد من العصافير البيضاء:

- (ألّا أكون جوارك الآن!).. سأحفظ هذه الجملة كجواب لو سألني أحدهم عن أعظم عقاب نلته في حياتي.. وهل أقسى عليَّ من أكون أمامك فلا تسمحين لي بضمّك؟ بتخفيف ألمك.. ؟ بإخفاء رأسك بين ضلوعي كأنني أمتص حزنك داخلي حتى أعيده لكِ أمنًا وسلامًا؟! علمت بما حدث لعم نوح.. تمنيت لو أبكيه معكِ.. لو نتشارك حزننا عليه كما تشاركنا حبه.. تذكرين يوم قلتِ لي أنني كسبتُ التحدي؟ أنني من صرت لكِ درعكِ أمام الدنيا كلها؟)

هنا لم تتمالك نحيبها المرتفع والذكرى تحملها لذاك المشهد البعيد..

كانت ليلة شتوية أصابها فيها مرضٌ شديد وأقعدها في الفراش.. سمعت الطبيب ساعتها في هذيانها يعلن أن مرضها

مُعدٍ ويشدد على مراد في عدم المخالطة.. شعرت بالرعب وهي تتذكر رغمًا عنها أمها قبل وفاتها.. كيف صارت وحيدة منعزلة محرومة من العطف وتخيلت نفسها في ذات الموضع!

لكن مراد وأد خوفها في مهده وهو يضرب بكل شيء عرض الحائط؛ فقد قضى ليلته جوارها يطعمها ويرعاها بنفسه.. كانت ممزقة بين شعورها بـ(الأنانية) وهي هانئة بقربه وبين شعورها الجارف بالخوف عليه.. لهذا لم تكن مدّعية عندما رجته بقولها:

- لا تقترب مني كي لا تصيبك العدوى.. يمكننا الاستعانة بأحدهم كي..

لكنه قاطع كلماتها وهو يضم رأسها لصدره يكاد يغرسه بين ضلوعه وصوته الحاني يشبه قبلاته في نعومتها:

- لا شيء سيحرمني قربك مهما كان.. فلنتقاسم أقدارنا كما تقاسمنا الحياة كلها.

ساعتها انقطع التيار الكهربائي، وكانت المدفأة لا تزال تنير المكان بوهجها الدافئ.. صوت فرقعة أحد أحطابها هدر فجأة فشدّد هو ضمته الرفيقة لها متسائلًا:

- خائفة؟

صوتها بالكاد غادر حلقها وكأنه ينفد من قلبها لقلبه مباشرة:

- لا يجتمع ثلاثتنا أبدًا.. أنا وأنت والخوف.. أنت درعي أمام الدنيا كلها.

ضحكته تداعب أذنها وتنافس صوته العاشق:

- هكذا سأعتبر أنني كسبت التحدي أمام عم نوح.. وعدتك يومًا أني سأفعل.

- عدني أن تبقى دومًا هكذا.. لا خوف يصيبني وأنا معك.. أحبّني حتى تبلغ في العشق منتهاك.. حلال في عرف هذا الحب الأنانية!

- مثل هذا ليس بوعد.. فلا حيلة لي فيه.. كلي لكِ! قلبي وروحي وما بقي من عمري.

ابتسمت..

ابتسمت ليلتها كما تفعل الآن، وإن كانت عاجزة عن الاحتماء بصدره كما فعلت وقتها!

آهة عميقة تغادر صدرها والأسطوانة تتوقف عن الحركة تمامًا كقلبها الذي تحجر في صدرها الآن وهي تتخبط في دوامات شعورها.. تصدقه؟ لا.. لن تفتح الشرفات لتطل من جديد على شوارع الخديعة.. تُكَذّبه؟ كيف وقد استعان عليها

بقلبها الخائن يصدقه ويمنحه ألف عذر؟

تنقطع أفكارها مع هذه الجلبة الهائلة التي وصلتها مدوية من الخارج، لتقترب من الباب مستكشفة -بجزع- البابَ الذي فُتِح فجأة، لتصطدم عيناها بالوجوه الغريبة التي أحاطت بها.. هل عادت لها هلاوسها؟ هل تتوهم؟

يقترب منها أحدهم ليكبل حركتها كاتمًا المزيد من صرخاتها، فتدرك أنها في خطر حقيقي هذه المرة!

***

دلوعة واسمي فيبيرا

عايشة في حي الجيزيبيرا

وكسبت وسام الحرب

بالليل وفي عز اللعب

«الفوهرر» يدفع نقدية

وأنا أخدم بعنيّه..

على خط الجولف الأخضر

مع ظابط قيمة ومنظر..

أنغام (المونولوج) الصاخبة القادمة تنبعث من إحدى

العوامات المجاورة والتي تملكها (حكمت).. كانت راقصة شهيرة في (كازينو بديعة) -أحد الكازينوهات التي اشتُهرت بجذبها لجنود (الإنجليز) عن طريق إلقاء المونولوجات الساخرة والمُعادية لـ(الألمان)- قبل أن تقرر العمل وحدها وافتتاح (كازينو) خاص بها وتستغل عوامتها ليلًا لإرضاء الجنود الإنجليز الذين يدفعون بسخاء.

- أوف! يهيأ إليّ أن هؤلاء هم من يستفيدون من الحرب! الشعب في وادٍ وهم في وادٍ.

يهتف بها (عبد العظيم) باشا بضيق وهو يحاول الاسترخاء على الأريكة في عوامته؛ حيث استضاف مراد وإيريني التي هتفت بضيق مشابه وهي تكرر مقطعًا من المونولوج:

- «(الفوهرر) يدفع نقدية وأنا أخدم بعنيّه»! الفوهرر تعني القائد بالألمانية.. يسخرون وكأنهم لا يفعلون المثل!

تقولها وهي تمصمص شفتيها مكررة حركة شهيرة اكتسبتها من بعض زبائنها المصريات ليطلق الباشا ضحكة عالية هاتفًا:

- صرتِ تبهرينني بانغماسك وَسَطَنا.. من يراكِ لا يظنكِ أبدًا فرنسية؛ بل مصرية بنت مصري ومولودة في» بولاق»!

تضحك العجوز بخجل زاد تورد وجنتيها، فيبتسم مراد بشرود وهو يحاول مقاومة هذه الغصة في حلقه.. تلك

الجلسة التي طالما جمعتهم في الماضي.. والآن ينقصها أقرب ما يحتاجه قلبه.. (فايزة)!

تبًّا لهذا النوع من غياب أحدهم والذي يجعلك تتساءل كيف كانت الدنيا قبل حضوره! كيف كان الهواء قبل أن يحتل هو الأنفاس.. كيف كانت الألوان قبل أن يتملك هو صبغة الروح.. كيف كانت الضحكة قبل أن يرسمها.. كيف كانت الدمعة قبل أن يحفرها.. كيف كانت الحياة قبل أن يصير هو كل الحياة!

لكن.. من يلوم سوى نفسه؟

لهذا تأتي كلماته موجعة.. ومتوجعة:

- دائمًا تبدو لنا ذنوب الآخرين في عيوننا كـ(جبال)؛ بينما تبدو ذنوبنا مجرد (حصى)! عين المرء عمياء عن نقصانه!

يتمتم بها بشرود وهو يقف أمام النافذة وقد أزاح ستارها متلمسًا بعض النسيم.. يشعر بحركة إيريني خلفه، تدير مؤشر (الراديو).. لا يزال الألمان يبعثون برسالتهم لنساء الإسكندرية منذ دخول قوات (روميل) للعلمين:

- جهّزنَ فساتين الحفلات!

- يا الله! وكأننا لا نزال نصدق هذه الثقة التي يتحدثون بها!

صوت إيريني يزداد سخطًا باستطرادها:

- صديقتي (خياطة) في الإسكندرية.. تقول إنها منذ بدأ الألمان بث رسالتهم هذه من يونيو الماضي؛ وبالتحديد منذ دخول مدرعات (روميل) للعلمين، وقد تركت ما بيدها من فساتين (الزبونات) الإنجليزيات وصارت مشغولة (لشوشتها) في (تقييف) فساتين النساء اللائي سيحضرن حفل النصر الألماني الراقص!

- ليس الخياطات فحسب.. أصحاب المحلات يتأكدون سرًّا من وجود صور لـ(هتلر) و(روميل) جاهزة لوضعها داخل إطار.. وزوجاتهم مشغولات بحياكة الأعلام والرايات بألوان أعلام إيطاليا وألمانيا؛ بل إن بعض الأسر التي كانت قد أجّرت غُرَفًا للضباط الإنجليز، بدأت تحرق الملابس العسكرية التي تركوها كأنها تُحرق دليل إدانتها.. وعلى الجانب الآخر تتحدث القوات الإنجليزية أنها هي المسيطرة.. بل إنه يبدو لي وكأن هناك نوعًا من الرقابة على الأخبار في الصحف الإنجليزية.. فلا تنشر إلا ما يصلح أن يكون نصرًا مدويًّا أو انسحابًا تكتيكيًّا؛ كأنهم يريدون تسكين مشاعر المصريين والتأكيد لهم أنهم لا يزالون أصحاب اليد الطولى!

- مسكين هذا الشعب! ينتظر عدوًا ليُهلك عدوًا؛ بينما يكتفي هو بالمشاهدة! يظنون أن الربيع الألماني سيطرد

الإنجليز الذين عاثوا فينا فسادًا.

- ليس مسكينًا بل مستضعفًا.. تَعَمّدوا إضعاف جيشه وإشعاره أنه دومًا يحتاج لوصاية.. ولا يعرفون أن البذرة تحت التراب تنتظر الفرصة لتنبت.. وحينها سينبهر الجميع بقوة جذورها وطيب ثمرها.. ما رأيك يا (مراد)؟

يلتفت نحوه مراد الذي كان يتابع حديثهما صامتًا ليزفر الأخير بغضب مكتوم:

- لا يعنيني في كل هذا سوى أنهم فرضوا العزلة على (العلمين).. بل على (مرسى مطروح) كلها.. أخوالي رفضوا هجرة أرضهم وفضّلوا البقاء هناك بينما أشعر أنني أنا السجين هنا!

تحاول إيريني التخفيف عنه بحنانها المعهود رغم القلق في صوتها:

- لا تقلق.. أعراب البدو خبراء في اتخاذ مخابئهم بين الجبال.

- عندما تدور رحى الحرب فلا فارق بين خبير ومبتدئ.. العجلات تدوس الجميع والموت لا يفرق جسدًا عن جسد.

يتمتم بها بحسرة وهو يشعر بانقباض قلبه يفوق الحد هذه

الليلة.. ليس فقط قلقه على أهله مع الحرب الدائرة هناك في العلمين؛ بل ترقبه لردّ فعل فايزة على تسجيله الصوتي! هل ستصدقه؟ تتقبل رؤيته؟ هل ستتحسن حالتها؟ أم سيبقى كلاهما أسير دوامات الماضي السوداء؟

- هل تنتظر ضيوفًا يا باشا؟

سؤال إيريني يجعل مراد ينتبه لاهتزاز العوامة بفعل خطوات أحدهم على السقالة.. يبتسم ابتسامة واهنة وهو يرى عبد العظيم يميل عليها يقلّص المسافة بينهما بلكنته الوقور التي لا تلين إلا معها:

- ألم نتفق ألا تدعونني بـ(باشا) هذه أبدًا؟!

- عبدُه!

تتمتم بها العجوز بدلال مستنكر وهي تدفعه برفق، فتتسع ابتسامة مراد وتتسع معها فجوة بقلبه اشتياقًا لـ(وليفته)!

يتوجه الباشا نحو باب العوامة، يزيح (البرافان) الخشبي المذهبة أطرافه والذي يفصله عن الخارج ليلمح أحدهم يسأله بوجه ممتقع:

- مراد موجود؟

- من أنت؟

لم يكد يتفوه بها الباشا حتى سمع هتاف مراد الذي قفز بخطوات واسعة نحوهما هاتفًا بجزع:

- دكتور عصمت.. ما الأمر؟

- أعتذر أنني جئت بهذه الطريقة المفاجئة.. ذهبت لعوامتك وأخبرتني والدتك أنك هنا..

يحاول بها عصمت التمهيد للمصيبة القادمة؛ لكن مراد الذي شحبت ملامحه تمامًا يشعر بما يجعله يسأله بصوت مرتجف:

- فايزة! ما بها؟

يحمر وجه عصمت وهو يطلق زفرة قصيرة ليطرق برأسه:

- بعضهم اقتحم المشفى الليلة مداهمًا الحراس.. و.. اختطفها!

***

النغمة العاشرة

(متى توقن أن «أحبك» التي منحوك إياها ذهبية حقًّا؟
ومتى يفضح زيفها الصدأ؟ عندما تنطفئ جميع مشاعلك..
انظر من بقي جوارك في عتمتك!)

- الإنجليز! كيف لم يخطر ببالي أنهم هم من فعلوها؟ هم وحدهم من يستطيعون اقتحام مشفى تحت الحراسة الملكية وانتزاعي منه!

تُحَدث بها فايزة نفسها في جلستها على الأرض، تشعر بالرعب وهي لا تعرف ما هي معلوماتهم عنها بالضبط.. لماذا اختطفوها.. أين هي.. والأهم.. هل سيتمكن أحدهم من إنقاذها؟!

هي استعادت وعيها لتجد نفسها في هذا المكان الغريب الذي يشبه المعسكر.. بل هو حقًّا كذلك! يطعمونها بانتظام؛ بل ويعطونها الدواء الذي كانت تتناوله في المشفى لكن دون أن يوجهوا لها كلمة واحدة!

كم مضى بها من وقت هنا؟ لا يمكنها التحديد بالضبط؛ لكنها عندما استرقت السمع للراديو الذي كان يشغله أحدهم هنا منذ دقائق، كان يشير لتاريخ اليوم السابع من أغسطس ويعلن الخبر عن عودة سكان القاهرة والإسكندرية الذين كانوا قد هربوا إلى الدلتا، واستئناف الحياة الطبيعية، ورفع حظر التجوال الذي كانوا قد فرضوه على الجنود الإنجليز؛ فعادت الشوارع تمتلئ بهم.

هل انتصر الإنجليز؟

- لا لم ينتصر الإنجليز بعد! بقي الصمود الأخير يا حلوتي.

تشهق مع الصوت القاسي بلغته الإنجليزية لهذا الرجل الذي دخل لتوه والذي بدا وكأنه قرأ أفكارها! شديد النحول بأنف غليظ، عيناه غائرتان خبيرتان كأنه يمكنه بنظرة واحدة سبر الأغوار وكشف الحجب.. تنكمش على نفسها أكثر في جلستها وهي تراه يشرف عليها من علوّ متخصرًا:

- تنهضين أنتِ أو أجلس أنا جوارك؟

لم يبدُ عرضه بكرم كلماته مع الشراسة الفطرية لصوته، والذي جعلها تقف مترنحة على ساقين مرتعشتين محافظة على مسافة مناسبة بينهما، تسأله بصوت متحشرج:

- من أنت؟ ولماذا تحتجزونني؟ وأين نحن؟

- مسكينة فايزة! ورثتِ الكثير من ديون أبيكِ.. ديون لا يجوز أبدًا أن تبقى معلقة.

تهكمه الفظ يكاد يجمدها رعبًا وهو يستطرد:

- سأبدًا إجابة أسئلتك من الآخر للأول.. نحن في (العلمين)! مفاجأة صحيح؟ سيزول عجبك لو أجبت سؤالك الثاني.. لماذا نحتجزك؟ كي تخبرينا بمكان الصفقة المفقود.

- أي صفقة؟

تحاول المراوغة وتكاد تنجح، لولا عيناه الماكرتان اللتان طوّقتا نظراتها كمخالب نسر وهو يهمهم:

- أي صفقة؟ الصفقة التي سرقها فوزي نصار.. الغبي الذي زرعناه بأيدينا ليكون عيننا في القاهرة.. فأعماه جشعه وجعله يعضّ يدنا نحن.. هذه الصفقة تخصني أنا ولم يولد بعد من يفكر في حرماني من شيء يخصني.

تتسع عيناها بخوف.. كيف عرف؟

ومن جديد يقرأ أفكارها ليقول بغطرسة:

- عيوننا في كل مكان.. نحن نعرف كل شيء.

- لا أذكر مكانها.

- هذا ما حاولنا تصديقه طوال أيام بقائك في (العباسية) خاصة مع الاهتمام الفائق الذي أولته لك السرايا.. لكن زيارتك للعجوز نوح الذي أحرق العوامة جعلت الشكوك تساورنا..

يقولها ليقترب بوجهه منها فجأة، فتشهق محاولة الابتعاد؛ لكنه يثبت رأسها بقوة أمام نظراته التي تكاد تفترسها بهمسه:

- لو كنتِ حقًّا مريضة ولا تذكرين، فقد أتينا بكِ للمكان الذي قد يذكّرك بما حدث.. ولو كنت تدّعين هذا لتكملي طريق أبيكِ في خداعنا.. فاعلمي أنها خطوتك الأخيرة.

تهتز الأرض بهما فتشعر بطنين قوي في أذنيها مع صوت انفجار قريب، الآن يمكنها استنتاج أنهما قريبان كثيرًا من الحرب الدائرة بالخارج.. تزيغ عيناها بتشتت حقيقي لا تدّعيه وهي تشعر بهلاوسها تعيد سحبها للعالم الأسود الذي -بالكاد- هربت منه.. تمنحها بعض الأمان وترسم لها فراشًا تزحف تحته مختبئة من كل ما يرهبها.. لكن.. لا.. لن تستسلم للهوة السحيقة من جديد.. هي منحت نوح وعدها.. هي ستجعل لحياته قيمة.. لا مزيد من البحث عن جُحْرٍ للسنجاب.. السنجاب تحررا

يدفعها الرجل بعنف فتلهث وهي ترمقه بنظرة مترقبة بادلها إياها بمزيد من ازدراء:

- غدًا فرصتك الأخيرة لتخبرينا بما تعرفينه وإلا فلا حاجة لنا بحمل زائد.

تهديده المبطن يصيب أطرافها بالخدر حتى يغيب عن ناظريها، فتحيط جسدها بذراعيها.. لم تشعر يومًا بالوحدة كما هي الآن.. من قد يجدها هنا؟ بل من قد يهتم؟ كل قيمتها الآن صارت في معلومة هي الوحيدة التي تعرفها بعدما قتل فوزي نصار لأفراد عصابته الصغيرة التي نفذت السرقة ضمانًا لعدم الوشاية.. فصارت هي الوريثة الباقية لجرمه..

هي تذكرت مكان الكهف الذي أخفى فيه فوزي غنيمته منذ

وقت قصير؛ لكنها لم تشأ أن تخبر عصمت.. شيء بداخلها استنكف أن تكون (السرايا) هي صاحبة اليد الطولى وهم الذين حرضوا مراد على خداعها.. إذن تخبر الإنجليز وتنجو بنفسها؟

- نعم هي الجواب الصحيح.. البقاء للأقوى.. مُدّي يدك إذن وصافحي المنتصر متلقفةً كل ما بقي من إرث فوزي.

تصرخ بها (فايزة ابنة أبيها) داخلها بقوة؛ لكن (غزل بصوت فطرتها) تهتف لها:

- (لا) هي الجواب الأصح.. ألقي كل هذا خلف ظهرك.. فوزي رحل مثقل بآثامه فلا تحملي وزره الثقيل على كتفيكِ.. لا (إنجليز) ولا (ألمان) ولا (السرايا)..

الاثنتان تتصارعان داخلها بقوة تكاد تمزقها؛ لكن الغلبة تكون للأخيرة.. هنا فقط تزداد يقينًا أنها مستمرة في طريق الشفاء.. وأن الليل الذي كاد يزهق أنفاسها يوشك أن يلد شمسًا صغيرة..

***

- فايزة.. قومي..

تشهق بعنف وهي تنهض من نومها مذعورة بصرخة خافتة

مع مشهد (الملثم) الواقف فوقها، لكنه لا يمنحها الفرصة وهو ينحني ليجذبها نحوه، تصرخ وهي تقاومه قدر استطاعتها بينما تسمع جلبة ما خارج خيمتها؛ لكن الصوت المألوف يصلها لاهثًا وهو لا يزال يشدها يركض بها مبتعدًا عن المعسكر:

- لا تصرخي.. بالله عليك.. دعينا نبتعد عن هنا قبل أن يدركونا.

تبًا! هذا الصوت! إنه هو! هو! تتلاحق أنفاسها وهي تحاول مواكبة خطواته، تشعر بالمعركة الدائرة خلفهما بين حرس المعسكر والملثمين الذين أدركت هويتهم.. لابد أنهم بعض أفراد قبيلته جاءوا لإنقاذها.. أو.. ربما.. هم رجال يعملون لصالح الألمان أو السرايا.. الإدراك الأخير يجعلها تتوقف فجأة لتهتف بين أنفاسها اللاهثة:

- لا تتعب نفسك.. لو كنتم تبذلون كل هذا المجهود لأجل صفقة السلاح فقد قضي الأمر.. أنا أخبرتهم بمكانها وأظنهم حصلوا عليها.

لماذا تكذب؟ هل ملت كونها مجرد كرة تتقاذفها أيديهم؟ هل أرادت الشماتة فيه وفي من ينتمي لهم وهو يدرك أن تعبه راح هدرًا؟ ربما.. وربما هو أمل واهٍ داخلها تمنى أن تسمعه يهتف بهذا الذي يقوله الآن:

- فليذهبوا جميعًا للجحيم.. لا يعنيني إلا أنتِ.

يقولها وهو يحملها على كتفه ليعاود الركض بها غير آبهٍ بمقاومتها، فيخفق قلبها بجنون وهي ترى خيام المعسكر تتباعد عن عينيها بسرعة توازي سرعة ركضه عبر رمال الصحراء التي بدت لها في ظلمة الليل بلا نهاية.

يتعثر في تبة رمالٍ قريبة فيسقط بها؛ لكنه يحيطها بذراعيه محاولًا تجنيبها أثر السقوط..

- أنتِ بخير؟

كيف تُكَذّب هذه اللهفة في صوته وعيناه تتفحصانها بكل هذا القلق؟ بكل هذا الحنان؟ وبكل هذا الحب؟

كيف تُكذّب؟ و.. كيف تصدق؟

تشعر به يجذبها ليختبئ بها خلف مجموعة من الصخور، يضمها إليه بأحد ذراعيه وهو يحاول تَبَيّن نتيجة القتال الدائر هناك بين أقاربه وحرس المعسكر.. يشعر بدموعها تبلل كتفه، وكفها المنقبض يحول بينهما ككل ما صار يقف بينهما فيرتجف جسده بلوعته.. لم يعتد أن ترفض عناقه وهي بهذا القرب لكن لا بأس.. على الأقل توقفت عن الصراخ كعادتها مؤخرًا كلما كانت تراه..

كيف يصف اشتياقه لها في هذه اللحظة وهي بين ذراعيه؟ قريبة كما أنفاسه.. وبعيدة.. بعيدة كما السماء!

- بيننا حديث طويل ليس هذا وقته ولا مكانه.. لا تخافي.. لن يصيبك سوء.. كنت وسأبقى درعك أمام الدنيا كلها.

وهن الشوق في كلماته يناقض القوة الحمائية التي تحيطها؛ لكن ابتسامتها الساخرة بمرارتها تصيب عينيه كسهم مارقٍ، فينعقد حاجباه وهو يهم بقول شيء ما؛ لكن صوت إطلاق النار يشتد فيشدد ضمته لها لدقائق بدت لكليهما كدهر كامل، قبل أن يرى جماعته يقتربون راكضين، يُظهر نفسه لهم من مخبئه، فيهتف بهما الشيخ عواد:

- بسرعة.. قبل أن يدركونا من جديد.

تحاول تهدئة روعها مستسلمة مؤقتًا لشعورها بحمايتهم، وهم يعاودون الركض مستغلين درايتهم بالصحراء حولهم؛ لكنهم يسمعون صوت صفارات الإنذار تدوي خلفهم وسط صمت الليل، قبل أن ينافسها صوت إطلاق النار أحادي الجانب خلفهم هذه المرة!

تصرخ بخوف يتحول لرعب وهي ترى مراد يتوقف عن الركض فجأة ليسقط على ركبتيه.. ثم تتلون عيناها بلون دمائه التي أغرقت الأرض تحته..

***

- لماذا خاطر بالمجيئ لإنقاذي؟ لماذا خاطرتم كلكم؟

تمتزج حروفها بدموعها وهي تراقب أحدهم يطبب له جرحه في المخبأ الجبلي الذي هربوا إليه عبر نفق بدائي اقتادهم إليه الخال عواد بعد هروبهم من رصاص الإنجليز.. عواد الذي قال بحسم رغم الحزن الذي خنق صوته:

- لم نكن لنتركك بين أيديهم أبدًا.. مراد كان ليقلب الدنيا رأسًا على عقب كي يستعيدك.

- كيف عرفتم مكاني؟ ظننت ألا أحد سيصل إليّ أبدًا.

- أحد رجال البدو ممن يساعدون معسكر الإنجليز بالتموين الغذائي والإمدادات رآكِ وتعرف عليكِ.. جاء وأخبرني.. العلمين بأكملها معزولة منذ قيام الحرب؛ لهذا كان من الصعب تبليغ مراد بالخبر؛ لكنني تدبرت الأمر وساعدته على الدخول.. لدينا أنفاق سرية لا يعلم عنها (الإنجليز) شيئًا.

لم تكن تعي معظم كلماته وقلقها على مراد يبتلع تركيزها.. يتقدم منهما الرجل الذي بدا على خبرة علاجية يُطَمئن عواد بقوله:

- فعلتُ ما بوسعي.. استخرجت الرصاصة وطهّرت الجرح.

- متى سيفيق؟

تسأل هي الرجل بلهفة ليرد:

- ربما عند الفجر.

- سيكون بخير.

يقولها عواد مطمئنًا وهو يشير لها:

- ابقي أنتِ جواره حتى أتفقد بقية الرجال.

تقترب من مراد الفاقد لوعيه، تجلس على الأرض جواره.. أناملها تتحسس ضمادة جرحه بوجل عبر أنفاسها المتلاحقة، عيناها تجوبان المكان شبه المظلم إلا من إضاءة مشعل صغير.. (جُحر جديد) للسنجاب.. يا الله! متى ستنتهي الجحور؟

تأخذ نفسًا عميقًا وهي تجد نفسها رغمًا عنها، تنحني لتدفن وجهها في راحة كفه.. لا يزال وهو بهذا الوهن -ومع كل رواسب الجرح القديم- تمنحها رائحته بعض القوة.

لم تدرِ كم بقيت على هذا الحال؛ لكنها تسمع تأوهه أخيرًا فتترك كفه وهي تراه يفتح عينيه:

- غزل.

يهمس بها تحببًا، فتدمع عيناها حنينًا للعهد القديم.. ترتجف شفتاها بشبح ابتسامة بين مرارة وتهكم.. وحده قلبها ينبض بعاطفة خالصة ترجها رجًا وإن بقي جسدها ثابتًا مكانه.. بينما يتفحص هو المكان حوله بدهشة لم تلبث أن تحولت لإدراك صامت..

- خالي والجميع بخير؟

تكتفي بإيماءة خافتة كجواب.. تناوله شربة ماء، ثم تنفذ ما أمرها به الأعرابي الذي عالجه منذ قليل.. تجفف عرقه وتعطيه دواءه متحاشية نظراته.. ولما كاد صمتها يقتله رفع ذقنها إليه ينظر لعينيها متجاهلًا ألمه وهامسًا بأشد ما يقلقه الآن:

- أصابكِ أذى؟

تهز رأسها نفيًا فيعاود سؤالها:

- كيف تشعرين؟

- كيف تشعر أنت؟

تقولها ولا تدري كيف انهار سد كتمانها فجأة! كيف انهمر سيل كلماتها دون رادع وهي تقف لتشير لثوب المشفى الذي لا تزال ترتديه صائحة:

- كيف تشعر وأنت تراني أرتدي هذا؟ يومًا ما حكيت لي قصة أبيك.. حكيت لي عمن ظلموه.. عن رغبتك في الثأر منهم.. عن حفرة حفرتها في زاوية غرفتك طفلًا وأنت تظن نفسك ستهرب عبرها لتصل لمن آذاه فتقتص منه.. حفرة كانت تتسع يومًا بعد يوم ومع هذا عجز جسدك أن يمر عبرها.. أظنك الآن نجحت.. أظنك حققت انتقامك من فوزي نصار.. وها هي ذي ابنته ترتدي نفس ثوب المشفى الذي ارتداه أبوك.. هل يكفيك هذا كانتصار؟ هل تشعر بالشماتة؟

- أشمت في نفسي؟! بماذا تخرفين؟!

يقاطعها بها هاتفًا باستنكار يائس وملامحه تصرخ بعشق لا يمكن تكذيبه.. ذراعه يحاول الوصول إليها في رقدته كي يمسك كفها.. لكنها تبتعد عن مرمى ذراعيه هاتفة بين دموعها:

- لم أعرف عينيك عندما أتيتني منذ قليل ملثمًا! تصوّرا! تعجبث من نفسي كيف لم أعرفك.. لكنني عدت أسخر منها بسؤالي (وهل عرفتك حقًّا؟!).. أنا عشت معك كل تلك الأيام جاهلة بحقيقة الرجل الذي يؤويني بين ذراعيه كل ليلة!

- لم تختلف حقيقته.. على الأقل بالنسبة إليكِ أنتِ بالذات.. كل ما بيننا أنا وأنتِ كان حقيقيًّا من أول خفقة ميّزكِ بها القلب وحتى يلفظ آخر دقاته، وبينهما سيبقى عاشقك وحدك

مهما كانت الظروف.

صوته على وهنه يبدو لها شديد القوة لاهبًا بحرارة تكاد تُحرقهما معًا وهو يردف مستغفرًا:

- ربما أخطأت عندما لم أعترف لكِ من البداية؛ لكنني كنت خائفًا.

- خائف من ابنة فوزي أن تكون كأبيها؟

- بل خائف على (ابنة قلبي أنا) ألا تصدقني فتضيع مني ويضيع بعدها العمر.

- وهل عدت صالحة للحب؟

يأسها يصبغ حروفها فيرد دون تفكير:

- ولو لم يبقَ منك إلا رماد، فسأحبه وأحبك وأحترق معه وبه وله.

تسيل دموعها الصامتة فتخترقها لوعة كلماته:

- قديرٌ على الشوق.. عزيزٌ على الصبر.. وقليلٌ عليكِ اعتذاري.. لكن لي في جفنك شفيعٌ لا تُردُّ شفاعته.. هو الأدرى بحالي منذ علّمني أبجدية الغزل وأنساني حروف الحقد.

تتفحص ملامحه التي تتصارع عليها عاطفته مع خطاياه،

فتشعر وكأنما عادت لليلة احتراق العوامة.. لكنها لن تعود لتنقسم اثنتين من جديد!

المقاومة تبدو على ملامحها وهي تتلفت حولها بعجز من فقد المأوى، (غزل) داخلها تصدقه.. بكل ما فيها تفعل! لكن بقايا من (فايزة) القديمة تحذرها من مغبة الخذلان.. وبينهما تتأرجح هي.. لا.. لا.. لا مزيد من التشتت لن تعود لدوامتها السوداء من جديد.

تضرب الجدار جوارها بقبضتها فيصلها صوته مفعمًا بقلقه الحاني:

- اهدئي حبيبتي.. لا تخافي.. سأفعل كل ما يرضيكِ.. كل شيء سيكون على ما يرام.

يقولها محاولًا طمأنتها، وأشد ما يخيفه أن تنتكس حالتها أكثر.. هل تحسّن وضعها أم أنه يتوهم؟ نظراتها لم تعد زائغة بل أكثر تركيزًا.. كلماتها واعية مترابطة.. والأهم لم تعد تصرخ عندما تراه؛ بل وصارت تقبل سماعه..

يعاوده ألم جرحه فتنفلت منه صرخة ألم لم يعد قادرًا على كتمانها؛ لكنه يدفنها في وسادته ليفاجأ بها تقترب لتعاود الجلوس جواره من جديد.. تُغيّر له الضمادة القديمة التي أغرقها الدم، لتطهر الجرح وتضع أخرى.. يطارد عينيها

المتباعدتين فلا تزيده إلا هربًا.. وأخيرًا يرفع كفها لشفتيه بقبلة مسترضية فتلتقي عيناهما بحديث طويل.. عتابها أمام ندمه.. لوعتها أمام ألمه.. يأسها أمام حزنه.. وأخيرًا وجع طويل يوحدهما بكل هذه المشاعر التي تبدو وكأنها تصهرهما معًا ثم تعيد تكوينهما في هيكل واحد لن ينفصم بعدها أبدًا.

- لم أخنك.

تهمس بها أخيرًا بنبرة غريبة كأنما تنفض عن كاهلها عباءة إثم ثقيل فيعيد تقبيل كفها برقة هامسًا:

- لم أشك لحظة في هذا.. عندما لحقت بك ليلتها في العوامة لم أكن أفعلها لأترصدك؛ بل لأحميكِ.. أحميكِ ولو من نفسك.

تتكدس الدموع في عينيها فيتأوه بخفوت مردفًا:

- لم تخوني ولم أخن.. أنا رجل بدويّ يعرف أين وَضَع قلبُه رحاله، ومتى وضعَه لا يعود لغربة ارتحاله أبدًا.

خيط من الدموع على وجنتها يشي بتصديقها الكامل له ويمنحه الأمل ليهمس:

- عودي إليّ.. بل عودي لنفسك وفداكِ كل شيء.

يقولها وذراعه الحر يضمها إليه، يعيدها لوطنها الأصيل

على صدره، وهذه المرة لم يقف كفها حائلًا بينهما.. !

***

- من كان يصدق أن تنتهي معركة العلمين لصالح الإنجليز بعد كل الدعاية التي أطلقها الألمان على أنفسهم؟

يقولها الخال عواد وهو يشرب من قربة الماء التي ناولها لـ(مراد) وملامحه تنطق بالترقب في وقفته أمام مدخل مخبئهم الجبلي، يراقب برضا حركته التي صارت شبه طبيعية وقد تماثل للشفاء.. ينتهي مراد من الشرب ليطلق زفرة قصيرة وهو يستعيد الأخبار التي يتناقلها الرجال عن آخر مستجدات الحرب، بينما يردف عواد:

- رغم أن (هتلر) لا يزال يطالب قواته الألمانية بالصمود؛ لكن القائد (روميل) لم يعد قادرًا على الثبات في المعركة أمام الإنجليز وحلفائهم، وقد بدأ في الانسحاب نحو الغرب بعدما خسر ما يقارب من مائتيْ دبابة في يوم واحد فقط.. أظن كذلك أن روميل خسر بسبب طول خطوط الإمدادات التي يحتاجها؛ بينما كان الإنجليز ظهورهم للحائط قريبين جدًا من إمداداتهم.

- إيطاليا كانت عبئًا على ألمانيا ولم تساعدها في هذه الحرب، نتيجة جهل ضباطها واعتمادهم على وسائل القتال

القديمة.. أظن أن هذا هو ما شتت (هتلر) الذي وجد نفسه مضطرًا لإرسال قواته للأراضي التي تخسر فيها إيطاليا باستمرار بدلًا من حصوله على الدعم منها.

يقولها مراد ليرد الخال عواد وهو يهز كتفيه:

- بعض الشائعات تقول إن الإنجليز كذلك نجحوا في فك شفرة الاتصالات الألمانية وهو خلل خطير في القيادة الألمانية التي ظلت تحارب ست سنوات دون تغيير شفرة الإرسال التي اعتقدوا أنها معقدة وغير قابلة للكشف؛ لهذا كان الإنجليز وحلفاؤهم في ميدان المعركة على علم بكل التحركات الألمانية قبل حدوثها.. وهذا وحده كان كفيلًا بانتصارهم.

- هطول المطر الآن سيعيق تقدم الجيش الإنجليزي، أظن أن قوات المحور ستستغل هذا في المزيد من الانسحاب.

يقولها مراد وهو يراقب السماء التي تلبدت بالغيوم منذرة بسيل قريب، مستطردًا بضيق:

- لا يعنيني في كل هذا إلا فايزة.. كنت أطمح أن ينتصر الألمان ونكسب دعم السرايا وحمايتها.. هكذا سأعيش عمري هاربًا معها.

فيضحك الخال عواد ساخرًا ليقول بلهجة الخبير بالأمور:

- تظن السرايا ستظل على عهدها بمحالفة الألمان؟ لا يا ابني.. ستدير ظهرها للمهزوم وتصافح المنتصر.. عدو الأمس سيكون صديق اليوم.

- معقول؟

يتمتم بها مراد متشككًا فيضحك الخال عواد حتى تبدو نواجذه وهو يستقر على صخرة قريبة ليقول بشرود:

- هكذا هي الدنيا.. قانون الغاب يفرض نفسه على البشر كما هو على الضواري في الصحراء.. صيحة المنتصر تُخضِع له أعناق الجميع، بينما يتجرع المهزوم علقم خسارته لآخر قطرة.

***

يراقبها مراد في جلستها الشاردة وقد انزوت على نفسها تراقب اشتعال حزمة الحطب التي تأججت أمام المخبأ الذي اتخذوه في بطن الجبل.. الجو صار شديد البرودة ليلًا ولعله كذلك داخل روحها أيضًا..

تراها سامحته؟ طوال الأيام السابقة وهي متشحة بصمتها رغم مراعاتها له في مرضه.. تسمعه وهو يحكي لها كل تفاصيل ماضيه من جديد دون إخفاء أي شيء هذه المرة..

تتعاطف أحيانًا فيبدو هذا في لمسة كف.. تشاركه الحنين أخرى فتولد على شفتيها ابتسامة شوق.. يتحرر غضبها تارة فينعقد جبينها وكأنما رسمت عليه ألف متاهة تُنذره باليأس من الرجوع.. بينما تبدو له عاطفتها كل مرة كأنها لا تزال حبيسة سجن غير مرئي فقَدَ مفتاح الغفران فيه للأبد!

يجلس جوارها يضمها إليه مريحًا رأسها على كتفه، لم يعد يسألها عن حالها فهو به عليم.. تسأله بنبرة شاردة عن أحوال الحرب وإلى متى سيبقون هكذا هاربين هنا.. يجيبها بما يعرفه ثم يقول ببعض التعجب:

- الأخبار التي وصلتنا عبر رجالنا تفيد بأن الإنجليز يبحثون عنك بضراوة ولا أفهم السبب ما دمتِ أخبرتهم عن مكان السلاح.

تتردد قليلًا ثم تهمس:

- لم أفعل.. كذبت عليك ليلتها.

يطلق صيحة إدراك سبقت صمته القصير، وقد وعى سبب فعلتها، قبل أن يتنحنح ليرفع ذقنها نحوه هامسًا:

- هذا لا يجعل أمامنا سوى مخرج واحد.. أخشى أن أصارحك به فتسيئي فهمي.

تُضيّق عيناها للحظات كأنها تقرأ أفكاره ثم تومئ برأسها قائلة:

- لا نجاة لنا إلا لو أخبرت الإنجليز بمكان السلاح.. لكن.. ألن يعرضك هذا لغضب (السرايا)؟

- لا يعنيني الآن إلا سلامتك أنتِ!

ترمقه بنظرة متفحصة طويلة ثم تهز رأسها موافقة لتجري الأمور بعدها بسرعة غريبة كأنما يكافئها القدر بعجلة الخلاص!

في خلال أيام فقط كان الخال عواد قد تدبر الأمر ليضمن سلامة الجميع بعد صفقة اعترافها بما تعرفه؛ مُصرًّا أن تبقى هي آمنة في مخبئها ولا تظهر في الصورة كما اشترط مراد.. تفقّد رجال الإنجليز مكان الكهف الذي دلهم عليه وصفها؛ لكن الصدمة كانت في انتظارهم!

وجدوا السلاح حقًّا هناك في مخبئه.. أو على الأدق -بقاياه- فقد كانت المفاجأة التي تنتظر الجميع أن الكهف قد تم تفجيره أثناء الحرب الدائرة!

- تضحكين؟

يهتف بها مراد بين استنكار وقلق وهو يرى فايزة تنفجر

في الضحك بمجرد ما أخبرها عن الأمر.. ضحكات اختلطت بدموعها وهي تستحضر طيف (فوزي نصار) أمامها.. الرجل الذي طالما تباهى بأن له من اسمه نصيبًا فلا يعرف إلا الفوز والنصر.. نفس الرجل الذي فقد حياته لأجل ما صار الآن حفنة رماد لم يستفد منها أحد.. ! أي أحد!!

(الجوكر) ذهب للجحيم بكذبته! فلم يكن سوى ورقة ممسوحة الرسم زهدتها أيدي اللاعبين، ألقتها أيديهم وداستها أرجلهم.. فأي خسارة!

***

على (صخرة الوعد) بمطروح تجلس فايزة تراقب الموج الهادر بعينين ساكنتين.. ما أشبهه بحياتها التي تلاعبت بها العواصف حتى وجدت لها شاطئًا ومرفئًا..

- كنت أعرف أنني سأجدك هنا!

صوته القلق يداعب أذنيها مع تنهيدة ارتياح وهو يتخذ مجلسه جوارها، يضمها إليه مريحًا رأسها على صدره مردفًا:

- كدت أجن عندما لم أجدك في البيت.

- ظننتني هربت؟

ترفع إليه عينيها بسؤالها، ليمسد إبهامه شفتيها بجواب قلق

غير منطوق، لكنها تبتسم وهي تعود بشرودها نحو البحر هامسة:

- تعبت من الهروب.. لا تخف.. أنا تعلمت الدرس.. فهمتُ أنه لا يمكنني تغيير الماضي لكن يمكنني تغيير الحاضر والمستقبل.. فهمت أنه ربما أكون قد ذقت مرارة الفقد في سن صغيرة؛ لكن ربما كان هذا تمهيدًا لعطايا الغد في سن أكبر.. فهمت أن الحزن قد يعطل عجلات قطار الحياة؛ لكن الأمل دومًا موجود ليدفعها.. وأنه مهما بلغ حجم الجرح في القلب فالدواء دومًا موجود في اليقين بالغد، وأن أي خسارة يمكن تعويضها ما دمت لم أخسر نفسي بعد.

تاج اعتزاز ترسمه قبلاته على جبينها وهو يضمها إليه أكثر، فتمنحه ابتسامة رائقة ذكّرته بعهدهما القديم، يسألها وهو يتأمل عينيها حبيبتيه:

- كيف تشعرين الآن؟

تأخذ نفسًا عميقًا كأنها تملأ صدرها من رائحة البحر حولها، من لون السماء وزقزقة الطير، ومن عبير عشقه هو الذي يفوح مع دقات قلبه اللصيقة بصدرها لتهمس أخيرًا:

- أشعر أني.. أني حُرّة.. حرة..

تكررها وصوتها يعلو تدريجيًا حتى يصل حد الصراخ في

المرة الأخيرة فيشدد ضمته الرفيقة لها وعيناه تدمعان بتأثر مع استطرادها الشارد:

- حرة من كل شيء.. من قيود الصمت.. الوجع.. القهر.. الخذلان.. والذنب!

- والعشق؟

- هذا الذي لا أريد التحرر من قيده أبدًا.. سأبقى أسيرته للأبد!

يضحك بارتياح وهو يقبل عينيها فتضحك بدورها وهي تشير للصخرة التي يجلسان عليها:

- تذكر يوم أسميناها (صخرة الوعد)؟

- نعم.. وعَهِدْنا إليها كلما خانتنا أيامنا بفُرقَة أن ترد كلًّا منا لصاحبه.

- ونقشنا عليها اسمينا كما نعرف بعضنا.. لا كما يعرفنا الناس.. (غزل) و(غريب).. لكنني أريدك الآن أن تنقش اسم (فايزة).. أنا صالحت اسمي كما تصالحت مع كل شيء.

- وأمحو (غزل)؟

- لا.. لا تمحه.. ربما.. قريبًا.. تجاورنا صاحبته..

تقولها بتردد، فيرمقها بنظرة متسائلة، لتردف بابتسامة واعدة وهي تتحسس بطنها:

- أثر قدميها الصغيرتين سيجاور أثر أقدامنا على الرمال.

- أنت..؟!

يهتف بها بفرحة طاغية وعيناه تنتقلان بين بطنها وعينيها فتتراقص نظراتها بسعادة ماكرة:

- ربما.. لو كان عقلي لا يزال يجيد الحساب!

تمتزج ضحكاتهما للحظات وهو يكاد يعتصرها بين ذراعيه، ليصلها همسه المتهدج بانفعاله:

- آه حبيبتي! لو تعلمين كم تمنيتها من أول أيام زواجنا.. لكن شيئًا بداخلي لم يكن يستسيغ أن يأتيني طفلنا وأنا أخفي عنك الحقيقة.. أردته أن يأتي وقد صفا بيننا كل شيء دون شائبة.

- كما الآن؟

- الجواب لديك!

يقولها حذرًا منتظرًا أن تُطوَى صفحة الماضي، وها هي ذي تفعلها بينما تشبك أناملها بأنامله هامسة بيقين:

- كما الآن.

الخاتمة

(الحب ليس ورقة (اليانصيب) التي قد تكسبها في ضربة حظ.. ولا (الشريط) الذي تمسه أناملك في خط السباق الأخير.. ولا (الكأس) الذهبية التي ترفعها مزهوًا بمركزك.. الحب هو الروح التي تدفعك لكل هذا.. الحب نفسه هو الفوز)

***

- هل أبدو مثيرة للسخرية؟ لا أظن الثوب يليق بي!

تغمغم بها (إيريني) التي انزاح عنها لقب (مدموازيل) أخيرًا، وهي تتأمل نفسها في ثوب زفافها الأبيض أمام المرآة في غرفتها بعوامة (عبد العظيم باشا) حيث سيقام حفل زواجهما بعد دقائق، لتردّ فايزة وهي تثبّت لها الطرحة البيضاء فوق رأسها هاتفة بفرحة مشعة:

- بل تبدين رائعة.. لا أظنني رأيتك من قبل أجمل من اليوم.

تدمع عينا إيريني وهي تعود ببصرها نحو مرآتها هاتفة بصوت متهدج:

- شكرًا فايزة.. أنتِ من طرزتِ الطرحة بنفسك.

تقبّل فايزة جبينها، فتغمغم العجوز وهي تتحسس الثوب

على جسدها مردفة:

- تعرفين كم مرة تمنيت ارتداء هذا الثوب؟ تعرفين كم عمره؟ أنا نفسي لم أعد أذكر.. في كل مرة كنت أحيك ثوب زفاف لامرأة كنت أعود لهذا الثوب في خزانتي، وأسأل نفسي: هل سأرتديه حقًّا؟ ولمن؟ سنوات طويلة ظننته سيبقى حبيس دولاب ملابسي حتى يُدفن معي!

تقاوم فايزة تأثرها وهي تضحك هاتفة بمكر:

- وها قد ظهر الفارس ليخطفك على حصانه.. ربما قد تأخر قليلًا لكن لم يفت الوقت بعد!

- تظنينه يحبني حقًّا؟

- لا.. لا أظن..

تعبس ملامح العجوز لكن فايزة تستطرد ضاحكة:

- أنا متأكدة.

تنطلق ضحكاتهما معًا لتعانقها إيريني هاتفة بتأثر:

- لو كانت لي ابنة ما كنت لأحبها مثلك.. حمدًا لله على سلامتك.. تعرفين؟ طوال هذه الشهور وأنا أؤجل زفافنا طمعًا في عودتك بعد شفائك.. لم أكن لأتزوج (عبده) أبدًا دون حضورك.

ورغم تأثرها بعاطفتها الصادقة؛ لكن فايزة تتجنب الحديث عن الماضي محاولة محو هذه الفترة من حياتها، فتربت على كتفي العجوز هاتفة بمرح:

- عبده؟! يبدو أنه فاتني الكثير.. من فضلك أريد معرفة قصة تحول (عبد العظيم باشا) لـ(عبده).. وبأدق التفاصيل!

تتأوه العجوز بخجل تحمر له وجنتاها، بينما يصدح صوت الباشا خلفهما:

- هل سننتظر طويلًا؟ نفد صبري يا ناس!

تبتسم فايزة بعمق عاطفتها وهي ترى العجوز يتقدم بنظرات عاشقة نحو إيريني.. يتلقف كفيها بين راحتيه هامسًا بمكر:

- من هذه الفاتنة؟ أين اختفت إيريني؟

- عبده!

تهمس بها إيريني بخجل وهي تخفي وجهها في كتفه فيهمس مغازلًا:

- عيون عبده.

- آآه يا أولادي! ذكرتوني بالذي مضى!

يهتف بها مراد متهكمًا بمرح، وقد ظهر عند باب الغرفة يمسح دموعًا وهمية فيلتفت نحوه الباشا رافعًا إحدى حاجبيه بقوله:

- تسخر مني يا ولد؟ أنا أكثر شبابًا منك!

- وهل قلت غير هذا؟

يضحك بها مراد وهو يضم فايزة إليه يراقبان معًا العجوزين وهما يغادران الغرفة ليلحقا بالحفل بالخارج.. يتحركان خلفهما متشابكي الكفين ليلتقيا بعمة فايزة التي أقبلت عليهما تعانق فايزة ثم تقبل جبينها، فتهمس لها الأخيرة بمرح:

- ما رأيك يا عمتي؟ ألا تغارين من إيريني؟ لو أعجبك أحد من الحفل أشيري إليه فقط ودعي لي الباقي!

- بنت! عيب!

تهتف بها المرأة بعتاب غير حقيقي، وهي تشعر بالارتياح من مرح فايزة المستحدث.. الرضا الحقيقي الذي يشع على محياها، والذي تشهد أنها لم تعرفه فيها طوال عمرها كله.. لهذا أحاطت وجه فايزة بكفيها لتهمس لها بين دموعها:

- قلت لك يومًا أن الحب بحر هائج تغرنا نعومة رمال

شطآنه فلا نتتبه إلا والموج يغرقنا.. لكن يبدو لي أنك وجدت الربّان الخبير لسفينتك فلن تغرقي برفقته أبدًا.

- أبدًا.

تكررها فايزة بيقين وهي تهز رأسها، تمنحها قبلة أخيرة، لتلتفت باحثة عن مراد؛ لكنها تجد عينيه -كعهدهما- تنتظرانها..

- تسمحين لي بهذه الرقصة؟

صوته ينتزع الكون كله من وعيها سوى عن هالة شعورها بأنها بين ذراعيه.. أي أنغامٍ هذه؟ لا يهم! لا لحن يعلو فوق صوت دقات قلبيهما وهما يتراقصان على نفس الإيقاع..

- وعدتني في رسالتك التي أرسلتها لي في المشفى أن تحكي لي حكاية الفتاة ذات المريلة السوداء والحرملة البيضاء والضفيرتين.

- ألم أفعل؟

يراوغها بها بابتسامة متلاعبة وهو يضمها إليه أكثر دون الإخلال بحركات الرقصة، فتهز كتفيها بدلال نافية.. يحكي لها عن أول مرة رآها فيها متجنبًا ذكر فوزي نصار، ثم يهمس جوار أذنها بحروف تقطر عشقًا:

- ضفيرتك كانت تتمايل على خصرك فترقص على إيقاعها روحي.. ألْف (لا) كانت تقف بيننا، ووحده قلبي كان يهتف بـ(نعم).. عطرك العتيق أسر جوارحي وأقسم ألا تزيده الأيام إلا عبقًا.

فتدمع عيناها وهي تلصق وجنتها بصدره كأنها تسمع عهد قلبه الذي أوفى به.

تنتهي الرقصة فترفع عينيها إليه لتلمح في نظرته ترددًا تعرفه ويجعلها تسأله بابتسامة ناعمة:

- ألمح في عينيك طلبًا تخاف أن تفصح عنه.

فيبتسم بدوره وقبلته تستريح على جبينها:

- هذه هي حبيبتي التي تفهمني من نظرة.

ترمقه بنظرة مترقبة والمرح في كلماته يكتسي ببعض التردد:

- نحن.. ألن نعود لعوامتنا؟

الحذر الشائك ينثر بذوره بينهما.. طوال الأيام السابقة بعد عودتهما للقاهرة وهو يقيم معها في بيته البعيد يتحاشى الذهاب بها لعوامته؛ إشفاقًا عليها من مرارة الذكرى؛ لهذا يُفاجأ بابتسامتها المرتجفة:

- كنت سأقترح عليك هذا.

- خائفة؟

يسألها بعد انتهاء الحفل وهو يسير جوارها في الطريق من عوامة الباشا لعوامته، فتسند رأسها على صدره، تجيب بزفرة عميقة:

- جدًّا.

يتوقف مكانه فجأة قائلًا:

- دعينا لا نذهب إذن.

- لا.. دعني أهزم معك خوفي.. من كل شيء.

يتنهد وهو يربت على شعرها داعمًا برفق، يصلان لمدخل عوامته المجاور لعوامة فوزي المحترقة فتتوقف فايزة فجأة.. تغمض عينيها رغمًا عنها مكتفية بنظرة واحدة اختلستها لكوخ نوح الذي صار خاليًا منه للأبد.. تسمع مراد يطلب منها الرجوع مشفقًا لكنها تهز رأسها:

- أنا بخير.

تقولها وأناملها تزداد تشبثًا بكفه، لا تزال مغمضة العينين مستسلمة لخطواته جوارها، يعبران معًا السقالة ليصلا لمدخل عوامته، يقطف زهرة حمراء مما زرعها خصيصًا لها

يضعها جوار أذنها، يقبل وجنتها وهو يتحسس بطنها الذي بدأ في البروز هامسًا:

- لو تعلمين كم افتقدك كل شيء هنا.. كل شيء.

تتأرجح ابتسامتها بأمان يتزايد مع عمق العشق في نظراته، يفتح لها الباب فتستقبلهما أمه ضاحكة ببشر، تضم فايزة إليها هاتفة بحرارة:

- لم أستطع حضور الحفل بسبب مرضي.. لكن حدسًا أخبرني أنكما ستعودان إلى هنا..

ثم تلتفت نحو مراد مردفة بحنان أمومي:

- (وليفتك) نوّرت بيتك.. الله لا يعيد أيام الفراق.

تبتسم لها فايزة متنعمة بدفء عناقها لتهتف المرأة بفرحة:

- أكل الحفلات هذا لا يشبع بطنًا.. سأعد لكما أجمل طعام من صنع يدي.

- تمهلي يا أمي.. لسنا مستعجلين.

يهتف بها مراد وهو يرى المرأة تهرول نحو المطبخ كأنما رُدت إليها صحتها، تعرض عليها فايزة المساعدة؛ لكن المرأة تهتف باعتراض حاسم:

- أبدًا! هو نذري ويجب أن أوفيه.. أول أكلة لكما هنا تكون من يدي وحدي.

تضحك فايزة وهي ترى مراد يسحبها نحو الشرفة، تأخذ نفسًا عميقًا وهي تتحاشى النظر للجوار.. تُنَاظِر النيل أمامها لتهمس بشرود:

- آآآه! (الشرفة العزيزة) كما كنت أدعوها دومًا.. لم يتغير المنظر.

- بل تغير..

يقولها وهو يلصق ظهرها لصدره مطوقًا إياها بذراعيه مردفًا:

- ازداد جمالًا وأنت هنا معي بعد وضوح كل شيء.. لا غيوم تُكَدّر الصورة.

تلتفت نحوه لتصطدم عيناها فجأة بالتمثال القريب.. وجه يشبه وجهها تمامًا، تتأوه بخفوت وهي تقترب منه، تتحسسه بأناملها لتهمس بتأثر:

- متى صنعته؟

- طوال الأيام السابقة لم يكن لي رفيق سواه.

تضحك ضحكة طفولية وهي تكاد تقفز بفرحتها، تتعلق

بعنقه وشفتاها تطبعان أثرهما على شق ذقنه، أناملها تتلمس تقوس حاجبيه، لم تعد ملامحه مموهة في عينيها.. هو مراد.. وهو غريب.. الحبيب الذي ملك القلب من أول نظرة فلم يسع ثورة عشقها سوى ميدانه، ولم تمطر سحب شوقها إلا في واديه!

تمد أناملها تستخرج شيئًا ما من حقيبتها الصغيرة، ترفعه أمام عينيه اللتين اتسعتا وهو يميز ما تحمله:

- خاتمي! تعجبت عندما استيقظت صباحًا ولم أجده في إصبعي.. أنتِ أخذته.. ما هذا؟!

يسألها منتبهًا لتوه أن الخاتم صار يحمل فصًا! يرمقها بنظرة مترقبة وهو يراها تُلبسه إياه بنفسها لتهمس بنبرة قوية فاضت بعاطفتها:

- طالما بدا لي خاتمك يشبهك.. هو سقط فصه وأنت سقط قلبك.. أظنك الآن استعدت كليهما.

يبتسم بإدراك وهو يرفع كفها لشفتيه بقبلة عميقة، فتريح رأسها على كتفه، لتجد الجرأة أخيرًا فتطيل النظر للعوامة المجاورة وقد استحالت هيكلًا أسود بدا وسط ظلمة الليل كأنه غير موجود.. رماد بلا قيمة تذروه رياح النسيان..

***

- فايزة! ما هذه المفاجأة؟ لم أكن أظن أنك ستأتين هنا ثانية!

يستقبلها بها عصمت في مكتبه بمستشفى العباسية وهو يراها تغلق الباب خلفها، فتبتسم وهي تتقدم نحوه بما تحمله.. يتفحصها بنظرات راضية، طال شعرها كثيرًا واحتضن سواده زهرة حمراء خلف أذنها، ثوبها منفوش بلون وردي زاهٍ، نظراتها واثقة وابتسامتها حقيقية تنبع من عينين بارقتين بالأمان والحب.. تتوقف نظراته قليلًا أمام ما تحمله بين ذراعيها؛ لكنه يرجئ السؤال عنه.

يشير لها فتجلس أمام مكتبه.. عيناها تدوران في المكان كأنما تراه لأول مرة قبل أن تعود ببصرها نحوه لتقول بابتسامة واسعة:

- لماذا؟ ألا تستحق على الأقل أن أشكرك؟

يبتسم بدوره وهو يعدّل وضع نظارته على أنفه قائلًا:

- علامَ الشكر؟ هو عملي على أي حال.. لست بحاجة لسؤالك عن حالك.. مراد يطمئنني دومًا.

تهز رأسها ثم تُطرق به فيهمهم مشبكًا أنامله أمام وجهه:

- ليس الشكر فقط ما أتى بكِ.. صحيح؟

ترفع إليه عينين زاخرتين بمشاعرها ثم تتحسس ما تحمله بين يديها هامسة بخفوت:

- تعرف أين كنت قبل أن آتي إلى هنا؟

لم تطل نظرة ترقبه وهي تمنحه الجواب:

- فيلّا فوزي نصار.

يعود بظهره للخلف وهو يمط شفتيه بإشفاق:

- لماذا أثقلتِ على نفسك؟

- كنت أريد طيّ ما بقي من صفحات الماضي.. ذهبت هناك، صعدت لغرفة أمي، ولآخر مرة سمحت لنفسي أن أنزل تحت فراش فوزي القديم، من هناك لمحت طيفها يبتسم لي، يعانقني، يهتف بي أن الفوز الحقيقي هو الحب.. وأن لي من اسمي أوفر نصيب.. لكنها لم تكن وحدها، نوح كذلك كان هناك، يضمها إليه ويبتسم لي راضيًا قبل أن يختفيا معًا!

ينعقد حاجبا عصمت ببعض القلق فتضحك قائلة:

- لا تخف.. لم أنتكس.. صرت أعرف الفارق بين (العصاب) و(الذهان) وهذه المفاهيم التي تخصكم، والتي صرت أقرأ عنها كثيرًا.. لم تكن هلاوس تستحق القلق.. لعلها فقط كانت انعكاس لصورة الماضي داخلي.

يبتسم راضيًا وهو يقول بتفهم:

- بما أنك صرتِ تقرئين في علم النفس؛ فأظنك تعرفين (فرويد).. هو له مقولة شهيرة: (المشاعر التي لا نعبّر عنها لا تموت أبدًا.. تدفن حية وتظهر لاحقًا بطرق أبشع).. أظن هذا ما حدث معك، والذي أستطيع الجزم الآن أنك تعافيتِ منه تمامًا.

- صحيح.. أنا أخذت قراري بشأن الفيلّا.. سأهدمها تمامًا، وأقيم مكانها حديقة كبيرة يلعب فيها الأطفال.. لن أعود أذكرها بصورة المائدة الخضراء وأوراق الكوتشينة ومذاق الحسرة في حلقي؛ بل سأستبدل كل هذا بصورة أمي ونوح.. الحب عندما يولد ليعطي لا ليأخذ فينتهي به المطاف ليكون الأبقى والأخلد.

يبتسم لها بفخر وهو يفتح درج مكتبه، يستخرج ملفًّا ورقيًّا يرفعه أمام وجهها قائلًا:

- هكذا يمكنني إغلاق هذا الملف للأبد.

تبتسم بدورها وهي تكتف ساعديها بقولها:

- ليس بعد.. وعدتني يومًا ما أن تأخذ دورك في الحكاية.. ينتابني الفضول لقصة الورقة التي سقطت من جيبك يومًا.. ماذا كان مكتوبًا فيها؟ آه.. أظن.. (مظلة عشقنا كانت مثقوبة

فكيف أقف..)

تقطع عبارتها محاولة التذكر، فتتلاشى ابتسامته خلف غلالة من شروده:

- فكيف أقف وسط الريح أستهزئ بالمطر.

تحترم صمته الشارد للحظات ثم تغمغم بفطنة لا تنقصها:

- لو صدق حدسي فأنا لم أكن لديك مجرد حالة مثيرة لطبيب.. أو واجب ثقيل من السرايا.. اهتمامك بحالتي كان يفوق هذا.

ضحكته الخافتة لا تشفع للحزن الذي استباح ملامحه وهو ينزع نظارته الطبية ليضعها على المكتب؛ كأنه يخلع معها ثوب مهنيته.. ترددٌ قصير يجتاحه قبل أن يرفع بصره نحوها:

- معك حق.. ربما كان اهتمامي بكِ فائقًا لأنك.. تشبهينها!

ترمقه متوجسة بنظرة متسائلة ليستطرد بشرود:

- شقيقتي! هذه الورقة خطتها أناملها يومًا بعدما غدر بها أحدهم باسم الحب.. أبي توفي في طفولتنا كما أخبرتك من قبل، ويبدو أنها ركضت خلف أول من منحها عاطفة حُرمت منها.. كانت تذبل يومًا بعد يوم وهي تفتقد مَن يمكنها

التحدث إليه.. كنت أنا مسافرًا للخارج للدراسة.. ووالدتي لم تستطع فهم ما تمرّ به سوى أنه مجرد (دلع بنات) كما يقولون.. وقتها ساءت حالتها النفسية كثيرًا حتى أنها لم تكن تغادر فراشها إلا قليلًا.. كنت أتمنى لو كنت ساعتها معها.. أسمعها ولو لم يمكنّي منحها أي شيء سوى شعورها أنها ليست وحدها وأن هناك من يفهمها.

تهز رأسها بإدراك لتسأله:

- وكيف هي الآن؟

- صارت أفضل كثيرًا.

ترمقه بنظرة متشككة وكل خلجاته تفضح جوابًا عكسيًّا؛ لكنه يعاود ارتداء نظارته وهو يقف مكانه ليصافحها بقوله:

- لا تترددي في الاستعانة بي متى احتجتِ ذلك.

تكتفي بها كإشارة لوجوب انصرافها فتبتسم وهي تصافحه بدورها..

لتتذكر شيئًا يجعلها تسأله ببعض القلق:

- ما موقفك أنت من السرايا الآن بعدما أبلغت أنا الإنجليز بمكان صفقة السلاح؟ هل آذوك وقد شعروا أن تعبك معي راح هدرًا؟

فيضحك وهو يتأكد من الباب المغلق ليجيب بهمسه:

- الفئران أول من يغادر السفينة الغارقة.. أسرة الملك بعدما كانت تتجنب حتى مجرد رقص نسائهم مع الإنجليز في الحفلات العامة أثناء المعركة؛ الآن صاروا هم نفسهم من يمدون أيديهم لمصافحة الإنجليز بل والاحتفال معهم بالنصر.

تتنهد تنهيدة طويلة وهي تهز رأسها شاعرة بأنها وصلت خط النهاية.. تنحني لتزيح اللثام عما كانت تحمله، لتبدو لوحتها الجديدة التي ترفعها أمامه.. يبتسم بفخر وهو يراها لوحة جديدة للنيل من شرفة عوامة مراد وقد زيّنتها زهور حمراء تشبه هذه التي خلف أذنها، يخترق الموج الهادئ قارب صغير بشراع أبيض مبتعدًا كأنه يعانق السماء، وفي زاوية اللوحة تظهر بقايا سوداء من عوامة محترقة.. يبدو (سوادها) ضروريًا حقًّا كي يبرز (بياض) شراع القارب..

- شكرًا.. شكرًا على كل شيء.

تقولها بامتنان ثم تغادر الغرفة تُلاحقها نظراته الشاردة.. يتحرك نحو نافذة غرفته يراقب خطواتها المبتعدة في فناء المشفى وهي تحمل لوحتها الجديدة.. أصابعه تمتد لجيبه تعتصر الورقة التي لا تغادر مكانها أبدًا.. تُذَكره دومًا بصاحبتها وأشباهها.. هؤلاء اللائي لا يسمعهن أحد.. ولا

يفهمهن أحد.. يفترسهن الحزن وتنهشهن غربة لا تنتهي.. لم يخبر فايزة أن شقيقته رحلت للأبد بعد تاريخ طويل من الاكتئاب، تاركة في قلبه نُدبة لن تمحى ونَذْرًا أقسم أن يُوَفّي به.. ألا يدع إحداهن تسقط في هذا البئر ما دام في استطاعته أن يمد لها يدًا.

***

بعد سنوات..

- غزل.. لا تبتعدي!

تهتف بها فايزة وقد تجمعت مع عائلة مراد في (العلمين)، الأمور تعود لنصابها رويدًا رويدًا وإن بقيت بعض المناطق محظورة الاقتراب بعدما تركت الجيوش المتصارعة الألغام مدفونة هناك.. يومًا ما سيذكر التاريخ أن معركة العلمين التي بدأت في يوليو وانتهت في نوفمبر لعام ١٩٤٢ كانت نقطة التحول في الحرب العالمية الثانية وكانت بداية النهاية.. جاء الغريمان يتنازعان على أرض لا يملكها أحدهما ونقلا النزاع لبلد مسالم، ثم دارت الحياة ومضى التاريخ في رحلته وذهب كل من المنتصر والمهزوم.

أجل.. انتصر المستعمر الإنجليزي؛ لكنه لم يفرح بانتصاره كثيرًا؛ فلم يلبث أن لفظته أرض مصر شعبًا وجيشًا، وتحققت

نبوءة العارفين.. عَزّت مصر بجيشها وقامت ثورة يوليو المجيدة بعد عشر سنوات تقريبًا من تلك المعركة، وصار للشعب جيش يحميه.. ويجعل كلمته من رأسه!

- لا تخافي يا أمي.. ألعب مع الصبية..

تهتف بها غزل وهي تركض خارج الخيمة التي نصبت في العراء، يأتي مراد وقد حمل وعاء الماء الذي ملأه من البئر القريب يضعه جانبًا ثم يجمع بعض الحطب مع أقربائه ليشعلوا ما شابه موقدًا كبيرًا لتسوية الطعام..

تقترب فايزة تساعد النساء ثم تجلس وسط الجميع تشاركهم تناول الطعام، يميل مراد على أذنها هامسًا:

- لا تخافي عليها هكذا.. لن يأكلها الذئب.

يقولها ممازحًا ملاحظًا شدة خوفها على الصغيرة فتبتسم له وهي تهمس في أذنه:

- حفيد خالك عواد يغازلها.. تعرف ماذا رأيته يفعل بالأمس؟ كان يغني لها (جفنه علم الغزل)!

يرتفع حاجباه بدهشة ثم ينفجر في الضحك، يتصنع الغضب أخيرًا وهو ينادي الصبي الذي اقترب منه بنظرات مذنبة، يسأله إن كان حقًّا فَعَلها فيشيح بوجهه معترفًا بفعلته

ويَعِد بعدم تكرارها..

- هكذا ضَمِنّا عريسًا للبنت!

يقولها مراد بمرح بعد ساعات وقد اختلى بفايزة في خيمتهما التي تسلل منها ضوء القمر، لتهتف باعتراض:

- لا تتحدث هكذا ولو مازحًا.. أنا أغار على ابنتي.

- تغارين عليها أم منها؟ صارت هناك غزل أخرى يُغَنّى لها (جفنه علم الغزل)!

يشاكسها بها فتلكزه في كتفه عابسة للحظات، قبل أن يفتر ثغرها عن ابتسامة تحولت لضحكة رائقة وهي تريح رأسها على صدره شاردة في ضوء القمر، الذي بدا لها شاهدًا على قصتهما من البداية.. لتهمس بقلب متخم بعاطفته:

- لا أزال أذكر تلك الليلة التي سمعناها فيها معًا.. والقمر مكتملٌ كما هو الآن.. تقترب مني وشفتاك ترددان معه.. جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل..

فيبتسم وهو يضمها إليه أكثر، يتذكر بدوره ليهمس في أذنيها بكل ما أوتي من عشق:

- قل لمن لام في الهوى هكذا الحسن قد أمر.. إن عشقنا فعذرنا أن في وجهنا نظر.

***

تمت بحمد الله

نرمين نحمدالله

أكتوبر ٢٠٢٢

المراجع

- كتاب القاهرة في الحرب العالمية الثانية.. تأليف أرتيميس كوبر.

- كتاب معركة العلمين.. تأليف السيد فرج.

- كتاب السرايا الصفرا (رحلة في مذكرات مدير مستشفى المجاذيب).. تأليف محمد الشماع.